



أحمد الزنتي



البساط السفيروزمي

— الرواية الحائزة على جائزة الشارقة للابداع العربي 2016 —



البِسَاطُ الفَيروزيُّ

«في ذِكْرِ مَا جَرَى لِيُونُسَ السَّمَّانِ»

رواية

احمد الزناتي

البساطُ الفيروزيُّ: رواية / احمد الزناتي .

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2022.

288 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-114-7

1- القصص العربية

أ- العنوان : 813

رقم الإيداع : 28072 / 2021

الطبعة الأولى : يناير 2022.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني – الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.

©جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

البِسَاطُ الفَيروزيُّ
«فِي ذِكْرِ مَا جَرَى لِيُونُسَ السَّمَّانِ»
احمد الزناتي
رواية



«مَا رَأَتْهُ الْعُيُونُ يُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ، وَمَا رَأَتْهُ الْقُلُوبُ يُنْسَبُ إِلَى الْيَقِينِ».

(النهرجوري-روضة التعريف)

إنثرو

منتصف ليل الجمعة... ١٧ سبتمبر ٢٠١٠

كان الليلُ قد انتصف بالكاد، والقمرُ يُقاربُ الاستدارة.

تَماوجتُ ستائرُ النافذة لحظاتٍ، ثم انفرجتْ مثلَ ستائرِ مسرح، كاشفةً عن أنوارٍ يتهدى ضوءُها المتلألئ من قبة ضريح سلطان العارفين. دنوتُ برأسي من النافذة قليلاً فتبينتُ أنهما قبتان فيروزيتان يتصِلان بحبل من نور أخضر. داخلُ غرفتي استلقتُ كل الأشياء في صمتٍ؛ لتنتهي يومها وسط دقائق الثانية عشرة بعد منتصف الليل، لم يبقَ مستيقظاً سوى صوتُ أنفاسي، وحفيفُ أوراقٍ خريفٍ مُتساقطةٍ على جدرانِ الموتيل الخشبية.

جلستُ مُنكمشاً على الأرضِ أَدقُّ في فجوة ظلامِ الغرفة بعد قراءة خطاب أبي الأخير، طويتُ الخطاب ووضعتُه إلى يميني فاصطدمتُ يدي بالحقيبة الهافان المُكفئة حول نفسها، التفتُ إليها، فأومضُ في عيني شعاعٌ انعكس فوق حلقة الإبريم الفضي، كَأنتِ الحقيبة راقدةٌ مثلُ قطِّ شيرازي مستكين ينشب مخالبه برفقٍ في ذاكرتي ليخطُ كلمتين وفعلين... «أخرجِ الدفترَ الآن وابدأ...».

رَفَعْتُ بصري إلى ساعة الحائط مرةً أخرى؛ كَأنتِ العقاربُ قد استقرت عند الثانية عشرة ليلاً، طَوَّقَتْنِي فكرةٌ أن تكون هذه اللحظة هي الفرصة الوحيدة، وربما الأخيرة لأنفردَ بروحي في خلوةٍ قد لا تتكرر، أسترجعُ فيها ما جرى. أخذتُ الذكريات تتسلل من ثغرة خفية إلى عقلي على نحوٍ أكبر من قدرتي على سدها، نهضتُ من فوق الأرض وتخيرتُ الركنَ المقابل للنافذة، ثم أرحتُ المكتبَ الخشبي الصغير ناحيته وجذبتُ المقعدَ، أخرجتُ الدفترَ ونظرتُ إليه. كان كلُّ شيءٍ جاهزاً ومستعداً: أباجورة صغيرة مثبتة إلى حافة المكتب المتواضع ما لبثتُ أن أضاءتُ سطحَ المكتب بمجرد ضغطةٍ واحدة على المفتاح الكمثري العتيق.

فتحتُ الدفترَ وبسَطتُ يدي فوق الأوراق، وقبل أن أخطُ أي كلمة همستُ: ماذا إن اندفعتُ الكلماتُ من تلقاء نفسها دون أن تتمكن إرادتي من إخضاعها؟ فتذكرتُ عبارة الخواجة... «اكتب... اكتب... ستمكن من اكتشاف نفسك في النهاية».

ولكن... هل تكفي سبعُ ساعاتٍ فقط لتدوين ما جرى؟ سبع ساعاتٍ هي ما يفصلني عن رحلتي صباح غدٍ... ولم لا؟ ما دمتُ تخيلتُ الدنيا مثلَ فيلم سينمائي يتكرر في دورة أبدية، فستضيغ الرسائل الهائلة وسطُ ثرثرة الجالسين في قاعة العرض، وتبقى للمتفرِّج مهمة واحدة بعد الخروج من الفيلم؛ النقاطُ تلكَ الرسائلِ وتدوينها على الأوراق، والآن خطوة واحدة... خطوة واحدة فقط علي أن أخطوها غداً... كي أرى.

المشهد الأول

«مولوي، إنَّ موطنك كبيرٌ جدًّا، فأنتَ لم تتركه ولن تتركه، ومهما ارتحلتَ بداخلِ حدودِه، فسوفَ تظلُّ دومًا ترى الأشياءَ نفسها».

(صمويل بيكيت-مولوي)

كَانَتْ «سارة» جالسةً إلى جوارِي، محافظةً على مسافةٍ ما بيننا وهي تتصفحُ كتالوجَ العروضِ المسرحيةِ. تشاغلَتْ بالنجوم. شردَ بصري مراقبًا لمعانَ نجمةٍ لاحَتْ في صفحةِ السماء، لكنني سرعانَ ما انتبهتُ إلى شعاعِ آلةِ العرضِ الذي مَرَقَ فوقَ رؤوسنا نحوَ الشاشةِ البيضاءِ المعلقةِ في فناءِ الجامعةِ، فاعتدلتُ في جلستي منتظرًا بدايةَ الفيلمِ، كان فيلمًا صامتًا بدأ بمشهدٍ لشابٍ وفتاةٍ جمعتَ بينهما الصدفةُ في رحلةٍ على متنِ أحدِ القطاراتِ المتجهةِ من «فيينا» إلى «جراتس». بعدَ موسيقى الإنترو القصيرةِ، ظهرتْ كلمةٌ مكتوبةٌ على الشاشةِ تقولُ: «أروعَ اللحظاتِ تلكَ التي نعيشها حين يَخيم على حديثنا الصمتُ»، كَانَتْ العبارةُ مذيِّلةً باسمِ «صوفيا دي ميللو».

أخذتُ زاويةَ الكاميرا تتنقلُ بينَ عيني الشابِ والفتاةِ، وهما يختلسانِ النظراتِ المتقطعةَ في خجلٍ، تسودُ بينهما لحظاتُ ترقبٍ. يتوقفُ القطارُ، فينزلانِ معًا، ويضعانِ الحقائبَ في أحدِ صناديقِ الأماناتِ المُحَقةِ بالمحطةِ.

تنتقلُ الكاميرا إلى وجهِ رجلٍ عجوزٍ ذي لحيةٍ خفيفةٍ مشدبةٍ، يرتدي بذلةً سوداءَ، تعلقو أنفهَ نظارةً طبيةً ذاتَ إطارٍ فضيٍّ مُستديرٍ. كان يسيرُ متسللاً أسفلَ أحدِ الكباريِ المقامةِ فوقَ نهرِ المورِ، حاملاً بيدهِ اليمنى برميلاً متوسطَ الحجمِ، بينما يضبطُ بيدهِ اليسرى ربطةً عنقٍ «ببيون زرقاء». يتوقفُ وينظرُ يميناً وشمالاً، ثم يُفرغُ مبتسماً محتوى البرميلِ في النهرِ وعيناه تلمعانُ من خلفِ النظارةِ.

ثوانٍ وتتحولُ «جراتس» إلى مدينةٍ نائمةٍ، الجميعُ يغطُّ فجأةً في نومٍ عميقٍ، أصحابُ المحلاتِ في محلاتهم، سائقو التاكسي داخلَ سياراتهم، البائعونُ في الشوارعِ، الطلبةُ على محطاتِ الترامِ والقطاراتِ.

اقتربتُ الكاميرا من وجهيهما، فكشفتُ عن كسرةٍ حزنٍ دفينٍ رغمَ هذهِ اللحظاتِ؛ بدتُ أعينهما زائغةً قلقةً كما لو كانا يبحثانِ عن شيءٍ ضاعَ أو سلبَ من أيديهما فجأةً. يمشيان قليلاً، يجلسان فوقَ أحدِ المقاعدِ الخشبيةِ في إحدى الحدائقِ. يتركانِ المقعدَ، ويمضيان نحوَ محلِ زهورِ فاخرٍ في نهايةِ شارعٍ مرصوفٍ بضوءِ أولِ النهارِ.

يدخلانِ المحلَّ متشابكي الأيدي، ويتفحصانِ أنواعَ الزهورِ المعروضةِ، يتجولان قليلاً داخلَ المحلِّ، ينظرُ الفتى إلى حبيبتهِ ويومئُ برأسه، فنقتربُ الفتاةُ من أقصى ركنٍ في المحلِّ وتُسحبُ زهرةً من

وسط باقات الزهور المرصوفة.

تسلط الكاميرا على وجه الشاب. كان يبتسم فرحاً وهو يفرغ جيوبه من كل النقود التي في حوزته، ويضعها على الطاولة بجوار صاحب المحل النائم على مقعده. تترك الفتاة رسالة على باب المحل. لم ألمح على الشاشة سوى كلمة Entschuldigung، فخمنت أنها رسالة اعتذار عن عدم استطاعتها سداد ثمن الزهرة.

تخرج الفتاة، وتتمايل مع تمايل أوراق زهرتها الوليدة بفعل النسيم، الذي يتحول شيئاً فشيئاً إلى عاصفة صفراء. تطوح الزهرة من يد الفتاة، وتطوح معها روحها؛ فيحاول الشاب ملاحقة الزهرة الضائعة، بعد أن قذفت بها الرياح إلى بستان رأته الفتاة مرة في حكاياتها.

ويأتي المشهد الأخير حين يستيقظ العاشقان، فيجدان نفسيهما ممددين فوق بساط ملون بألوان شفافة في إحدى الحدائق العامة وقد انتصف النهار. فيمسك كل منهما برأسه ويهزها محاولاً إفاقة نفسه، ثم يشردان قليلاً، فيتذكران أنهما قد شربا من نافورة تأخذ ماءها من ماء النهر المخلوط بالحقار المنوم؛ ينظر كل منهما إلى وجه حبيبه بأجفان ثقيلة.

ينهضان من فوق البساط. يعود الشاب ركضاً إلى محل الزهور الذي زاره في الحلم، فيجد صاحب المحل نفسه يسقي الزهرة نفسها التي كانت قد اختارتها حبيبته في الحلم. ينظر الرجل إليه في ود يعطيه زهرة أخرى دون أن يطلب ثمنها، فيعود الشاب إلى حبيبته.

نبضت لمسة خفيفة بين كتفي، ولاح وجه سارة وهي تهمس في أذني:

- هل كنت تحلم يا يونس؟ لم تتوقف شفتاك عن التمتمة!

- حلمت بالفيلم الذي رأيناه منذ سبع سنوات حين التقينا أول مرة... هل تذكرين؟

- بالطبع... وأنت هل تذكر ما قلته لك عن نهر المور؟

- بالطبع أتذكر... قلتي إن نهر المور هو مرادف لكلمة Amor، وحروف «Amor» إشارات لما سيحدث لنا؛ حرف ال A هو شاب قدمه في بلدٍ وقدم في بلدٍ أخرى، وال M... أرجوحة تعلو وتهبط بين السماء والأرض... وال O حكاية دور في فلکها، وال R فتاة حامل في زهرة.

قبّلت سارة خدي. جذبت يدي برفقٍ لأنهض من الفوتيه الذي غفوت فوقه: «قم واذهب إلى فراشك يا يونس... لقد نعتت وأنا أحكي لك حكاية».

خلعت نظارتي وعلقتها في طرف القميص، ثم فركت عيني لأستفيق:

- بالمناسبة... سأسافر غداً في مهمة علمية سريعة إلى القاهرة، وسأعود في غضون أيام.

- تُخبرني قبلها بيوم؟

- مضطر... مهمة عاجلة من إدارة المعهد.

- يعني أنهيت كمان تذكرة السفر؟

- حماتي ساعدتني... ورتبت لي upgrade للتذكرة... سأسافر على درجة رجال الأعمال.

- هنيئاً لك بحماتك.

- آسف على الخبر المفاجئ.

- لا... على الإطلاق... حبيبي... كنت أتمنى زيارة مصر معك... هل تريد أن تشرب شيئاً؟

- نزورها معاً المرة القادمة... أحتاج فنجان قهوة... لكن قهوة من البرطمان الموجود في دولابي.

- أحتفظ بالقهوة في الدولاب يا يونس؟

- قهوة الشيخ «وجدت» أمانة.

- هل أغلق التلفزيون يا سارة؟ سارة...

مشت سارة لإعداد القهوة ولم تسمعي بعد أن اختفت داخل المطبخ. كان تلفزيون الصالة مفتوحاً ويعرض فيلم «موسيقى الحلم» لليزي فالدمولر. بدأ الفيلم بأوبريت ترقص فيه فتيات ساحرات على مسرح واسع، ذكرني بأوبريتات فريد الأطرش وسامية جمال، حتى قائد الأوركسترا ذكرني وجهه بعيد السلام الأنابلسي، والمطرب الممتلئ نسخة طبق الأصل من محمد قنديل.

تثاقلت رأسي، فذهبت إلى غرفتي أخرج قدمي.

لم أعرف هل كان ذلك بفعل التعب والإرهاق كما قالت سارة، أم من أثر المخدر الذي وضعه الخواجة العجوز في الماء الذي شربته في الحلم.

رأيتهم من بعيد يحاولون إخراج جثمانها الملفوف بالكفن الأبيض من صندوق النعش لإدخاله عبر الفتحة المخصصة للنساء، في مدفن العائلة المميز بقبته المخروطية المتهدمة.

لم أتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة عليها؛ تأخرت عن مشاركتهم حمل النعش، كي أساعد أبي الذي كان يخطو خطوات ثقيلة نحو المدفن فوق طريق وعرة مملوءة بالأحجار والتراب، متوكلًا على كتفي بيدٍ، بينما تستند يده الأخرى على عكازه.

وما الفرق بين النظرة الأخيرة والنظرة قبل الأخيرة؟

هي لم تعد موجودة في الأساس، بل حتى ضمير الغائب «هي»، لا أعرف إن كان يشير إلى غياب أم إلى عدم. كان بصري حينها مشتتًا بين مراقبة خطوات أبي كي لا تتعثر قدماه، وبين جثمانها الذي كان قد أفرغ بالفعل من النعش ليسكن منزلها الجديد. كان الوقت متأخرًا، والعممة تطوق المكان الضيق المزدهم، ودخان حرق قش الأرز المتصاعد من أماكن مجهولة حولنا، يزيد من زكام الأنوف المنتجة بالبكاء، ومن كآبة القلوب الدامية على وفاتها، وكان الدخان الرمادي الخانق يواسينا على طريقته. ثم رأيت خلقًا كثيرين لا أعرف منهم إلا القليل، يرتدي أغلبهم جلابيب سوداء يسرون أمام النعش وخلفه مثل أشباح منهكة.

بالقرب من العين التي سوف تُدفن فيها، كان جدي جالسًا فوق مصطبة طينية يراقبهم وهم يحملون نعش ابنته فوق أكتافهم، وهو ساكنٌ مثل حكيم قبيلة، متأملًا كل ما يجري في هدوء، وكأن الأمر لا يعنيه.

اقتربت من حيثُ يجلس، فأصبحتُ على بعد خطواتٍ منهم، وأدركتُ على الفور أنهم أوشكوا أن يواروا الثرى آخر جزءٍ من جسدها. تركتُ أبي يستند إلى عكازه، وركضتُ مسرعًا إلى المدفن. لم أر سوى آخر قطعة من الكفن الأبيض، وهي تتسحب مسرعةً إلى فتحة اللحد الدائرية الملاصقة للتراب.

بعدها قام رجلٌ لم أتبين ملامحه بسبب الظلام بجذب بوابة القبر الحديدية، وهو يتلو آياتٍ من القرآن بصوتٍ مرتفع، مُغلقًا البوابة بقفلٍ معدني كبير. دسَّ الرجل المفتاح داخل جيب جلابيه الرمادي، مُعلنًا بلا مبالاة انتهاء كل شيءٍ، وصاح بصوتٍ حاد: «وحدوا الله يا جماعة... وحدوا الله»، ثم نادى بصوتٍ عالٍ: يا أبو مصطفى!

من هذا؟ ومن الذي سمح له بإغلاق الباب هكذا؟

في طريق العودة إلى القاهرة، انعقدتُ يدا جدي فوق صدره، ولم تتحلاً إلى حين توقفنا عند إشارة مرور قصر القبة. أخرج شريط دواء وضغطُ بإبهامه فانفرط قرصٌ أبيض مُستقرًا فوق كفه، فقذف به إلى حلقة دون ماء.

دار مفتاح الشقة بسهولة في قفل الباب، عندما دخلنا كان ثمة نورٌ خافتٌ يُطل من خلف الستارة التي تحجب نافذة الصلاة، أمسكتُ بيد جدي اليسرى، جاذبًا إيَّاه برفق نحو غرفة نومه، فسار مُشيحًا

بَصْرَه عن الباب المغلق للغرفة الأولى وكأنه يتجنب رؤيتها، متجاوزًا إيَّها إلى غرفته التي كان بابها مفتوحًا، وضوء أعمدة الإنارة المتسلل من الشرفة ينيرها بقدرٍ لا بأس به.

تقدّم جدي نحو سريره وكفّه اليسرى قابضة على يدي اليمنى بقوة، وجلس نصفَ جلسة على السرير محاولاً رفع قدميه. لم يستطع، فخلعتُ نعليه ورفعتُ قدميه بهدوء إلى السرير ذي الأركان النحاسية المرتفع عن الأرض.

سألته إن كان يحتاج شيئاً؛ لم يجب، وتطلّع إلى وجهي بعين شبه دامعة... شبه راضية وهو يضغط على يدي:

- أشعرُ أنني سأحدث إليها اليوم، وإن كَانَتْ مشغولةً اليوم، فربما غدًا... أو بعد غد... وأنتَ ألا تحتاج شيئاً؟

- كُلُّ شَيْءٍ.

رقدَ مؤلياً جنبه الأيسر نحو الحائط. دنوتُ من فراشه وألقيتُ نظرةً عليه، حتّى اطمأننت إلى استغراقه في النوم. ابتسمتُ، لعله أثر المنوم الذي تناوله ونحن عائدان في السيارة؛ لم ألقُ فهو طبيبٌ وأدري بما يفعل.

كنتُ على يقينٍ أنّه لن يستطيع النوم، لا هذه الليلة ولا في غيرها، وأن حواسه الخارجية فقط هي النائمة، أمّا في الداخل فجمرة نار مشتعلة يغطيها قفصٌ صدري من الفولاذ.

خرجتُ إلى الصالة وبصري عالقٌ على باب حجرتها المغلق. وقفتُ دقائقٍ سابعاً في ظلام لا يقطعهُ سوى ضوء القمر المتسلل خائفاً من وراء شباك ستارة المنور وسط الصالة، مشيتُ إلى حجرتها وطرقتُ البابَ مرتين كما كنتُ أفعل دائماً، ثمّ فتحته. كان المكانُ معتماً مثل حفرة سوداء عميقة بالرغم من ضوء المصباح

قصدتُ ركنها الصغير الذي تعودت الجلوس فيه وحدها تستمعُ إلى الراديو أو ترفو جواربنا القديمة أو تتلو القرآن، باحثاً عن حامل المصحف الفضي، الذي كَانَتْ تستند عليه تلك الكف الحنون يوماً، فلمحتُ الحامل الفضي قابعاً وحده فوق خزانة الملابس الخشبية.

قبضتُ على «الحامل»، فصدمَ ملمسه البارد أناملي، قرّبتُه من أنفي؛ شممتُه وقبّلتُه، ثمّ أعدتُه إلى مكانه فوق الخزانة. كان كُلُّ شَيْءٍ صامتاً حتّى امتزج صوت صمتي بصمت الغرفة، فصرتُ جماداً من جمادات الحجرة. ألقيتُ نظرةً أخيرة على الفراش المرتّب، ثم خرجتُ.

في خروجي، تسلل إلى أذني صوتٌ هادئ ينبعث من مذياع جدي الخشبي العتيق المعلق أعلى مائدة الطعام، اقتربتُ من المذياع، كان صوت الشيخ المنشأوي وهو يتلو: {فالتقمه الحوت وهو مليم}.

- لن يفكر أحدٌ في التفتيش داخل صندوق تخزين أرزٍ يا يونس.

- جدِّي... لكن ذلك المتطفل إذا مَدَّ يده بضعة سنتيمترات داخل الصندوق، سوف يعثرُ على ما تُحرص على إخفائه؟

ارتبك لثوانٍ وقال وهو يهزُّ كتفه:

- ولو... ماذا عساه يفعل بسجّادٍ مُعَبَّرٍ قديمٍ؟ السرُّ ليس بمحتواه، بل بحركة إخفائه.

بدأت الحكاية من قيو الأقرام الحجري.

لم أنس يوماً ذلك النهار الذي سألني فيه جدِّي أن أصبحَ به إلى ذلك القبو الكائن في مدخل العمارة، لم يكن يسكنُ القبو سوى حارسِ البوابة القزم وعائلته التي لم يكن يراها أحد؛ كان يستيقظ قبل الفجر؛ لينظف مدخل العمارة ويجمع القمامة، ثم يضع زجاجات اللبن المبستر أمام باب كل شقة دون أن يراه أحد.

سمعتُ -مثلي مثل غيري من سكان العمارة- أن ثمة كنزاً مدفوناً داخل هذا القبو. دفنه الخواجة الأرمنية «رفيق أبراهاميان» - صديق جدِّي لأمي- الذي شيّد العمارة في أربعينيات القرن الماضي ودفن كنزه المزعوم أسفل القبو خوفاً من طمع أقاربه، ثم أتى بعم «ركابي عطية» ليحرس العقار.

وعندما توفي الخواجة سنة ١٩٥٣، آلت التركة إلى ابن عمّ ثري يعيش في الإسكندرية اسمه «رفائل صايغ»، حضر إلى القاهرة واجتمع مع سكان العمارة وعرض عليهم بيع الشقق؛ لأنه بصدد الهجرة إلى فرنسا، فطلب جدِّي شراء الشقة، مُشترطاً أن يكون له حق الشفعة في شراء ذلك القبو الحجري المعروف بـ«بيت الأقرام» من الخواجة إذا خلت من الحارس، نزلت معه إلى القبو؛ كان يحمل في يده مفتاحاً معلقاً في ميدالية نحاسية ضخمة تشبه «الكردان» الذي تنزير به نساء قريتنا عندما أزورها معه. فتح باب القبو ثم انحنى ليوقد مصباحاً من مفتاح كان بمحاذاة قدمي.

جذب ضلفة دولاب «إيديال» معدني ملاصق للحائط، فأطلت ثلاثة صناديق خشبية كانت تستخدمها جدتي لتخزين الأرز والعدس. كان يعرف ما يبحث عنه؛ سحب الصندوق الأسود من زائدة كرتونية وأغلق ضلفة الدولاب. سعدنا بالصندوق إلى الشقة؛ فتح جدِّي الصندوق بعد أن أجلسني إلى جواره وأخرج منه خرائط قديمة ملفوفة بدقة هاوٍ محترف؛ كانت الخرائط غير مهترئة بالرغم من ملامح القدم البادية على حوافها.

تنبّهت إلى أن الخرائط المفروشة على واجهة الصندوق لم تكن سوى عملية تموينه من جنرالٍ محنكٍ ليشغل بال أي متطفلٍ قد يعثر على هذا الصندوق ويعبث بما فيه؛ فأني غريب قد يفتحه، سوف يلتفت

إلى الخرائط القديمة ويعتبرها «لَقِيَّة»، فيأخذها ويجري. دَسَّ جديّ يده داخل الصندوق، وأخرج بحرصٍ مجموعةً من لفافات السّجاد القديم المطوية بعناية داخل حقيبة بلاستيك، وبدأ يخبرني بحكايته:

«... قَطَعَ السّجَادَ هَذِهِ هَدِيَّةً مِنْ صَاحِبِ مَحَلِّ «أَنْتِيكَاتٍ وَتُحَفٍ» فِي مِصْرِ الْقَدِيمَةِ؛ كَانَ صَاحِبُهُ وَالذَّ مُجَنَّدٌ يَعْمَلُ فِي مَكْتَبِي بِمَسْتَشْفَى كَوْبَرِي الْقُبَّةِ الْعَسْكَرِيِّ الَّتِي كُنْتُ أَدِيرُ قِيسَ الطَّوَارِي فِيهَا... الْعَرِيفُ «نَاجِي عَبْدِ الْوَهَّابِ»... اللَّهُ يَرْحَمَهُ... اسْتَشْهَدَ فِي ٦ يُونِيَّةِ ١٩٦٧ لَدَى زِيَارَةِ لِأَسْرَةِ زَوْجَتِهِ فِي مَدِينَةِ السُّوَيْسِ.

أَصْرَرْتُ عَلَى زِيَارَةِ الْأَبِ وَتَقْدِيمِ وَاجِبِ الْعِزَاءِ بِنَفْسِي، فَأَخَذْتُ الْعِنُونَ مِنَ السَّجَلَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، كَانَ ذَلِكَ فِي مَنْتَصَفِ نَوْفَمْبَرِ ١٩٦٧، وَكَانَ الْمَحَلُّ فِي مَنطِقَةِ تَدْعِي «خَارِطَةُ الشَّيْخِ مَبَارِكٍ» فِي زَهْرَاءِ مِصْرِ الْقَدِيمَةِ.

وَبِسَبَبِ حَالَةِ الطَّوَارِي فِي جَمِيعِ الْمَسْتَشْفِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَقَتَّهَا، خَطَفْتُ سَاعَةً صُبْحِيَّةً فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ، كَانَتْ الشَّوَارِعُ خَالِيَةً، وَالسَّيَّارَاتُ قَلِيلَةً، وَلَا يَوْجِدُ أَيَّ نَوْعٍ لِزِحَامِ الْبَشَرِ، وَكَانَ النَّاسُ يَسِيرُونَ ببطءٍ وَتَنَاقُلٍ، وَأَحَادِيثُهُمْ بَدَأَتْ تَأْخُذُ صُورَةَ التَّكَرَّارِ.

حِينَ وَصَلْتُ وَجَدْتُ الْأَبَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ خَشْبِيٍّ أَمَامَ بَابِ الْمَحَلِّ مَتَسَمِّرًا.

فَوْقَ طَاوِلَةٍ مَعْدِنِيَّةٍ عَالِيَةٍ مِنْ حَدِيدٍ مَتَشَابِكٍ لَهَا قَرِصٌ لَامِعٌ اسْتَقَرَّ كُوبُ شَايٍ، وَقَدْ بَدَأَ سِرْبُ نَمْلِ فَارِسِيٍّ يَزْحَفُ مُلْتَقًا حَوْلَ حُبِّيَّاتٍ سَكَّرَ مَتَاثِرَةً فَوْقَ الطَّاوِلَةِ. كَانَ رَأْسُ الرَّجْلِ مُنْكَسًا عَلَى صَدْرِهِ مِثْلَ الْمَصْلُوبِ، وَرَمُوشُ عَيْنَيْهِ تَرِفٌ كَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِسَمَاعِ خَبَرٍ يُكْذِبُ كُلَّ مَا قِيلَ بَعْدَ انْقِطَاعِ أَخْبَارِ ابْنِهِ مُنْذُ ٤ يُونِيُو.

كَانَ فِي أَوَاسِطِ الْخَمْسِينِيَّاتِ تَقْرِيْبًا، تَلُوْحٌ عَلَى هَيْئَتِهِ سَمَاتُ الشَّقَاءِ وَالْمَعَاوَرَةِ مَعَ الْحَيَاةِ. تَدْفَقَتْ رَائِحَةُ بَخُورٍ قَوِيَّةٍ وَصَوْتُ قِرْآنٍ يَنْبَعِثُ مِنْ مِذْيَاعٍ دَاخِلِ الْمَحَلِّ.

قِرْآنٌ وَبَخُورٌ وَسُكُونٌ وَحُزْنٌ؛ طَقُوسٌ طَبِيعِيَّةٌ لِبَلَدٍ مَجْرُوحٍ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ وَالْمَوْتِ.

عَرَفَنِي الْأَبُ، قَالَ إِنَّ ابْنَهُ كَانَ دَائِمَ الْحَدِيثِ عَنِي، شَدِدْتُ عَلَى يَدِهِ: «مَبْرُوكٌ... سَوْفَ يَأْخُذُ نَاجِي بِيَدِكَ إِلَى الْجَنَّةِ». قَدَّمْتُ لَهُ أَوْرَاقَ الْمَعَاشِ الْعَسْكَرِيِّ الَّتِي أَنْهَيْتُهَا بِسُرْعَةٍ لِعِلْمِي بِحَالَةِ أُسْرَةِ الشَّهِيدِ.

بَدَتْ مَلَامِحُ وَجْهِ الْأَبِ فَارِغَةً مِنَ الْحَيَاةِ مِثْلَ طَبَقَةِ جَلِيدٍ مُشَقَّقٍ بِأَوْجَاعٍ أَبَدِيَّةٍ. جَذَبَ كُرْسِيًّا مَقْلُوبًا مِنْ وَرَائِهِ، عَدَّلَهُ وَمَسَحَهُ بِطَرَفِ جَلْبَابِهِ الْأَبْيَضِ. شَعُرْتُ بِحَرَجٍ كَيْفَ أَبَدًا الْحَدِيثِ، إِلَّا أَنَّ الْأَبَ الْمَكْلُومَ رَفَعَ عَنِي الْحَرَجَ وَوَاوَلَّ يُوَاوِلَ حَدِيثَهُ.

- جاعني ناجي في المنام منذ يومين تقريباً وَقَالَ: «أبي... سنفطرُ معاً في رمضان هَذَا العام»... سألني: هل ستأتي يا حاج؟ فأجبتُه: كله مكتوب، فَقَالَ أعرف أَنَّهُ أمر الله، فسألته: لكن «هبة الله» يا ناجي لم تكمل سَنَةً، أتركها لَمَن يا ولدي وأُمُّها صحتها عليلة؟ نظر ناجي للسماء وضحك قائلاً: أنتم لا تعرفون شيئاً... الموضوع بسيط.

أفاق الأب من شرود عميق وَقَالَ بعينه المنتفختين:

«... والله يا فندم زيارتك عَلَى عيني... هل تظنني حزيناً عَلَى استشهاده ناجي في الحرب... حاشا لله... هَذِهِ أرضنا ننظفها مِنَ الأنجاس... وَهَذَا هُوَ الثمن... أفكرُ فِي الإفطار الَّذِي سأخذه معي لناجي أول يوم... رمضان سيشرق هَذَا العام الشهرَ القادِم... يعني فِي ديسمبر؛ كان يحب «البصارة»... أنا مشغول ماذا سنفطر، إِذَا كَتَبَ المولى نتقابل أول يوم في رمضان.

أحسستُ بانقباضٍ يعترضُ قلبي، فاحتضنتُ الأبَ وَعيني تدمعُ، واحتضنتني هُوَ الآخرَ وَقَدْ أَعْرَقَ فِي نوبةٍ بكاءٍ حادة.

يبدو أَنَّ شيئاً ومضَ داخلَ رأسه، حَيْثُ نهَضَ مِنَ مقعده وسارَ نحوَ أقصى ركنٍ فِي المحلِ مُمسكاً يدي، وَسَحَبَ صُنْدُوقاً نُحَاسِيّاً مِنَ فوق أحد الأرفف، فَتَحَهُ وَأَخْرَجَ لفائفَ السَّجَادِ الَّتِي أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا.

قَالَ إِنَّهَا مجموعة سَجَاجِيدِ نادرة اشتراها مِنَ تاجرٍ استقرَّ فِي طنطا هُوَ وَأجداده مُنذُ زمن، وكان يزعم لكل مَن يقابله أَنَّهُ مِنَ أبناءِ عمومة «سيدي أحمد البدوي»، وَأَنَّ هَذَا السَّجَادَ كان مبسوطاً عَلَى الدوام فِي خلوة سيدي «شيخ العرب» فوق سطح منزله، ليصلي فوقها مَعَ مُريدِهِ.

صمتَ الحاج «عبد الوهَّاب» لحظات ثم سحبَ بِسَاطاً قديماً مُغْبِراً بِغبارِ الطريق، ينتهي بشراشيبِ حمراء، وأهداني إِيَّاهُ: «هَذِهِ نفحةٌ مباركةٌ مِنَ نفحاتِ شيخِ العرب».

- مَا مَعْنَى نَفْحَةٍ يَا حاج عبد الوهَّاب؟

- سأخبرُكَ، يقولون إِنَّ هَذِهِ قطعةٌ مِنَ البساطِ الَّذِي كان يَفْرده سيدنا أحمد البدوي للسائحين وعابري السبيل فوق سطح غرفته، وَيُقَالُ إِنَّ مَن جلسَ فوق هَذَا البساطِ تأحمدَ.

- تأحمد؟!!

- ألم تسمع عن البساطِ الأحمدي؟ «تأحمد» يعني نالته بركة سيدي شيخ العرب... وَعَرَفَ الطريق إلى محبوبه العائِب... خُذْ هَذَا «البساط» يا سيادة العقيد... بركة مِنَ «شيخ العرب»... ربنا يحفظ لك أولادك ويبعد عنهم الشر.

- جننتُ لأعزِّيك يا حج عبد الوهَّاب، لا لأخذ هدايا.

- وَهَذَا واجبك وقهوتك... ترياق الصابرين.

رَفَعَ جَدِّي نظارته تحت ضوء المصباح ليمسح غبارًا علقَ بها، فسألتُه:

- وماذا فعلتَ في قِطْعِ السَّجَادِ يا جَدِّي؟

- والله يا يونس... عندما أهداني الحاج عبد الوهَّاب السَّجَادَ وعدتُ للمنزل نسيْتُ الموضوعَ برمته؛ شُغِلْتُ بترشيحي للبعثة الدبلوماسية فرع الملحقين العسكريين بوزارة الحربية في النمسا ومرض والدتك، فأخذتها كما هي ووضعتها في الصندوق الذي رأيتُه في القبو، باستثناء البساط الذي أعطيتُه لوالدتك، أعجبها حين رأته وأخذته للصلاة عليه.

أعادَ جَدِّي قِطْعَ السَّجَادِ إلى الصندوق وَقَالَ وَهُوَ يُغْلِقُه بعناية:

- ليظَلَّ الأمرُ سرًّا بيني وبينك... أخفيتُها بهذه الطريقة كي لا يعثرَ أحدٌ عليها

- سرُّ! وَمَا أهميتها؟

ارتعش مصباح الصالة مرتين أثناء كلامه، توترتُ قليلًا من إغراقه في الصمت، لكن صوتَ عم «مغاوري» بائع الزبادي والبليلة وَهُوَ يناديُ بحجارةٍ مُدَوِيَّةٍ في الشارع نثرَ شيئًا من السَّكِينَةِ داخلي. اعتدتُ سماعَ صوته حين كنتُ طفلًا يمرُّ كلَّ ليلةٍ في التاسعة مساءً فنشتري منه أُمِّي الزبادي للعشاء والبليلة لفظور الصباح قبل الذهاب للمدرسة. استمرَّ صمتُ جدي دقائقَ أُخرى حَتَّى تنبَّه حينما بدأتُ أفرك يدي بارتباكٍ، فَقَالَ وَكَأَنَّما يحدثُ نفسه:

- يتلاشى السحر إذا أُذيعَ السرُّ؛ لقد تغيرتَ نظرةُ جَدِّكَ للعالمِ والنَّاسِ بعدما سمعَ كلامَ هَذَا الرجلِ وأهداه هَذِهِ البُسْطَ... فضحكتُ له الدنيا ساعةً، ودقَّتْ عَلَى رأسه الطبولُ سنواتٍ... رُقِيْتُ إلى رتبةٍ عميدٍ وَبُعِثْتُ إلى النمسا مستشارًا طبيًّا في السفارة المصرية... بدأنا رحلةَ العذابِ مَعَ مرضِ والدتك منذُ سنواتٍ بعيدة... سافرَ خالكُ فهمي إلى ألمانيا بلا عودة... خرجتُ برتبةٍ لواءٍ بعد أن كَرَّمْتُ بنوطَ الخدمةِ الممتازة... ذُقْتُ مَعْنَى النفحاتِ الَّتِي تَحَدَّثُ عنها الحاجُ عبد الوهَّاب... سافرتُ مُدُنًا وَقَصَدْتُ أولياءَ وعارفينَ، وكان البساطُ يصحبني في كُلِّ مكانٍ مثلَ ظلي، حَتَّى تقاعدتُ فأهديتُ البساطَ لوالدتك لتصلي عليه... عَلَى العمومِ هَذِهِ ذكرياتُ شخصية، أُحِبُّ أن تظلَّ مقصورةً عَلَى آلِ الأَنْصاري.

- وَلا حَتَّى أُمِّي؟

- بالطبع يمكنكُ إطلاعها عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

ذهبتُ إلى أُمِّي.

كَانَتْ جَالِسَةً فِي مَكَانِهَا الْأَثِيرِ فَوْقَ الْبِسَاطِ فِي زَاوِيَةٍ صَغِيرَةٍ تَفْصِلُ بَيْنَ بَابِ حَجْرَتِهَا وَالِدَوْلَابِ الْخَشْبِيِّ، رَوَيْتُ لَهَا مَا جَرَى؛ فَأَوْصَتَنِي بِتَنْفِيذِ وَصِيَةِ جَدِّي وَأَلَّا أُفْرِطَ فِي مَحْتَوِيَاتِ ذَلِكَ الصَّنَدُوقِ.

- مَا رَأَيْكَ يَا أُمِّي فِي مَوْضُوعِ «الْبِسَاطِ الْأَحْمَدِيِّ» وَحِكَايَةِ جَدِّي؟

أَخْبَرْتَنِي أُمِّي أَنَّ الْحِكَايَاتِ الَّتِي رَوَاهَا لِي جَدِّي سَتَصْبِحُ يَوْمًا مَا حَقِيقَةٌ؛ فَسَأَلْتُهَا:

- وَلِمَاذَا يَخْفِيهَا هَكَذَا كَأَنَّهَا سِرٌّ عَسْكَرِي؟

- الذِّكْرِيَّاتِ ضَعْفٌ، وَالْمَحَارِبُ يَدْفَنُ ضَعْفَهُ فِي قَبْوٍ وَيُوصِدُهُ بِحَجَرٍ ثَقِيلٍ.

- وَلَكِنِّي لَمْ أَفْهَمْ نَصْفَ كَلَامِهِ.

أَخَذَتْ أُمِّي رَشْفَةً مِنْ كُوبِ شَايٍ كَانَ إِلَى جِوَارِهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَنَهَضَتْ مُمْسِكَةً رِكْبَتَيْهَا الْمُنْهَكَتَيْنِ مِنْ نَخْرِ الْأَلَمِ، ثُمَّ جَذِبَتْ الْبِسَاطَ الْمَشْغُولَ الَّذِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَيْهِ.

طَوَّتْ الْبِسَاطَ عِدَّةَ مَرَاتٍ عَلَى شَكْلِ أُسْطُوَانَةٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَقْرِدُهُ أَمَامِي تَدْرِيجِيًّا، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَقْرُدُ فِيهَا قِطْعَةً، كُنْتُ أَرَى جِزَاءً مِنَ الصُّورَةِ الْمَرْسُومَةِ فَوْقَهُ.

- كُلُّ هَذِهِ الصُّورِ كَانَتْ مَرْسُومَةً فَوْقَ الْبِسَاطِ؟

- حَبِيبِي... أَهْمُ الْأَشْيَاءِ فِي حَيَاتِي رَأْيُهَا بِقَلْبِي لَا بِعَيْنِي؛ لَنْ يَنْفَرِدَ بَسَاطُ الْحَيَاةِ أَمَامَكَ إِلَّا مَشْهَدًا تَلَوَّ الْأَخْرَ. قَدْ أَرَحَلُ فَجَاءَةً وَلَا أُرِيدُ تَرْكَكَ دُونَ مِيرَاثٍ؛ سَوْفَ أَخْبِرُكَ بِشَيْءٍ: «إِذَا تَمَلَّكَ الْحُزْنَ وَعَجَزْتَ عَنِ الْمُوَاجَهَةِ، لَا تَقْفُ فِي الْحَيَاةِ مُتَفَرِّجًا؛ بَلْ اقْبِضْ بِيَدَيْكَ عَلَى حِكَايَةِ وَاقْفُزْ مَعَهَا بَعِيدًا إِلَيَّ حَيْثُ تَقُودُكَ الْأَحْدَاثُ... لَا تَقْلُقْ؛ هَذَا جِزَاءٌ مِنَ الْحِكَايَةِ، مَا دَمْتَ اخْتَرْتَ الْحِكَايَةَ الْمُنَاسِبَةَ فثِقْ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَرَاهُ أَمَامَكَ، وَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ الْحُزْنَ فَاصْمِتْ... فَهَذَا هُوَ كَنْزُكَ الْوَحِيدُ».

- الرَّسُومُ الْمَطْرُزَةُ عَلَى الْبِسَاطِ جَمِيلَةٌ لَا شَكَّ، لَكِنْ لَا تَجْمَعُهَا أَيَّةُ صِلَةٍ؟ لَا أَرَى أَيَّ تَرَابِطٍ مَنْطِقِي!

- الرَّسُومُ كُلُّ يَوْمٍ هِيَ فِي شَأْنٍ.

أَمَعْنَتْ النَّظَرَ فَرَأَيْتُ رَسُومًا بَاهِتَةً لِسِرْبِ طَيْرٍ، وَلِطِفْلَةٍ تَلْعَبُ فِي بَسْتَانٍ وَسَطِ فَرَاشَاتٍ، وَعَجُوزٍ يَهْدِي شَابًّا فَنجَانَ قَهْوَةَ، وَشَيْخٍ جَالِسٍ وَيُرْقِدُ إِلَى جِوَارِهِ أُسْدَانٍ.

لَمْ أَصِلْ لَشَيْءٍ مَتَمَاسِكٍ، وَفَقَدْتُ الرَّغْبَةَ فِي مُوَاصَلَةِ الْجَدْلِ مَعَهُمَا.

عَانَدَنِي عَقْلِي وَلَمْ أَيْسُ؛ فَسَأَلْتُهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَهِيَ جَالِسَةٌ فِي شُرْفَةِ شَقَةِ جَدِّي تَرَاقِبُ سِرْبَ حَمَامٍ يَحُلِقُ فَوْقَ بَرَجٍ قَرِيبٍ:

- ولكن إذا فتحنا الباب للحكايات والقصص... الإم يقودنا ذلك؟

- عندما تكبر سوف تكتشف أن كل إنسان في هذه الحياة يحتاج إلى شيء يحتويه ويستوعبه لفترة من الوقت، حتى ولو لفترة مؤقتة... بعد تجربة حُب فاشلة، أو خيبة أمل في صديق أو حبيب... هذا الشيء قد يعين روحك للعبور إلى الضفة الأخرى... اعتبره سلمًا صاعدًا إلى السماء... هل تعرف «بلزك»؟

- طبعًا... درسنا جزءًا من قصصه في المدرسة؟

- كان حين يشتد عليه المرض في أواخر أيامه، ينادي طبيبًا مخلصًا، ظهر في بعض رواياته اسمه بيانشون Bianchon، فكان يصيح في الناس: «استدعوا بيانشون الطبيب... بيانشون الطبيب سينقذ حياتي...»، كان «بلزك» يثق في طبيبه الذي صنعه في خياله أكثر من أي طبيب حقيقي آخر.

- لأنه كان من صنع خياله أم لأنه كان يحتضر؟

- لأن الحكايات المرسومة بألوان الحياة ألوان حية يا يونس، ولهذا تسمى الشخصيات في الحكايات «أبطالًا».

كانت أمي تؤمن أن الحكايات هي وسيلتنا لتسجيل تجربتنا في هذا العالم وأن القصص هي ذاكرتنا. لم يفارقها يومًا ذلك اليقين أن الحكايات بوسعها أن تساعدنا، تشفيها، تغذي روحًا إذا غاضت فيها الحياة تنير لنا الطريق.

«يونس... الحكايات لا تمنحنا أملًا فحسب، بل إنها تدافع عن ذلك الأمل نيابةً عنا، وعلينا أن نشكرها على ذلك».

طوال الخمس سنوات الأخيرة من حياتها، ظلَّت أمي تتأمل القمر من نافذتها في ساعات الليل الأخيرة، محتفظةً بآلامها لنفسها، كأنما كانت تريد الخروج من العالم في صمت كما جاءت إليه، ضيفةً هادئةً ومتعبةً.

ولمَّا خرج الألم عن حدود المحتمل، وأصبح في منطقة أخرى لا نعلم عنها شيئًا، نقلناها إلى مستشفى وادي النيل حيث معارف جدي. بقيت ثلاث ليالٍ راقدة فوق سرير رمادي الأغشية، وقد أسندت رأسها إلى وسادة رمادية أيضًا، ترنو إليّ بوجهٍ شاحبٍ زادته الإضاءة شحوبًا من وراء النافذة الزجاجية لغرفة العناية المركزة.

فاضت ابتسامه حزينة عن شفيتها، أرسلت من خلالها رسالة مشفرة لا يفهمها أحد سوانا، وأجبتُها برسالة مماثلة.

استقرَّ المشهَدُ الأخيرُ يقظًا في ذاكرتي مثل تجربة رجلٍ أفلتَ من موتٍ بأعجوبة:

مستشفى وادي النيل... «أمي» راقدة على سريرها في المستشفى، «خالتي راجية» منهارة في مقعد مجاور لغرفة «أمي» دموعٌ متحجرة في عيني... طبيب ذو ملامح عسكرية هادئة يخرج من الغرفة... يطلب الحديث منفردًا مع جدِّي وأبي... يدخل كلاهما مع الطبيب إلى غرفة زجاجية الجدران... أرقب الثلاثة من وراء الجدار الشفاف وهم يتحدثون، وأنا أعرف تقريبًا مضمون الحديث... يخرج أبي بعد دقيقة واحدة، وهو يجهش ببكاء متواصل، ثم يخرج جدِّي وراءه كأنه جبل متحرك راسخ... هادئ... لا يحرك ساكنًا، وكأنهم كانوا يتحدثون في هذه الغرفة عن امرأة غريبة لا يعرفها، يمسك أبي بيدي ويد خالتي ويقول: قولاً... الحمد لله... قولاً الحمد لله. لكن يبدو أن جدِّي لم ينس الأمر كما تصورنا جميعًا؛ كان لا يزال في جعبته شيء ليقوله... أو ليخفيه.

قبل وفاته بأسبوع تقريبًا، وفي وقت متأخر من المساء كنتُ جالسًا على الأرض أقرأ على ضوء مصباح في شرفة الشقة. سمعتُ صوتَ اصطفاق باب الشقة، فتركتُ الرواية على الأرض، ونهضتُ مُفتشًا عنه في سريرهِ. كان الفراش خاليًا.

أوقدتُ نور السلم، وخرجتُ وأنا أُسندُ بابَ الشقة بقدمي اليسرى كي لا ينغلق ورائي، فرأيتُ جدِّي ينزل السلم متوكئًا على عصاه الخشبية السوداء وفي يده حقيبة جلدية لم أتبين لونها بسبب الظلام. دخلتُ ثانية وأغلقتُ الباب. عدتُ إلى الصالة وجلستُ على الكنب. كان شبَّاك المنور مفتوحًا فسمعتُ صرير باب حديدي يُفتح أسفل العمارة، أسندتُ ركبتي على الكنب وأطلتُ برأسي من النافذة. رأيتُ جسدَ جدِّي النحيل خارج «بيت الأقرام» على ضوء نور منبعث من مطبخ أحد الشقق في الطابق الأرضي. لم يستغرق بقاؤه داخل القبو سوى دقائق، عاد بعدها مثل بطلٍ عائدٍ من حرب بعد أن دفن زملاءه.

في الجمعة التالية وقبل الصلاة بساعتين، أعدتُ تدليك عظام ذراعيه وقدميه كما طلبتُ، وذهبتُ لإعداد الشاي والإفطار لكلينا. عندما عدتُ وجدته راقدًا رقدًا صفراءً، ينادي بصوتٍ خافت: ادع لي يا حبيبي... أريدك أن تحتفظ بمفتاح القبو الحجري فوق المذراع... فيه حقيبة تحوي رسائل تخصني، ولا أريد أن يطلع عليها أحد... قد تساعدك، وقد لا تفتح هذا القبو أبدًا... «لا تقلق سوف أبقى على مصباحٍ مشتعلٍ داخل القبو».

وبعد أن توفي، نسييتُ كلَّ شيءٍ، فتركتُ شقته إلى منزل «أبي» الذي كان يقضي أغلب وقته مترددًا على قبرها.

ثم رتَّبَ القدرُ أوراقي كما يشاء ووضعها في درج خزانته ولم يُطلعني على شيءٍ، لم أشعر بنفسي إلا وأنا واقفٌ عند عتبة باب الشقة، أحمل حقيبتَي سفرٍ لم يريا النور منذ أن بلغ أبي سنَّ المعاش.

عند بلوغي باب العمارة، تذكرتُ شيئًا، قفزتُ درجات السلم، فتحتُ باب الشقة وقصدتُ حجرتي؛ أخرجته من الدولاب وفردته، ونظرتُ للرسم للمرة الأخيرة فلم ينطق بشيءٍ. سمعتُ صوتَ سائق

التاكسي الذي سيقلني إلى المطار ينادي، طويْتُ البِساطَ ووضعتُه داخلَ حقيبتِي ونزلتُ.

المشهد الثاني

الحب هو المبادرة

(فيكتور هوجو)

في القطار الذي أقلني من مطار فيينا إلى مدينة جراتس حيثُ المعهد الذي حصلتُ فيه على منحة الماجستير، كان الوصول إلى «جراتس» أشبه بوصفة طبية يجب تطبيقها حرفياً، وإلا ضللت الطريق؛ رقم القطار... رقم الرصيف... محطة التغيير Umsteigen.

كانت تجلس على الكرسي المقابل في القطار... شابة سمراء نحيفة، ذات شعر بُني طويل وجبهة ضيقة، تكاد تختفي من كثافة شعرها، ولها ملامح عربية، كانت ترتدي قمصياً أزرق فاتحاً، قصير الأكمام، وبنطلوناً سماوياً من الكتان، مُمسكةً كتاباً بيدها كعادة معظم مرتادي القطارات في الأفلام الغربية، يومها كنتُ لا أعرف أين ينبغي لي تحديداً تغيير القطار، شجّعني مظهرها الهادئ البسيط على السؤال، فسألتها:

- Entschuldigung bitte... wo muss man umsteigen, um nach Graz weiterzufahren?

فسألنتني باقتضاب:

- مرحباً... أنت عربي؟

- نعم... أنا مصري... أريد الذهاب إلى مدينة جراتس ولا أعرف أين يجب أن أغير القطار؟

أومأت برأسها وتبسمت قائلة: ما في مشكلة... أنا أيضاً ذاهبة إلى جراتس، سأخبرك وقتها، فشكرتها. أعادتُ رأسها إلى الكتاب من جديد، فأشحتُ ببصري ناحية النافذة متأملاً السهول الخضراء.

نبّهتني عندما وصل القطار إلى محطته النهائية. شكرتها من جديد، وساعدتها في حمل حقيبة ثقيلة كانت تتعثر في إنزالها، ناسياً حقائبي. شكرتني ونبّهتني مُبتسمةً إلى أن حقائبي لا تزال داخل القطار، فهرعتُ صاعداً ونزلتُ بها.

ودّعنتي؛ تركتها ولم تتركني.

رَجَعْتُ خُطْوَةً إِلَى الْوَرَاءِ لَتَقُولَ: «اسْمِي سَارَةُ بَكْر»، ... و... «وَأَنَا يُونُس».

كَانَ حُضُورُ الشَّمْسِ مَا يَزَالُ قَوِيًّا، بَرِغَمَ أَنَّ السَّاعَةَ كَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ السَّابِعَةِ مَسَاءً، تَسَلَّلَتْ نَسْمَةٌ خَفِيفَةٌ إِلَى أَنْفِي اعْتَبَرْتُهَا رِسَالَةً تَرْحِيبًا، وَقَفْتُ عَلَى رَصِيفِ الْحَافَلَاتِ مُنْتَظِرًا الْبَاصَ رَقْمَ ٥.

سَارَتْ الْحَافَلَةُ نِصْفَ سَاعَةٍ، قَطَعْتُ فِيهَا شَوَارِعَ مَدِينَةِ جِرَاتْس. كَانَتْ خَيُوطُ الْمَغْرِبِ قَدْ بَدَأَتْ تَنْسِجُ ظِلَالَهَا فَوْقَ الْمَدِينَةِ. اللَّحْظَاتُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي تَوَقَّفْتُ فِيهَا الْحَافَلَةَ أَمَامَ مَحَلِّ Tschibo، عَبَّأْتُ صَدْرِي بِرَائِحَةِ قَهْوَةٍ نَفَازَةٍ مُنْبَعَثَةٍ مِنَ الْمَحَلِّ؛ فَأَحْسَسْتُ بِنَشَاطٍ مَحْمُومٍ، كَأَنَّي شَرِبْتُ كُوبَ double espresso غَيْرَ مُحَلَّلَةٍ. سَخُونَةُ الْقَهْوَةِ وَأُرومَتِهَا اخْتَرَقَتْ شَعِيرَاتِ أَنْفِي، وَتَسَلَّلَتْ إِلَى حَيْثُ تَعْرِفُ مَكَانَهَا؛ الْفِصْلَ الْمَسْئُولَ عَنِ السَّكِينَةِ فِي الدِّمَاغِيِّ.

عَلَى جَانِبِي الطَّرِيقَ، تَرَاوَعَتْ عِمَارَاتٌ وَمَبَانٍ قَدِيمَةٌ مَعْظَمُهَا يَنْتَمِي لِطَرَازِ الْعِمَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مَلُونَةٌ بِالْأَبْيَضِ وَالْأَصْفَرِ وَالْبُرْتَقَالِيِّ وَالْأَحْمَرَ الْقَانِي وَالْأَحْمَرَ الْوَرْدِيِّ.

وَصَلْتُ مَبْنَى الطَّلَابِ، قَرَعْتُ الْجَرَسَ مَرَّتَيْنِ، فَخَرَجَ مِنْ حِجْرَةٍ ذَاتِ نَافِذَةٍ مَعْدِنِيَّةٍ رَجُلٌ فِي أَوْسَطِ الْعَمْرِ، أَشْعَثُ الشَّعْرَ، يَرْتَدِي جَاكْتًا وَوَتْرَ بَرُوفَ أَزْرَقَ، وَسِلْسَلَةَ مِفْتَاحٍ كَبِيرَةٍ مَعْلُوقَةٍ فِي يَدِهِ الْيَسْرَى.

أَوْحَى مَنْظَرُهُ الْمَتَّجِهَ أَنَّي أَزَعَجْتَهُ، تَذَكَّرْتُ فِيلِمَ «الْإِنْسَانُ يَعْيشُ مَرَّةً وَاحِدَةً» وَابْتَسَمْتُ. أَظْهَرْتُ خُطَابَ التَّسْجِيلِ فِي السَّكَنِ وَجَوَازَ سَفَرِي، فَتَرَكْنِي وَتَحَرَّكَ بِخُطُواتِ آلِيَّةٍ لِيَغِيبَ دَاخِلَ الْحِجْرَةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا. عَادَ وَمَعَهُ قَائِمَةٌ بِأَسْمَاءِ الطَّلَابِ الْمَسْجُلِينَ لَدَيْهِ، تَأَمَّلَ الْقَائِمَةَ لِثَوَانٍ، ثُمَّ نَاوَلَنِي مِفْتَاحَ الْغُرْفَةِ، وَإِقْرَارَ اسْتِلامِهَا.

صَعَدْتُ إِلَى الطَّابِقِ الثَّانِي حَامِلًا الْحَقِيبَتَيْنِ. بَحِثْتُ عَنِ الْغُرْفَةِ رَقْمَ ١١، فَتَحْتُ بَابَ الْغُرْفَةِ، فَوَجَدْتُهَا وَاسِعَةً نَسْبِيًّا؛ سَرِيرٌ عَلَى الْيَمِينِ، أَمَامَهُ مَكْتَبٌ مَلِصِقٌ لِنَافِذَةِ الْغُرْفَةِ الْمَطْلَةِ عَلَى الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ. أَلْقَيْتُ نَفْسِي عَلَى السَّرِيرِ وَأَطْفَأْتُ نُورَ الْغُرْفَةِ مِنْ مِفْتَاحٍ يَقْبَعُ فَوْقَ السَّرِيرِ مَبَاشَرَةً.

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، نَزَلْتُ اسْتَكْشِيفُ الْمَدِينَةِ، كَانَ يَصْدُحُ دَاخِلَ أُذُنِي مُنْذُ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ قَرَعُ أَجْرَاسِ كَنِيسَةٍ قَرِيبَةٍ وَكَأَنَّهَا شُيِّدَتْ فَوْقَ السَّرِيرِ، كَانَتْ تَقَعُ عَلَى نَاصِيَةِ مِيدَانٍ مُتَوَسِّطِ الْحَجْمِ يُفْضِي إِلَى سَاحَةِ وَاسِعَةٍ يَقِفُ فِيهَا بَائِعُو الزُّهُورِ وَالْفَاكِهِةِ وَالْخَضْرَوَاتِ. حِينَمَا وَصَلْتُ رَأَيْتُ شَبَابَ وَقَتِيَّاتٍ جَالِسِينَ أَمَامَ الْكَنِيسَةِ وَحَوْلَ السُّورِ الرَّخَامِيِّ الْمَحِيطِ بِهَا. كَانَ أَغْلِبُهُمْ مَشْغُولًا بِشَرَبِ الْبِيرَةِ وَالتَّدخينِ وَتَبَادُلِ قَبَلَاتٍ لَا تَقْتِيرُ فِيهَا.

وَلِمَ لَا أَتَفَرَّجُ؟

دَخَلْتُ الْكَنِيسَةَ. كَانَتْ خَاوِيَةً وَشِبْهَ مَظْلَمَةٍ؛ لَمْ أَجِدْ شَمُوعًا وَلَا بَخُورًا وَلَا صَلْبَانًا وَلَا أَيْقُونَاتٍ وَلَا صُورَ قَدِيسِينَ وَلَا حَتَّى صُورًا لِلْعُذْرَاءِ؛ لَمْ أَرَ سِوَى مَنْبَرٍ وَعِظٍ وَمَجْمُوعَةٍ مَقَاعِدَ مَرْصُوعَةٍ مِثْلَ نَادٍ

اجتماعي.

مرّت لحظات حتّى رأيتُ شابًا يقتربُ نحوي، وهوَ يحملُ كتابًا بيده اليسرى، رافعًا سبابته. كانت كفه اليسرى ملفوفةً بشاشٍ طبي. مدّ يده وصافحني بحرارة غريبة وكأنه يحتفي بأول شابٍ يدخلُ إلى الكنيسة منذ عقود.

كان في منتصفِ العشرينيات تقريبًا، أميلُ إلى السمنة، له شعر أشقر ووجه يتناثر فيه النمش، وبأدرَ بتحتيتي في بيت الإنسان الحقيقي كما وصفه، ثم سألتني عن جنسيتي، فأجبتُه أنني من مصر.

سعلَ سعلتين كي يجلو حنجرته ونظرَ إليّ فأحسستُ أنه مُقدّمٌ عليّ طلبٍ شيءٍ ما، وبالفعل طلب التبرع إلى صندوق الكنيسة؛ لأنّ التبرعات الآن صارت شحيحة، كما أن الكثيرين يُجمون عن تسجيل ديانتهم في الإقرار الضريبي كي لا يدفعوا الضرائب المفروضة على رعاية المنشآت الدينية، وراح يقنعني أن ذلك الصندوق الذي أضع فيه مالي يتصل بقناة سرية مع خزنة «يسوع السماوية» وأن «مملكة السماء لا تزول، لم أنشأ أن أوضح فسألته:

- تقصدُ تجارةً مع الله.

- نعم... نعم... هذا هوّ التعبير الأدق... ein Handel mit Gott...

أخرجتُ خمسة يوروهات من جيبتي ووضعتها في الصندوق وأنا أنظرُ لتعبيرات وجهه:

- اسمي يونس، مصري.

- أنا فيليب مارتن... معاون خدمة هنا في الكنيسة... والذي يعمل راعياً وأنا أعاونه... بلا أجر.

- وماذا تفعل بلا أجر؟

- أعمال إدارية... تسجيل فواتير... تمرير سلة التبرعات بين المصلّين والمترددّين على الكنيسة... هل ستأتي يوم الأحد؟

حاولتُ التهرب من موضوع حضور وعظ يوم الأحد والاستيقاظ مبكرًا، فبحثتُ عن حجة لطيفة:

- آه... ولم لا؟ ولكني للأسف لا أعرف اللُّغة اللاتينية.

- أترى كيف تتميزُ كنيستنا عن الكنائس الأخرى؟!... إنّ الكنيسة الأنجليكانية تمنع الصلاة بلغات غريبة كاللاتينية أو السريانية مثلاً، فالصلاة تُتلى باللغة التي يفهمها المصلّون.

- تمام... هل أنت من سكان «جراتس» أصلاً؟

- ... ولدنا جميعًا هُنا، وَكَانَتْ أُسْرَتِي السَّبَبَ فِي حُبِّي لِلْمَكَانِ... كَانَ وَالِدِي يَعْمَلُ فِي الْأَسَاسِ مَشْرِفَ
إِنْتَاكِ فِي مَصْنَعٍ لِأَدَوَاتِ الْمَيْكِنَةِ الزَّرَاعِيَّةِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا، وَقَدْ وَقَعَ لَهُ حَادِثٌ تَسَبَّبَ فِي
بِتْرِ إِبْصَعَيْنِ فِي يَدَيْهِ، وَاحِدٌ فِي يَدِهِ الْيَمْنَى وَالْآخَرُ فِي يَدِهِ الْيَسْرَى، ظَلَّ فِتْرَةً عَاطِلًا وَلَمْ تَقْبَلْهُ وَلَا
حَتَّى وَرِشَةً صَغِيرَةً... وَفِي يَوْمٍ اسْتَيْقِظَ أَبِي مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، وَحَكَى لَنَا أَنَّهُ رَأَى نَفْسَهُ دَاخِلَ
كَنِيسَةٍ وَقَدْ نَبَتَتْ أَصَابِعُهُ الْمَبْتَوَّرَةَ، فَاعْتَبَرَ ذَلِكَ إِشَارَةً سَمَاوِيَّةً لِتَرْكِ الْحَيَاةِ الْعِلْمَانِيَّةِ وَتَكْرِيسِ نَفْسِهِ
لِلْكَنِيْسَةِ، فَانْخَرَطَ فِي السَّلْكِ الْكَنِسِيِّ حَتَّى أَصْبَحَ قَسِيْسًا، كَمَا أَنَّ وَالِدَتِي تَعْمَلُ أَيْضًا مُوظِّفَةً مِنْ قَبْلِ
الإِبْرَشِيَّةِ.

- وَأَنَا طَالِبٌ مَاكِسْتِيرٍ مِصْرِي... وَاقِدٌ جَدِيدٌ عَلَيَّ «جِرَاتِس»... لَنْ أَكْذِبُ عَلَيْكَ... فَلَا يَجُوزُ الْكُذْبُ
فِي هَذَا الْمَكَانِ... أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى إِتْقَانِ الْحَدِيثِ بِاللُّكْنَةِ النَّمْسَاوِيَّةِ، وَقَدْ أَحْتَاجُ مِنْكَ نِصْفَ سَاعَةٍ كُلَّ
يَوْمَيْنِ.

- غَرِيبٌ، لَمْ أَصَادِفْ مُشْكَلَةً فِي فَهْمِ مَا تَقُولُ، لَعْنَتُكَ الْأَلْمَانِيَّةُ جَيِّدَةٌ... رَائِعٌ أَنْ هُنَاكَ شَرْقِيَيْنِ يَتَحَدَّثُونَ
لِغَاتٍ أُخْرَى.

- شُكْرًا... الْمَشْكَلَةُ فِي اللَّكْنَةِ النَّمْسَاوِيَّةِ (اللطيفة) وَبَعْضُ التَّعْبِيرَاتِ الْعَامِيَّةِ الَّتِي تَصَادِفُنِي وَلَا
أَسْتَطِيعُ فَهْمَهَا.

لَا حُتُّ مِنْ وَجْهِهِ ابْتِسَامَةً، فَمَدَدْتُ يَدِي لِمَصَافِحَتِهِ وَشَدَّدْتُ عَلَيَّ ضَرْورَةَ الْحُضُورِ يَوْمَ الْأَحَدِ الْقَادِمِ
لِحُضُورِ خُطْبَةِ يَوْمِ الْأَحَدِ وَالتَّعْرِيفِ عَلَيَّ وَالدِّه، فَاعْتَذَرْتُ بِحُجَّةٍ أَنَّنِي لَا أَعْرِفُ اللَّاتِينِيَّةَ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ:
«هَذِهِ مِيزَةُ كَنِيسَتِنَا... الصَّلَوَاتُ تُتْلَى بِاللُّغَةِ الْمَحَلِّيَّةِ!».

كَانَتْ مِصَادِفَةٌ بَدَتْ كَأَنَّهَا مَحْتَوْمَةٌ، عِنْدَمَا رَأَيْتُ «سَارَةَ» لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَّةِ. ذَهَبْتُ صَبَاحَ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ إِلَى
«الْمِينَزَا» أَوْ كَافِينْتِيرِيَا الطَّلَابِ النَّابِعَةِ لِلْجَامِعَةِ، فَرَأَيْتَهَا جَالِسَةً وَحْدَهَا تَشْرَبُ الْقَهْوَةَ، وَتَمْسِكُ فِي
يَدَيْهَا قَلَمًا رِصَاصًا وَتَرْسِمُ شَيْئًا.

كَانَتْ تَرْتَدِي قَمِيصًا وَرَدِيًّا مَشْمَرًا حَتَّى الرِّسْغِ، وَبِنِظْلُونًا مِنَ الْجِينِزِ الْأَسْوَدِ فَوْقَ حِذَاءِ رِيَاضِي
أَبْيَضٍ، تَوَجَّهْتُ إِلَيْهَا، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَذْكَرَهَا بِنَفْسِي، فَوَجَدْتُ أَنَّهَا تَذْكَرُنِي، اسْتَأْذَنْتَهَا فِي الْجُلُوسِ،
فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِهَا.

دَعَتْنِي لِلْجُلُوسِ بِحَرَكَةٍ مِنْ كَفْهَا، سَأَلْتُهَا إِنْ كَانَتْ قَدْ تَنَاوَلَتْ طَعَامَ الْغَدَاءِ، فَقَالَتْ إِنَّهَا عَادَةً مَا تَكْتَفِي
بِكَعْكَةِ زَبِيبٍ وَقَرْفَةٍ وَكُوبٍ مِنَ الْقَهْوَةِ، حَيْثُ اعْتَادَتْ عَلَيَّ تَنَاوُلِ الْغَدَاءِ مَعَ أُمَّهَا وَأَبِيهَا، وَأَنَّهَا لَا
تَشْعُرُ بِارْتِيَاكِ إِذَا تَنَاوَلْتُ الْغَدَاءَ خَارِجَ الْمَنْزَلِ، كَمَا أَنَّ غَدَاً أَوَّلَ يَوْمٍ فِي رَمَضَانَ، وَأَنَّهَا اعْتَادَتْ
العِشَاءَ الْمَتَأَخَّرَ مَعَ أَبِيهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَفَهَمْتُ أَنَّهَا تَقْصِدُ «السُّحُورَ».

لم تبادر بالحديث، واستمرت في تناول قهوتها، مختلصةً بعض النظرات نحوي بينَ الحين والآخر، تفهمتُ توجُّسها من «عربي غريب»؛ فبدأتُ في الاقتراب.

سألتهَا حول طبيعة الحياة في المدينة، ووسائل الترفيه التي تقدمها الجامعة، فقالت إنَّ معظم الطلاب يذهبون للبارات الليلية، لكن إدارة جامعة جراتس قررتُ منذُ سنوات قليلة أن تقيم في صحنِ الجامعة، كلَّ شهرين مهرجاناً لعرضِ كلاسيكيات الأفلام الصامتة الأولى التي أنتجتها أوروبا في العقود الأولى من القرن الماضي، وأنَّها جرَّبتُ حضورَ أحدِ هذه الأفلام وكانت شيقية، فالأفلام تُعرضُ على شاشة عرض عملاقة في الهواء الطلق، صيفاً وشتاءً.

- ولماذا تُعجبك الأفلام الصامتة؟

- تعودَ أبي أن يقول: «امسكي لسانك يوماً واحداً في الأسبوع، وسوف ترين كيف ستتغير خطتك في الحياة».

- تمام، على العموم لم أجرب مشاهدة فيلمٍ صامتٍ... قد تكون تجربة تستحق المشاهدة... ومتى يُعرض أول فيلم؟

- سيبدأ أول عرض يوم الأربعاء بعد القادم في الساعة الثامنة مساءً... ومدة الفيلم ساعة واحدة فقط...

- فيلمٌ صامتٌ... ولم لا! همستُ في سِرِّي.

- أنا مواظبة على حضور معظم الأفلام... الصمتُ يحكي أكثرَ من الكلمات.

- أريد حضور أول فيلم... قد نلتقي هناك.

- أنا ذاهبة على أي حال.

كان يوماً خريفياً تصادف مع حلول أول يوم في شهر رمضان، فلم أحملُ عناء التفكير في الفطور. قفزتُ بخفةٍ ونشاطٍ غير عاديين من فراشي وأعددتُ حقيبتي والأوراق المهمة، ثم توجهتُ إلى ما حلمتُ به بالأمس؛ مبنى جامعة جراتس، ثاني أكبر وأقدم جامعة في النمسا، العنوان حفظته... «٣٠ إيزابيث شتراسه»، ميدان الجامعة، معهد Franz-Nabl للدراسات الأدبية.

كان مبنى الجامعة ذاته متحفاً تاريخياً. عمارة المبنى كانت أشبه بقصر أبيض قديم مترامي الأطراف، ذكرني بقصر القبة المجاور لبيت جدِّي.

على سطح المبنى، تراصت مجموعة من التماثيل الرخامية البيضاء لشخصيات لم أتمكن من تمييز معالمها، إلا أنّها لم تكن تختلف عن تلك التماثيل التي يراها أي شخص في جامعة أوروبية في فيلم أجنبي.

حين سألتها عن البروفيسور المسئول عن برنامج الماجستير، أخبرتني السكرتيرة أنّ اسمَه د. فالتر جوستاف فون دير هولتس، وأنّه سيعقدُ بعدَ نصف ساعة لقاءً تعارفٍ معَ طلبة برنامج الماجستير الجُدد في غرفة اجتماعات ملحقة بمكتبه في الجامعة.

فهمتُ فيما بعد أن هذا اللقاء كان بمثابة مقابلة شخصية غير مباشرة، أو اختبار مهذب يتيح للبروفيسور معاينة الطلاب الجُدد؛ ليقررُ بعدها من يستحق شرف الصحبة، ومن لا يستحق.

لم نشعرُ به وهو يدخلُ إلى الغرفة مُلقياً تحية الصباح في هدوء وصوت خفيض، وسرعانَ ما رأيناه يجلس إلى كرسي في منتصف المكتب دون النظر إلى أحد.

لم يكن د. فالتر سوى صورةٍ كلاسيكية لأستاذٍ جامعي أوروبي صرف. نحيل، طويلُ القامة، ذو لحية أرستقراطية مشدبة، وشعر أبيض ناجل من المقدمة، مفروق من اليمين، تلو أنفه نظارة طبية ذات عدسات بيضاوية داخل إطار معدني فضي رفيع، يرتدي بذلة بنية غامقة، وربطة عنق «ببيون» زرقاء، حاملاً حقيبة جلدية بنية اللون، ذات إبريم معدني براق اللمعة كأنه يطليه كل يوم صباحاً كما يطلي حذاه.

قدّرتُ عمره في أواخر الستينيات. نمشٌ خفيف يعلو مقدمة رأسه وكفيه، بدأ في التعريف بنفسه بنبرة شديدة الهدوء، وابتسامة مصنوعة، لكنّها ودودة؛ قالَ عبارتين: اسمي فالتر فون دير هولتس... أدّرس اللغات الشرقية وآدابها، ولم يزد.

وفي محاولة منه لكسر جبل الثلج بين الشيخ والتلميذ، أشارَ إلى ماكينة قهوة أقصى يسار الحجرة، ودعانا لضبط نسبة «الكافيين»، إلا أنّه لم يجلب لنفسه شيئاً.

دُهِشتُ؛ نمساوي لا يشربُ القهوة صباحاً، بل إنّه حتّى لم يشربُ كوباً من الماء طوال جلسة استمرت ست ساعات متوصلة، تخللتها استراحتان قصيرتان.

بعد انتهاء الجميع من تناول القهوة، أخرجَ كتاباً من حقيبته، وقالَ: لن أكون أكاديمياً صرفاً هذا اليوم... سأكتفي بقراءة سطور من رواية روبيرت موزيل المشهورة «رجل بدون صفات»، ثم نناقش الأفكار العامة للرواية، أريدُ أن أسمعكم أولاً.

- في البداية... هل سمع أحدكم عن هذه الرواية من قبل؟

فكرتُ ثوانٍ قبل أن أستجمع شجاعتي وجماع حصيلتي اللغوية، وقلتُ:

- نَعَمْ بروفييسور فالتر... أنا، وَقَدْ حاولتُ ترجمة أجزاء مِنْهَا أَيْضًا إِلَى العربية...

- وَعَمَّاذا تتحدث الرواية؟ في البداية... هل يمكن أن نتعرف عليك؟

- اسمي... يونس سعيد أبو الخير.

...Bitte schön

- نَعَمْ... تتحدث الرواية عن شخص يدعى «أولريش» يحاول طَرْقَ شَتَّى أبواب الحياة؛ ليكون رَجُلًا ذا شأن، فيعمل مهندسًا ثم ضابطًا، لَكِنَّهُ يفشل في تحقيق شَيْءٍ، وَهُوَ يدنو من الأربعين، وبعد فترة يقررُ أخذَ إجازةٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ ليسافرَ متأملًا النَّاسَ والمَغزى من الحياة... أعتقد هَذَا هُوَ الإطار العام للرواية.

- هل تريد مواصلة الحَدِيثِ؟ أراك متحمسًا...

- نَعَمْ... لو سمحت لي بروفييسور.

- تَفْضَّلُ... كيف ترى مشكلة «أولريش»؟

- مشكلة «أولريش» في التناقض القائم بَيْنَ سَعْيِهِ إِلَى بلوغ الحقيقة وفهم الكون وشعوره بالتيه والعجز أمام هَذَا الكون، لكنني أعتقد أن هَذَا الشعور بالعجز والتيه قَدْ يَكُونُ السبيل إِلَى خلاصه...

تطلعتُ إِلَى عينيه محاولًا الحصولَ عَلَى ردِّ فعلٍ أَوْ تعليقٍ، إِلَّا أَنَّهُ أومأ برأسه مشيرًا بالاستمرار:

- فِي الواقع لم أنتهِ مِنْ قراءة الرواية بأكملها، وحضرتك تعلمُ بالطبع أَنَّهَا عمل ضخم لم يكتمل، لكن سبيل الخلاص هَذَا شعور أَوْ حدس كَمَا قلت، وليس شيئًا يمكن استخلاصه من الرواية بشكلٍ مباشر.

- لا بأس... هل جذبت انتباهك عبارة محددة في الجزء الَّذِي قرأته؟ أعني مَا الَّذِي بقي في ذاكرتك؟

- بعض العبارات، أذكرُ مِنْهَا عبارة أولريش: «لن يتبقى لي إِلَّا إلغَاءُ الواقع الفعلي»... أعتقد أَنَّهُ يريدُ تحويلَ الواقع الَّذِي يمقته إِلَى نوعٍ مِنْ «اللاعدم الإيجابي»... أَوْ ربما إِلَى نوعٍ مِنَ الفناء الصوفي... وأعتقدُ أَنَّ هَذَا هُوَ السببُ فِي تسمية الرواية «رَجُلٌ بلا صفات».

- جميل... هل تعرف لهذه الفكرة مُعَادِلًا أَوْ فكرةً مشابهةً فِي التراث العربي؟

- هل تقصد فكرة الرواية كلها، أم العبارة التي اقتبستها... بروفييسور فالتر؟

- أقصدُ العنوان.

- لا يحضرني شيء محدد الآن، لكن عنوان الرواية من الممكن أن ننوله إلى رجل معدوم، ولدنا في التراث الصوفي معادل لذلك... صوفي شهير هو «أبو يزيد البسطامي»... قال يوماً: «أنا لا صفة لي»... أعتقد أن ثمة صلة بين مغزى كل منهما؛ فكلا الرؤيتين متشابهة... فرار من الواقع عند موزيل أو فرار من «الخلق» أو «الغير» وفناء في اللا منتهي عند البسطامي.

- ولكن هل تعتقد أن إلغاء الواقع ساعد «موزيل» في إخراج عمله الروائي بشكل جيد؟

- لو سمحت لي بروفيسور... تجاوز الواقع، بل وإغاؤه هو السبيل الوحيد، في ظني المتواضع، لصنع عالم يمكن فيه للأدب أن ينمو... عبارة أخرى لفتت نظري في المقطع «٣٩» من الرواية تقول: «... إن المرء يخطو خطوة إلى الأمام كلما كذب»، الكذب الإبداعي أو الخيال شيء أساسي للكتابة الأدبية، الخيال يمكن إثباته، بينما الواقع يمكن التشكيك فيه وتجاوز وجوده.

- وكيف تثبت الخيال؟

- الخيال بوجه عام هو الشيء الوحيد القادر على دفع الإنسان للاستمرار في الحياة، لدينا في التراث العربي الصوفي «محيي الدين بن عربي»، كتب معظم أعماله تحت تأثير «الأحلام» و«الخيال الخلاق»، حتى أنه قال عبارة غريبة يوماً: «من لا يعرف الخيال، فلا معرفة له جملة واحدة، وهذا الركن من المعرفة إذا لم يحصل للعارفين، فما عندهم من المعرفة رائحة»، وقال أيضاً: «... ما أوجد الله أعظم من الخيال منزلة».

ممكن أسأل بروفيسور فون دير هولتس عن علاقة «روبرت موزيل» بالأداب الشرقية؟

ضحك بروفيسور فالتر ضحكة قصيرة وقال:

- لا توجد علاقة Herr Abo El Kheir... أنا أحب «موزيل» وأردت أن أشارككم فيما أحب... هذا ذوق شخصي، وكما أخبرتكم في البداية، هذه ليست جلسة أكاديمية، نحن نتعارف.

كان بصراً د. فالتر مُسلطاً علينا مثل عدسة كاميرا؛ يراقب متى ندون ملاحظاتنا... متى نتناهب... من يغفو ومن يستيقظ. كان معظم الطلبة الجالسين ذوي ملامح أوروبية أو شرق أوسطية.

أنهى د. فالتر الجلسة عندما أغلق الكتاب، ودسه في حقيبته الجلدية، وقال: سوف تقوم سكرتيرتي «سايينا كريمز» في غضون أسبوع عمل من اليوم، بإرسال خطاب لكل منكم، يضم كل التفاصيل.

بدأت في لملمة الأوراق، ووضعتها في حقيبتي، إلا أنني فوجئت بالشخص الذي كان جالساً إلى جوارني ينظر إليّ مُبتسماً ابتسامة خفيفة، وبأدب بتعريف نفسه، باسماً يده بالمصافحة.

- اسمي لؤي منذر عبد الجليل... عراقي، كَأنتِ أسئلتك رائعة... بالمناسبة أنا أيضاً مهتم بالصوفية والتراث العرفاني.

- أهلاً... عَلَى فكرة اهتمامي بالصوفية مجرد اهتمام بالظاهرة الأسلوبية، أحبُّ كلامَ الصوفية مثلما أحبُّ الشَّعرَ، جماليات اللُّغة تروقني، لكنني لا أعتقدُ أَنَّ التصوف يقدِّمُ إجابةً نهائيةً عَلَى شَيْءٍ، عَلَى الأقلِّ بالنسبة لي؛ لستُ درويشاً يا صاحبي.

- وَمَا لَهُ الدرويش يا أخي؟

- لا طبعاً، أهل الطريق فوق رؤوسنا ، أساكن أنتِ معنا في بيت الطلاب؟

- لا... سأقيمُ في شارع Rechenbaustrasse ١٧ ، طلبتُ من إدارة الجامعة الحصولَ عَلَى مقابلِ نقدي بدلَ السكنِ، عَلَى أن أدفعَ الفرقَ من جيبِي الخاصِ، واستأجرتُ شقةً صغيرةً في هَذَا الشارعِ البعيدِ، الشقة تطلُّ عَلَى مكتبةٍ جميلةٍ مقامةٍ وسط حديقةٍ عامةٍ هُنَاكَ، يمكننا أن نلتقي هُنَاكَ، لكلٍ مترددٍ عَلَى المكتبةِ كوبٌ من القهوةِ وقطعةٌ مملحةٍ من Pretzel مجاناً... بشرطِ أن تشتري كتاباً واحداً عَلَى الأقلِّ.

- رائع... لو كان محمود درويش حياً اليوم لأتانا هرولة، قهوة وكُتُبٍ وخُصرة.

تأملتُ استواءِ ياقة قميصي للمرة الأخيرة في المرآة قبلَ الخروجِ؛ كنتُ أقربُ إلى سمسار عقارات في كولدويل بانكير منِّي إلى طالب جامعي، ولم يكن ينقصني سوى القليل من «الفازلين» يُسَكِّتُ تِلْكَ الشَّعيراتِ الخفيفاتِ فوق رأسي.

حين وصلتُ ساحةَ الجامعة، رأيتها واقفةً أمامَ كُشكٍ خشبي صغيرٍ لحجزِ التذاكرِ. اقتربتُ، فقَالَتِ أَنَّهَا حجزتُ تذكرتينِ. مدَّتْ يدها وَقَالَتِ:

- تَحَسَّبْتُ أن تأتي متأخراً... حجزتُ لَكَ مقعداً... فيلم اليوم اسمه «جراتس النائمة».

- كنتُ أستعدُّ للفيلم.

- سوف أسألك عن رأيك في النهاية؟

حين انتهى الفيلم، شعرتُ أنَّ الزمنَ قدَّ تسرَّبَ في خفة هائلة، ولم أعرفِ إنَّ كان ذلكَ بسببِ «روعة الفيلم» أم «روعة سارة»، أم لكليهما.

- هل أعجبك الفيلم؟

- أعجبتني فقط؟ لقد فتنتُ بهِ.

- من أي ناحية؟

- يمكنكِ القول إنهما لم يكونا بحاجة لِأَنَّ يتكلَّما؛ لكن مَنْ «صوفيا دي ميللو» الَّتِي ظَهَرَ اسْمُهَا أَوْلَ الفيلم؟

- شاعرتي البرتغالية المفضلة؛ كلامها سحر.

- وأنا طفل طالما ذكَّرتني كلمة البرتغال بالبرتقال، مَا علينا... أخبرتني يومَ الإثنين الماضي أن والدك طبيب.

- والدي د. بكر الطولاني، يعمل كبيرَ أطباء في قسم أمراض الدم، في مستشفى جراتس الجامعي مُنذ ثلاثين عامًا، وأمِّي نمساوية، وتعمل مديرةً لِإحدى شركات السياحة هُنَا في «جراتس»، وأنت؟

- سجَّلتُ للتو في برنامج الماجستير، تخصص الأدب المقارن في معهد فرانتس نابل للأدب.

- مَعَ مَنْ تعمل؟... أقصد مَنْ المشرفِ عَلَى البرنامج؟

- بروفييسور اسمه فالتر فون دير هولتس، قابلته الأسبوعَ الماضي بالجامعة في جلسة تعارف مَعَ باقي طلبة برنامج الماجستير.

- د. فون دير هولتس... ربَّنا معك؛ هُوَ بالأساس كان أستاذًا في قسم الدراسات الشرقية في جامعة فيينا.

- هل تعرفينه شخصيًا؟

- نوعًا مَا... أنت تعلم أن مدينة «جراتس» صغيرة، وقاطني الحَي الواحد يعرفون بعضهم، قَالَت لي أمِّي إِنَّهُ كان يسكن إلى جوارنا مُنذُ زمن، حَتَّى قَبْلَ مولدي، وَلَكِنَّهُ غَادَرَ الحَيِّ مُنذُ سنوات طويلة واشترى منزلًا مستقلًا؛ كُنْتُ أراه عندما كَانَتْ تَصحبني أمِّي لشركة السياحة الَّتِي تعمل فيها... كُنْتُ أراه هُنَاكَ، فكان يلاطفني بأبوة، وَلَا يتركني إِلَّا بعد أن يُقبِّلني ويعطيني حلوى ويتأمل ملامح وجهي كثيرًا.

- أكيد أولاده في مثل سنِّكِ أَوْ ربما أكبر قليلًا.

- لا أعرف، لَكِنَّهُ بدا لي شخصًا رقيقًا؛ كَمَا أَنَّهُ هُوَ مَنْ رَشَّحَ لي دراسة «الفنون» في وحدة دراسة تاريخ الفن في جامعة جراتس... هل تَجْمع عنه معلوماتٍ شخصية يا يونس؟ لن يُفْلِح ذَلِكَ عَلَى العموم، بروفييسور فالتر لا يصلح معه سِوَى العمل الشاق المتواصل... وأنت وشطارتك.

- إطلاقاً... مجرد فضول.

- حَتَّى هَذِهِ الْعِبَارَةُ لَا تَقْلِحُ مَعَهُ فِي؛ فَهَنَّاكَ إِشَاعَةً قَوِيَّةً أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ قِرَاءَةَ الْأَفْكَارِ... يُمْكِنُهُ بِيَسَاوَةِ النِّفَازِ إِلَى عَيْنَيْكَ وَمَعْرِفَةِ مَا يَدُورُ دَاخِلَكَ... وَهُوَ جَالِسٌ يَنْظُرُ إِلَيْكَ فِي هَدُوءٍ وَوَدَاعَةٍ.

- أَحْسُ أَنْكَ تَتَحَدَّثِينَ عَنِ سَاحِرٍ أَوْ مَنْوَمٍ مَغْنَاطِيَسِي.

- جَائِزٌ، د. فَالْتَرِ هَذَا حِكَايَةَ كَبِيرَةً يَا يُونَسَ... يُقَالُ إِنَّهُ يُتَقَنَّ عَشْرَ لُغَاتٍ حَيَّةٍ وَمَيِّتَةٍ... تَبَحَّرَ فِي الْإِسْلَامِ وَالصُّوفِيَّةِ وَالْبُودِيَّةِ وَهَذِهِ الَّتِي اسْمُهَا دِيَانَةُ الشَّامَانِ.

- شَيْءٌ لَطِيفٌ أَنْ يَكُونَ الْمَشْرُفُ عَلَى عَمَلِكَ مُتَفَهِّمًا جَيِّدًا وَيَعْرِفُ مَاذَا يَرِيدُ؟ أَنَا شَخْصِيًّا قَلْبِي عَلَى لِسَانِي... بَرَجَ الْعُذْرَاءُ... لَا أَعْتَقِدُ أَنَّي سَوْفَ أَعَانِي مَعَهُ.

لَمْ نَدْرِ كَمْ مَضَى مِنَ الْوَقْتِ وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ أَثْنَاءَ سَيْرِنَا. وَلَا كَيْفَ تَشَعَّبَتْ مَسَارَاتُ الْحَدِيثِ بَيْنَنَا إِلَى مَوْضُوعَاتٍ غَيْرِ الدِّرَاسَةِ وَالْجَامِعَةِ. حَدَّثْتَهَا عَنِ وَلَعِي بِتَقْصِي أَثَرِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ، وَأَنْنِي أَكْتَسَبْتُ خُبْرَةً قَوِيَّةً فِي تَعَقُّبِ أَثَرِهَا كَمَنْ يَفُكُ طَلَّاسِمَ قِصَّةِ بُولِيَسِيَّةٍ، لِدَرَجَةٍ أَنْ صَدِيقِي عَمَّ «جَمَالٌ» صَاحِبُ مَكْتَبَةِ الْحِرَافِيَشِ الَّتِي كَانَتْ أَمَامَ أَسْوَارِ الْجَامِعَةِ، كَانَ يَسْتَعِينُ بِحَدْسِي فِي الْبَحْثِ عَنِ أَعْمَالِ «طَانِيُوسِ عِبْدِهِ» أَوْ «شَبْلِي شَمِيلٍ» النَّادِرَةِ. «... إِحْسَاسُ الدُّوْخَةِ وَرَاءَ كِتَابٍ أَوْ مَوْضُوعٍ أَوْ كَاتِبٍ رُبَّمَا يَفُوقُ عِنْدِي مَتْعَةَ الْعَثُورِ عَلَى الْكِتَابِ نَفْسِهِ.

حَدَّثْتَنِي عَنِ وَلَعِهَا بِالرَّسْمِ وَالْمُوسِيقَى، وَعَنِ حُبِّهَا لِلْجُلُوسِ فِي حِجْرَةٍ خَصَصْتَهَا أَمَّهَا فِي مَنْزِلِهَا لِلرَّسْمِ، وَأَنَّهَا اسْتَعَاذَتْ بِالْأَلْوَانِ وَالْمُوسِيقَى عَنِ قَلَّةِ الْأَصْدِقَاءِ الطَّبِيعِيِّينَ فِي جِرَاتَسِ. أَنْصَحُكَ بِقِرَاءَةِ سِيرَةِ «فَانِ جُوخٍ» وَ«رَمْبِرَانْتِ» وَ«مَائَاكُوفْسْكِي»... سَوْفَ تَتَحَوَّلُ إِلَى كَاتِبِ رَوَايَاتٍ فِي غُضُونِ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ.

- كَاتِبٌ!

- أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ تَهْوَى الْكِتَابَةَ.

- لَا أَعْرِفُ... أَخْجَلُ مِنْ تَسْمِيَتِهَا كِتَابَةَ، لَكِنْ كَثْرَةُ سَمَاعِ الْحِكَايَاتِ مِنْ أُمَّيْ دَفَعْتَنِي لِإِعَادَةِ حِكَايَتِهَا مِنْ جَدِيدٍ بِأَسْلُوبِي... لَا تَشْغَلِي بِالْكَ...

- رُبَّمَا أَنْتِ الَّذِي لَا تَعْرِفُ... هَذِهِ هِيَ الْكِتَابَةُ... إِعَادَةُ حَكَايَاتِ... التَّأْلِيفِ يَعْنِي التَّجْمِيعَ.

قَطَعْنَا مَسَافَةً طَوِيلَةً يَقْطَعُهَا الْأُوتُوبِيَسُ عَادَةً فِي رُبْعِ سَاعَةٍ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى شَارِعِ طَوِيلِ.

- عَلَى فِكْرَةٍ... أَنَا جَدِيدٌ فِي جِرَاتَسِ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ أَعُودُ.

- ربما تغثُرُ على «سيارة» أخرى في محطة الأتوبيس تَدَلِّكُ عَلَى الطريق.

- الْإِنْسَانُ يَعْتَرُ عَلَى دَلِيلِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ.

وَدَعَّتْهَا بِرَأْسِي دُونَ أَنْ أُخْرِجَ يَدَيَّ مِنَ المَعْطَفِ، وَعَدْتُ إِلَى المَنْزَلِ سَيْرًا عَلَى الأَقْدَامِ. انْعَكَسَتْ أَضْوَاءُ أَعْمَدَةِ الإِنَارَةِ فَوْقَ أَسْفَلَتِ الشَّارِعِ المَبْلَلِ بِرِذَاذِ مَطَرٍ خَفِيفٍ، فَبَدَأَ الطَّرِيقَ أَمَامِي مِثْلَ نَهْرٍ فَضِيَّةٍ سَائِلَةٍ.

بَقِيتُ سَاهِرًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، أَكْتُبُ أَوَّلَ خُطَابٍ إِلَى أَبِي بَعْدَ وَصُولِي النِّمْسَا، وَكُنْتُ قَدْ اعْتَدْتُ أَثْنَاءَ سَفَرِيَاتِي الصِّيفِيَّةِ إِلَى أَلْمَانِيَا، كِتَابَةَ خُطَابَاتٍ إِلَى أُمِّي وَأَبِي، أَخْبِرُهُمَا بِأَحْوَالِي وَصَحْتِي. بَعْدَ لِحْظَاتٍ مِنَ إِسْمَاكِ الوَرَقَةِ، تَرَكْتُهَا فَارِغَةً.

الْحُبُّ هُوَ «المَبَادِرَةُ» كَمَا قَالَ فَيْكْتُورْ هُوجُو ذاتِ يَوْمٍ؛ لَمْ لَا أَبَادِرْهَا؟ لَا أُرِيدُ المَوَارِبَةَ وَالمُذَاهِبَ بِأَسْبَابِ مَلْفَقَةٍ، لِأَقَلِّ مَا أَحْسَنَهُ، وَلِيَكُنَّ مَا يَكُونُ.

الْحُبُّ يَأْتِي مِثْلَ ضَوْءِ نَجْمَةٍ بَعِيدَةٍ؛ تَوَمِّضُ وَتُطْفِئُ، ثُمَّ تَوَمِّضُ وَتُطْفِئُ... وَتُظَلُّ هَكَذَا فَلَا تُمَكِّنُكَ مِنَ الاسْتِمْتَاعِ بِهَا إِلَّا إِذَا كَرَّسْتَ نَفْسَكَ لِمَرِّ اقْبَتْنَاهَا.

كُنْتُ مَتَرَدِّدًا بَيْنَ «النُّطْقِ» وَ«الصَّمْتِ»، بَيْنَ البُوحِ وَ الكِتْمَانِ، مَفَكِّرًا فِي «بَابِ يُوصلُنِي إِلَيْهَا»... قَدْ تَكُونُ مَرْتَبِطَةً؟ وَلَكِنْ أَيْنَ صَدِيقُهَا؟ قَدْ يَكُونُ مَسَافِرًا؟ وَلِمَاذَا وَاقَفْتُ عَلَى طَلْبِي مَشَاهِدَةَ الفِيلْمِ الصَّامِتِ مَعَهَا؟ أُنْسِيتُ أَنَّكَ فِي أوروْبَا؟ هَذَا طَبِيعِي... مَا دَمْتُ اتَّخَذْتُ قَرَارًا بِالمَصَارِحَةِ، فَلِمَ لَيْسَ الآنَ؟ لَا تَوَجَّلْ حِمَاقَةَ اليَوْمِ إِلَى الغَدِ.

أَخَذْتُ بِنصِيحَةِ «هُوجُو»، فَتَوَجَّهْتُ فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِيِ إِلَى مَكْتَبَةِ وَحْدَةِ «تَارِيخِ الفَنِّ المَعَاوِرِ» فِي الجَامِعَةِ، حَيْثُ اعْتَادْتُ سَارَةَ التَّرَدُّدَ إِلَى المَكْتَبَةِ كَمَا أَخْبَرْتَنِي أَثْنَاءَ مَشَاهِدَةِ الفِيلْمِ الصَّامِتِ.

كَانَتْ تَجْلِسُ وَحِيدَةً. أَلْقَيْتُ التَّحِيَّةَ فَرَدَّتْ بِابْتِسَامَةٍ. سَأَلْتَنِي عَنِ الدِّرَاسَةِ، فَأَجَبْتُهَا بِسؤالٍ:

- لَمْ أَرِ أَصْدِقَاءَكَ يَا سَارَةَ؟ هَذِهِ هِيَ المَرَّةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي أُرَاكَ تَجْلِسِينَ وَحِيدَةً؟

- لَسْتُ وَحِيدَةً، لَكِنْهُمْ زَمَلَاءٌ... صَدَاقَاتِي لَيْسَتْ مُتَعَدِّدَةٌ... بِضَعِ صَدِيقَاتٍ نَمساوِيَّاتٍ، وَزَمِيلَ عِرَاقِي.

- سَارَةَ... أَعْرِفُ أَنَّنَا لَمْ نَتَعَرَفْ إِلَى بَعْضِ سَبُوحِ مُنْذُ أَيَّامِ قَلَانِئِلِ، إِلَّا أَنَّنِي أَشْعُرُ نَحْوَكِ بِشَعُورٍ مُخْتَلَفٍ، اعْذِرْنِي عَلَى طَرِيقَتِي المَبَاشِرَةِ فِي الحَدِيثِ.

- لَا أَجِدُ سَبَبًا لِلِاعْتِذَارِ؛ فَالاعْتِذَارُ -عَادَةً- يَكُونُ عَنِ خَطَأٍ... هَلِ ارْتَكَبْتَ خَطَأً؟

- لا أجيذُ اللَّفَّ والدوران، وَلَا أستطيعُ الزعمَ أَنَّ ذَلِكَ الشعور «إعجابٌ من النظرة الأولى؛ هَذَا كلام صبيان مدللين لا أقوى عليه، وَلَا تسمح ظروفِي الآن بالاستمرار فِي التفكير فِيهِ».

- إعجاب؟ ... WOW ... هل استشعرتُ كُلَّ هَذِهِ الأحاسيس بعد ثوانٍ قليلة فِي قطار، ودقائق قليلة فِي كافيتيريا الجامعة، ثم ساعة أَوْ ساعتين أثناء مشاهدة فيلم صامت؟ يقولون إن ميزة الإعجاب المفاجئ أَنَّهُ يوفر الوقت.

نفسُ إحساسِ المرءِ حينَ ينثالُ فوق رأسه ورقٌ ماءٍ تلج، تَلته نوبة صداع مفاجئ تفلق جمجمتي. أشحتُ بوجهي بلطف، ثم خلعتُ نظارتي، مُتظاهراً بإزالة الغبار العالق على العدسات، لم أكنُ أملكُ ساعتها منديلاً، فاضطرتُ لتطهيرِ العدسات فِي طرفِ قميصي. لاحظتُ «سارة» توترِي، فقالت مبتسمة:

- ما هُوَ بُرجك السماوي؟

- هل تتفهمين فِي الأبراج؟... أنا برج العذراء... ٢٢ سبتمبر...

- إلى حدِّ ما... لِأَنَّ خالي «هارالد» من مواليد العذراء... هُوَ أكبر مِنِي بعشر سنوات فقط... أستطيع القول إنَّ رَجُلَ العذراء لا يجيد التعبير عن مشاعره بشكل مثالي، وعادةً ما يبدو شخصاً محافظاً وغامضاً، وَلَكِنَّهُ...

- تمام يا سارة... أنا منتظر ما بعد كلمة «ولكن»...

- وَلَكِنَّهُ صديق رائع... ويمكنك الاعتماد عليه...

- أنا قلت هَذَا أَيضاً... صديق...

- على فكرة... لقد حدثتُ أَبِي عَنكَ، أقصد عن هَذَا الصوفي العراقي... ما اسمه؟ «النفري»... وَقَالَ لي إِنَّهُ لم يسمع يوماً بهذا الاسم... من أين أتيتَ بِهِ يا يونس؟ هُوَ يجب أن يراك كي يتكلم معكَ شخصياً.

نظرتُ على استحياء إلى عينيها، ثم سألتها:

- متي سيُعرض الفيلم الصامت القادم يا سارة؟

- أظنه يوم الأربعاء... لستُ متأكدة... مُر عليّ باكراً سأؤكد من الإدارة وأقول لك...

- أنتِ دنيا أخرى يا سارة...

- وأنت تغضبُ سريعًا يا يونس.

- لم أغضب، ربما أنا كثير التفكير.

- واضح... خمنتُ أن رأسك ترسٌ لا يكفُ عن الدوران... ربما وأنت نائم أنشط منك وأنت مستيقظ...

- كيف عرفتِ؟

- حدس «برج الجدي»... لقد تعلمت من علاقة أبي وأمِّي شيئًا مهمًا... أن الانجذاب بين شخصين هو الشيء الوحيد الذي ليس له تفسير منطقي... فكر في الأمر هكذا كيف يحدث؟ ولماذا؟ ولم يستمر أو يموت؟ لا أحد يعلم... وعندما يجذب شخصان إلى بعضهما تبدأ الكيمياء في العمل، الكيمياء والفيزياء وكل المعادلات.

- لكن الحب مخلوق.

- لا أفهم!!

- الحب يحتاج إلى غذاء أيضًا... الاهتمام هو الذي يغذي الحب وينميه...

- واضح أنك خبير يا يونس.

- خبير روحاني.

في الأشهر الأولى كانت صداقتي بفيليب ووالده الأب «مارتن هيل» تزداد عمقًا على نحو تدريجي. كنا نخرج كل يوم جمعة بعد انتهاء المحاضرات مع «فيليب» للتمشية أو بالدراجات في شوارع مدينة جراتس وتناول القهوة في أحد المقاهي. ترددنا بعدها على محلات الكتب القديمة للبحث عن كتب بتكليف من والده. كان حديثه يتكرر غالبًا عن قصة حب جديدة بدأت تطرق بابَه، وعن صراع داخلي مكتوم بين التوق إلى علاقة حرة مع فئاته كأبي شابٍ نمساوي في مثل سنه وبين المبادئ الكنسية التي تربى عليها، لكن المؤلم كما قال- كان ضيقه من سخريته صديقه بسبب آرائه التي وصفتها بأنها حجرية حول الجنس والحرية الشخصية.

- لن أخفي عليك... نورا تريدني في سريرها كل ليلة... أحيانًا تتهمني بالسذاجة لتحفظني في هذا الموضوع.

- وماذا فعلت معها؟

- لا شيء.

- لا شيء! كُن حذرًا... قَدْ تُفسرُ ذَلِكَ «اللا شيء» تفسيرًا آخر، يجب أن تفعلَ «الشيء»، ولو لمرة واحدة.

- ماذا؟

- أنا لا أحرصُكَ عَلَى «شيء»، ولكن يبدو أَنهَا تُجَبِّكُ... لا تفقدِها بسبب أفكار قديمة أو محافظة... حاول تغييرها تدريجيًا... ما المانع أن تدعوها يومًا لرحلة خلوية في أي مكان وتفعل أي «شيء»؟

- أي شيء مثل ماذا؟

أيقنتُ أَنَّهُ لا أَمَلُ في فيليب، وَأَنَّهُ من الأفضل أَلَّا أَدْخُلَ في الموضوع من جديد، وتأكَّدَ هَذَا اليقينُ عِنْدِي حينَ رأيته بعدَ ذَلِكَ... شارِدًا... مهمومًا... يأكل ويدخن بشراهة، فأدركتُ أَنَّهُ لن يفعلَ أي «شيء».

في يوم دعاني لزيارة مكتب والده في الكنيسة الإنجيلية في «جراتس». كان والد فيليب رجلًا قصير القامة أميل إلى النحافة، تلازمه عادة «جذب قمصيه» إلى الأسفل والأطمئنان إلى وجود مفاتيحه الشخصية في جيب بنطاله كل بضعة دقائق.

عندما استقبلني أول مرة في مكتبه داخل الكنيسة، شكرني على التبرع الذي قدمته لصندوق الكنيسة منذُ شهر، فأخبرته أنني قد نسيتُ الموضوع برمته، فقال لي وَقَدْ عَلَتْ نبرة الوعظ في صوته:

- ينسى الإنسان كل شيء ولا تتسى السماء أي شيء، الرب عنده دفتر كبير يدون فيه، وهذا هو ما أعلمه لأبنائي هنا، أعلمهم أن أي شيء يوجد به الإنسان يأتيه بعد ذلك في صورة أخرى: «إرم حُبْرَكَ عَلَى وَجْهِ المِيَاهِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ... هكذا تكلم الرب... انظر إلى أصابعي المبتورة، لم أشعر يومًا بنقص، بالعكس... أستخدم أصابعي بشكل طبيعي تمامًا وكان شيئًا لم ينقص، كان البتر سببًا في دخول الكنيسة، وأبدلني الرب عملاً وبيتًا وأسرةً مُجبة.

أخبرني وهو شارِد أن فيليب محتاج إلى صديق هادئ وعاقِلٍ يشبهني؛ لِأَنَّ غالبية مَنْ هُمْ في مثل سنه الآن مشغولون بأشياء فرضتها الثقافة الوافدة عليهم.

- عاقل؟

- شيء عجيب يا يونس... أراهم ظهيرة الأحد جالسين أمام سور الكنيسة يأكلون ويشربون... وَلَا يفكر أحدهم حتَّى في الدخول لزيارة مكتبة الكنيسة... الكرازة للمسيح تواجه مشكلات كبيرة هنا... غير المؤمنين يشكلون أغلب السكان.

لم أعلق؛ رُحْتُ أحدثه عن دراستي للماجستير في الأدب المقارن وإعدادي الرسالة تحت إشراف
بروفيسور فالتر فون دير هولتس، فأخبرني أنه لا يعرفه شخصياً، ولكنه يعرف زوجته بيأتي فون
دير هولتس التي تتردد على الكنيسة يوم الأحد بشكل شبه منتظم وتحضر أغلب اللقاءات الكنسية.

- أعتقد أنه ينتمي لمذهبٍ آخر؛ لم أره يوماً يزور الكنيسة... حتى زوجته لم أفهم منها إلى أي مذهبٍ
ينتمي؟

هزرتُ رأسي مؤكداً على جهلي بذلك ، فأغلق النقاش بآية أخرى:

«كَمَا أَنْتَ لَسْتَ تَعْلَمُ مَا هِيَ طَرِيقُ الرِّيحِ، وَلَا كَيْفَ الْعِظَامُ فِي بَطْنِ الْحُبْلِ، كَذَلِكَ لَا تَعْلَمُ أَعْمَالَ اللَّهِ
الَّذِي يَصْنَعُ الْجَمِيعَ».

كان د. فالتر يدخل قاعة المحاضرات غالباً بلا أوراق سوى حقيبة جلدية سوداء، يضعها على
المنضدة، ويقف مغلقاً عينيه، لبدأ المحاضرة بلغة فصحي تخلو من اللكنة النمساوية المعروفة، وإذا
لزم الأمر يتلو المحاضرة بالعربية أو الفارسية. ويستطرد في الشرح كأنه يقرأ من كتاب مفتوح أمام
عينيه الداخليتين. وكان أحياناً يفاجئنا ببرهة صمتٍ طويلة؛ يتوقف عن الكلام، فنتململ ونراهن أنه
فقد خيط العقد الذي ينتظم محاضراته، فنذكر أنه كان يبحث عن مفردة ما، وفي خلال ثوانٍ يمرق
التعبير الدقيق من شفتيه مرور الرمية من السهم.

لم يكن يكتفي بساعات الدراسة، فكان يدعونا إلى الخروج في نزهة شبه يومية سيراً على الأقدام إلى
نهر المور، ثم يدعو الجميع إلى القهوة في بيت خشبي أشبه بالعوامات النيلية الرابضة على ضفاف
نيل القاهرة.

مكانه المفضل مقهى ليس بالمقهى؛ بيتٌ أشبه بكوخٍ مقام فوق لسان خراساني يُقطع نهر المور،
مفتوح الجوانب، يضم كراسي وطاولات خشبية مصنوعة من جذوع الأشجار العملاقة التي كانت
تحيط بكل أرجاء المكان.

كانت أشجار الزان والبلوط حولنا أشبه بأعمدة ترفع السماء إلى أعلى. تخيلت أن طول الشجرة
الواحدة يصل إلى خمسين متراً، تتخللها فراغات وسط المساحات الفاصلة بين الشجرة والأخرى،
بدت مثل طاقات نور صغيرة، ترسل إلينا باقة نور من كرم السماء، وكنا نرى من بين هذه الفتحات
بيوتاً خشبية قديمة، مسكونة وغير مسكونة، تحيط بها الأزهار في الشرفات بألوانها المتقدة والمشعة.

وبمجرد وصوله، كان يطوف ببصره في أرجاء هذه البقعة، متأملاً إيّاها قائلاً: «ليتها كانت أشجار
السرو البعيدة»، ثم يجلس في مقعدٍ يُطل على النهر مباشرة.

استرعى انتباهي أن عدد المدعوين إلى هذه الجلسات أو النزاهات العلمية من طلاب الماجستير والدكتوراه، كان يتناقص تدريجياً، كما لو أن بروفييسور فالتر كان يقوم بعملية انتقاء مُخططة حول مَنْ يستحق أن يحظى بشرف الصحبة ومَنْ يستحق أن يُحرم منها.

سألته يوماً عن دفتره السميك، فأجابني وهو يخبئه داخل حقيبته:

- هذا الدفتر وسيلةٌ أزجي بها وقتي، وأوراقه مصنوعة من نبض أفراد أحياء يتنفسون ويعيشون حيواتٍ أخرى فوق حياتهم؛ كلماتهم أسهمٌ تشير إلى أماكن، والأماكن تشير إلى أماكن أخرى.

- وما سرُّ اللون البنفسجي؟

- هذا لون ملائم للكفن.

- عفواً؟

- قرأت يوماً أن شبينجلر فيلسوف الحضارة كان يرى أن اللون البنفسجي هو أعمق وآخر مراحل تطور العقل البشري.

وبمرور الأيام، بدأ يحكي عن أصوله الأرستقراطية وعرقه الألماني؛ قال إن جدّه هو البارون والقائد العسكري الألماني جوستاف فون دير هولتس.

ترك جدّه ميراثاً ضخماً لابنهِ والدِ د. فالتر؛ كان الميراثُ عبارةً عن الفيلا التي كان يقيم بها المارشال فون دير هولتس في إسطنبول قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى الأرض المحيطة بها. إلا أن حكومة أتاتورك لم تصادر الأراضى حتّى باعها والدِ د. فالتر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، واشترى بثمن البيع منزلاً في فيينا بعد أن انتقل إليها مهاجراً، ووضع بقية المال في حسابات باسم ابنهِ فالتر، وابنته حنا، مما جعل الأسرة في وضعٍ ماديٍّ قويٍّ.

أبحرتُ مراكبُ الغربة في نهر جامعة جراتس على مدار عام، حتّى رسّت على ميناء «الرضا الفالترى المقدس» كما كنا نسمّيه، وأصبحنا من تلامذة د. فالتر المقرّبين، أنا ولؤي.

طوال هذا العام، كنتُ أرى لؤي بصفة شبيه يومية في المعهد. كان لؤي في مثل عمري تقريباً، طويل القامة، له شارب عراقي بامتياز، لم ألمح على تصرفاته أي نوعٍ من الرعونة أو الجموح اللذين يتمييز بهما معظم الطلبة العرب هنا حسبما رأيت.

وفي يوم كنتُ في منتصف الطريق إلى منزلي، فمررتُ على مكتبة قريبة من المعهد لشراء بعض الأوراق والأقلام، فلمحتُ يافطةً خشبية تحمل اسم شارع Rechenbaustarsse.

قرعتُ الجرسَ المواجه للمربع المعدني الذي يحمل اسمَ لؤي، فأجابني بصوتٍ مرح، فرحتُ حين تعرّف إلى صوتي، أخبرته أنني أفضل اللقاءَ في الحديقة المقابلة للمنزل.

انتظرته دقائق، أقبل بوجهٍ هاش، باسطاً كفه لمصافحتي:

«أخيراً وجدت صديقاً عربياً طيباً».

عبّرنا الشارعَ نحو الحديقة، واجتازنا البوابة الحديد الكبيرة. أشرتُ إلى مقعد خشبي شاغر على شكل جذع شجرة ضخمة. تركني لؤي وذهبَ لشراءِ قهوة، «نشرب القهوة أولاً ثم نشترى الكتب، بعدها نشربُ قهوة مجاناً ثانية ونأكل Prezel مملح».

رشفْتُ جرعتين من القهوة، بينما راح يروي حكايته. قال إنه تركَ بغدادَ قبل الاحتلال الأمريكي للعراق بثلاث سنوات، بتأشيرة منحة دراسية لمدة ٦ شهور، لدراسة اللغة الألمانية في جامعة جراتس، ثم تحولت المنحة إلى إقامة دراسية كاملة، لدراسة اللغة الألمانية وآدابها في وحدة Germanistik.

ثم حكى عن أبيه العراقي المتوفى، وأمّه الإيرانية التي اصطحبته برفقة أخته، عائدةً إلى مسقط رأسها في مدينة «سمنان» بإيران؛ وقال إن والدته قد عادت إلى إيران لتقيم بشكل دائم مع والديها بعد وفاة أبيه عندما كان طالباً في المرحلة الثانوية، وأنه قضى في إيران خمس سنوات تقريباً، تخرّج خلالها في الجامعة وأتم دراسة اللغة الفارسية، ثم اشتغل قليلاً ببعض الأعمال الإدارية.

- ولماذا عادت والدتك إلى إيران؟

- للأسف، لم تحظ والدتي بقدر عالٍ من التعليم يمكنها من العثور على فرصة عمل جيدة، وأرادت الاستقرار مع جدّي وجدتي، حيثُ يمتلك جدّي لأمي في سمنان مزرعة تُدرُّ عليه دخلاً جيداً.

- عفواً... هل والدك كان يعمل أساساً في إيران؟

- لا... كان يعملُ مراقب تركيبات ميكانيكية في إحدى شركات المقاولات العراقية التي تنفذ أعمالاً في طهران، وتعرّف إلى والدتي هناك في مهمة عملٍ قبل قيام الثورة عام ١٩٧٩، ثم تزوجا في إيران، وعاد بعدها إلى بغداد.

- ولماذا عدتَ يا لؤي من جديد إلى بغداد؟ كيف تركت والدتك؟

- والله يا أخي كانت تنقصني دائماً الراحة النفسية... كنت دائماً أشعر أنني غريب، حتّى وأنا وسط أبناء أحوالي وخالاتي، كانوا يعاملونني بشيءٍ من الحذر والريبة، وأحياناً ببعض التجاهل المتعمّد... لستُ إيرانيّاً... والناس هناك كانوا يعاملونني على أنني «أجنبي». لكن لحسن حظي كنتُ على

اتصالٍ دائمٍ بعمِّي الذي كان يعمل ضابطاً في أمن المطار؛ فنجح في توفيرِ فرصة عمل جيدة في الخطوط الجوية النمساوية في مطار بغداد.

- وبالتالي تعلّمت اللُّغة الألمانية؟

- نعم... تعرفتُ على عائلة نمساوية مكوّنة من زوجين، كانا يعملان في تدريس اللُّغة الألمانية بجامعة بغداد، وكانا دائمي التردد بيننا وبغداد، عرّفتهما من مكتب الحجز في مطار بغداد، كنت أساعدهما في مسألة وزن الحقائب وتغيير مواعيد التذاكر... كانت حقائبهما مملوءة دائماً بالكتب والأوراق، توطدت الصلة تدريجياً، كانا ودودين إلى أقصى درجة... فطلبت منهما المساعدة في السفر للدراسة في النمسا، ويسّر الله لي الأمر...

- غريب... هل توجد أقسام لغات في جامعة بغداد؟

- طبعاً... سنة ١٩٥٩ تأسّس قسم اللُّغة الألمانية في جامعة بغداد كفرع من معهد اللغات العالي، وكان يتكون من عدد من الأساتذة الألمان والنمساويين، وفي سنة ١٩٦٢ تحول المعهد إلى كلية لغات مستقلة.

- وأنت يا يونس؟

- ليس لديّ الكثير لأحكيه يا صاحبي... أبي مهندس بترول على المعاش يقيم وحده في القاهرة، وقد توفيت أمي في سبتمبر من العام الماضي... سعيثُ دائماً للرحيل عن مصر ونسيان كل شيء.

- الله يرحمها يا أخي... عندك أصدقاء هنا يا يونس؟

- والله أول صديقٍ كان شاباً نمساوياً يعملُ معاونَ خدمة في كنيسة إنجيلية في «جراتس».

- وماذا صار معه؟ قصدي كيف بدأتما الصداقة؟

- والله لم تكن صداقة... كانت تجارة مع الله...

- هل تتاجرُ في الكتب المقدسة يا صاحبي؟

- لا... لا... طلبتُ مني شيئاً... فطلبتُ منه أن يدرّس لي اللكنة النمساوية كلَّ أسبوع مرة أو مرتين... مجرد دردشة وأحاديث عابرة للتعامل مع الناس بسلاسة.

- لكن أنت لغتك الألمانية قوية... حديثك مع د. فالتر أول يوم كان يشير إلى ذلك، هل تعلّمت الألمانية في مصر؟

- كنت أسافرُ إلى خالي في هامبورج كل سنةٍ في إجازة الصيف لمدة ثلاثة شهور... وَعَلَى مدار أربع سنوات طَوَّرت نفسي... ثم سارت الأمور.

تكررتُ اللقاءاتُ بعدها، وتوطدتُ الصداقة معَ لؤي، ثمَّ تحولت إلى أخوةٍ، وصار لؤي صنوي الروحي. كان صوتُ لؤي الهادئ، وبساطته في الحديث يعيدان إلى نفسي شيئاً من الهدوء الداخلي؛ حاجةً نفسيةً إلى صديقٍ بسيط. وَكَانَتْ قواسمنا المشتركة باعثَ طمأنينةٍ قويًا بالنسبة لي؛ فكلانا من مواليد برج «العذراء»، وأنا لا أطمئن إلا إلى مواليد بُرجي السماوي، كلانا يراقبُ كثيرًا في الآخرين صفةَ الوفاء، نجبُ المشى مسافاتٍ طويلة، نقرأُ عنهم في غيرِ التخصص. والصفة الأهم عَلَى الإطلاق، كلانا كان من عشاق «عبد الوهاب البياتي».

في نهاية العام الأول وصلتني رسالة من سكرتيرة المعهد، تدعو مجموعةً من طلبة برنامج الماجستير والدكتوراه إلى نزهة خلوية إلى منطقة بحيرة Grundlsee، وهي بقعة طبيعية تقع في منطقة Styria، وتبعد حوالي أربع ساعات بالقطار عن مدينة جراتس. في صباح يوم الأحد، أفلني القطار السريع بصحبة لؤي، لم أشعرُ بمدة الرحلة وأنا أتأمل الغابات الشجرية الكثيفة واللون الأخضر الذي كان يغطي كل بقعة يقع عليها بصري، كان كل مشهد يمرُّ عليه نظري يحو شيئاً ويثبتُ آخر.

هبطنا من القطار وسرنا قرابة مائة متر ناحية الشرق. كَانَتْ «سابينا كريمز» قَدْ سبقتنا معَ صديقها. كَانَتْ «جنة عدن في انتظارنا؛ سماءٌ مثل قبة سماوية هائلة تحتضن البحيرة الزرقاء، تتوسطها غاباتٌ شجرية كثيفة. عَلَى ضفتي البحيرة، تراصَّ عددٌ من البيوت الخشبية القديمة المتناثرة؛ تخيلتُ أن في كل منزلٍ رجل وامرأة وحكايات لا تنتهي. بالقرب منَّا جلستُ شابة مملوءة القوام فوق مكعب أسمنتي ضخم. كَانَتْ تُلقي بفتات الخبز إلى أوزٍ أبيض سابح في ماء البحيرة إلى جوار فراخه الصغيرة، غيرَ مبالية برداذ خفيف من المطر كان يتساقط من أنٍ لآخر.

تشجعتُ حين رأيتُ الفتاة تُطعمُ الأوز، فاقتربتُ بخطوات حذرة من حافة البحيرة المنحدرة انحدارًا خفيفًا، مُثبِتًا قدمي إلى الأرض كي لا أفقد توازني. دنوتُ بوجهي من صفحة الماء الرائقة، فرأيتُ الحصى الصغير راقداً في القاع وتطوف حوله أسماكٌ صغيرة. رفعتُ رأسي نحو خلفية هذا المشهد، فرأيتُ من بعيد جبال «الألب» بقممها الثلجية الغائمة.

لم تمضِ بضعة دقائق حَتَّى توقفت سيارة Audi بيضاء، ترجَّلَ منها د. فالتر، مرتدياً قميصًا ذا ياقةٍ سماوية عريضة، فوقه بلوفر من الصوف البني، وبنطلون جينز أزرق. كان يمسك في يده حقيبته الجلدية، وتوجَّه نحونا بخطوات هادئة.

حَيَانًا تحية عامة، ثمَّ أشار إلى منزل خشبي مقام عَلَى ضفة البحيرة التي كنا نقف عليها، وَقَالَ إن الجامعة قَدْ حجزت هذا الكوخ لنا. «سوف أجلسُ هنا، يمكنكم اكتشاف المكان، أو التنزه حول

البحيرة، أو الجلوس والحديث... أنتم أحرار». واخترنا - لؤي وأنا - أن نكون من الأحرار وأن نجلس إلى دكتور فالتر.

جلس على مقعد قريب من سور الكوخ المطل على ضفة البحيرة مباشرة، ثم أخرج من حقيبة يده غليوناً فضياً وحشاه بلقافة من التبغ، وأشعلها دون أن يدخن منها، مكتفياً باستنشاق الدخان المتصاعد من فتحة الغليون.

- هذه الأماكن هي المحرّض الوحيد على الاستمرار في الحياة، نصيحة مني... إذا أراد أحدكم التخفف من حمل، أو الشروع في كتابة شيء، أو حتى تأليف مقطوعة موسيقية، هنا لا تبقى المادة؛ هنا يتجلى الجميل.

- صحيح... لكن أظن أن النمسا كلها، حتى مدينتها وشوارعها تمثل مصدراً للإلهام الفني، تكفي زيارة واحدة للأوبرا.

- لا أعرف إن كنت تقصد المتعة أم السكينة والسلام الداخلي يا يونس، إذا كنت تريد المتعة الفنية فليك باوبرا فيينا كما تقول، أو متحف الفنون... أما إن كنت تقصد السلام الداخلي والسكينة، فهناك عبارة لمتصوف يدعى «أبو سعيد بن أبي الخير» تقول: «الحق لا يوجد في العمران»، أنا شخصياً لم أعجب بكاتب أو شاعر أو مؤلف كتب عملاً إبداعياً دون القيام برحلة إلى «اللا عمران»، بل حتى المتصوفة المسلمين كانت حياتهم ارتحالاً وسياحة في اللا عمران.

- من تحديداً؟

- الكثيرون... «البسطامي»، «حافظ الشيرازي»، «سعدي»، «فخر الدين عراقي» وهو شاعر جبار لا يعرفه سوى قليلين للأسف حتى اليوم، «سنائي الغزنوي» و«فريد الدين العطار».

- وماذا عن مولانا جلال الدين الرومي؟ أعتقد أن الرومي هو أشهرهم، على الأقل لدينا في العالم العربي؟

- لم يكن «جلال الدين الرومي» شاعراً فحسب، كان منهج حياة، كان فناً حقيقياً ومذهباً قائماً بذاته، لا أعتقد أن الزمان سوف يأتي بمثله، لكنني أظن أن «الرومي» استهلك مادياً ومعنوياً، بصرف النظر عن قيمته الأدبية والشعرية.

- تقصد المبالغة في الاهتمام بتراث الرومي؟

- مؤكداً... انظر حولك... عشرات المؤلفات حول «مولانا جلال الرومي»، أفلام عن «رقص مولانا»، و«عبقرية مولانا»، و«أشعار مولانا»، و«حكايات مولانا»، و«غرائبية مولانا»، و«صداقات مولانا»، و«حياة مولانا»، و«موت مولانا». تحول الموضوع فجأة إلى «موضة»، لقد

«تشيأً» تراث جلال الدين الرومي... ربما تجد يوماً شركة سوني الأمريكية تنتج فيلماً عن قصة حياة مولانا... لقد تحوّل إلى سلعة مطلوبة يحاول الجميع أن يتكسب منها ويبيعها الناس من أجل المال، وهو ما أفقده «سيره وروعه»، هذه الأشياء يجب ألا تعرض على الملأ هكذا.

- ولكن هذا ليس ذنبه.

- هل تعلم يا يونس أن «مولانا» نفسه قد تنبأ أن هناك من سوف يسرق تراث العارفين ويتاجر به؟

- كيف؟

- هناك بيت في المثنوي يقول: «إن الرجل اللئيم يسرق لغة الدراويش ليتلو على البسطاء أسطورة منها، يخدعهم بها».

- عفواً د. فالتر... لكن البيت نفسه يقول العكس، يقول إن اللئيم يتلو أسطورة، أي إن كلام هؤلاء الدراويش غير حقيقي...

- الرومي يقول: «لغة الدراويش»، وليس حكمتهم... اللغة خداعة، والعارف لا يخدع.

- وهل خدعت يوماً في أحد منهم؟

- المخدوع هو الذي يجب أن يخدع... اترك الأمر لقلبك وسوف يرشدك.

«المخدوع هو الذي يجب أن يخدع»؛ فكرت؛ حلوة هذه العبارة. لكن الحياة حينما تقسو علينا لا نملك سوى أن نستسلم للخداع كي لا نسقط صرعى في الطريق، فالخداع حلوة وجميل مثل المخدر، سألته:

- وهل الخداع مطلوب؟

- طبيعي... الخداع خيط خفي من نسيج الحياة التي نعيشها؛ أن تخدع الدنيا يعني أن تدخل وتخرج إلى عس عنكبوت دون ملامسة خيوطه.

- جائز يا بروف... يمكن لإنسان خداع كل شيء إلا الألم.

- من قال هذا؟ بل حلوة اللعبة يكمن في خداع الألم... تقهره... تتلاعب به... تستدرجه إلى حافة الجبل وتلقى به إلى الهاوية بيدك، تمحو ذاكرتك القديمة، وتصنع واحدة جديدة، يمكنك خداع الألم عندما تلاعبه لعبة «خدعة المحار» التي يمارسها فقراء الهنود لإمتاع السائحين.

- خدعة المحار؟

- هَذِهِ لَعِبَةٌ سَحْرِيَّةٌ رَأَيْتَهَا فِي مومباي... تَشْبِهُ لَعِبَةَ «الثلاث ورقات»، عِبَارَةٌ عَنِ ثَلَاثِ مَحَارَاتٍ مَتَشَابِهَاتٍ، وَلَوْلَوْةٌ تُوضَعُ تَحْتَ إِحْدَاهُنَّ؛ فَيَحَاوِلُ اللَّاعِبُ المَخَادِعَ تَرْتِيبَ المَحَارَاتِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَةِ تَجْعَلُ النَّاسَ تُخَمِّنُ مَكَانَ اللُّوْلُوءَةِ، لَكِنْ أَغْلَبَ النَّاسُ يَفْشَلُونَ، مَارِسَ اللُّعْبَةَ نَفْسَهَا مَعَ الأَلَمِ... خَبِيُّ ذِكْرِيَاتِكَ فِي مَحَارَةٍ وَاجْعَلْ يَدُكَ خَفِيفَةً.

وَدَدْتُ لَوْ تَسَلَّلَ السُّمُّ إِلَى عِقَارِبِ السَّاعَةِ لِيَشِلَّ نَبِضَ الزَّمَنِ. هِيَ لَعِبَةٌ مَسْلِيَّةٌ؛ د. فَالْتَرِ يَحَاوِلُ إِخْبَارِي بِشَيْءٍ وَلَا يَرِيدُ الإِفْصَاحَ عَنْهُ، وَكَلِمَا جَرِيْتُ نَحْوَهُ لِأَمْسِكَ بِهِ، يَفَلَّتْ مِنِّي بِبِرَاعَةٍ؛ كَانِ يُتَّقَنُ «لَعِبَةَ المَحَارِ».

اقْتَرَبْتُ مِنَّا امْرَأَةً شَابَةً حَتَّى أَصْبَحْتُ خَلْفَ د. فَالْتَرِ مَبَاشِرَةً، كَانَتْ تَبْتَسِمُ وَكَأَنَّهَا تَعْرِفُنَا، أَلْقَتْ التَّحِيَّةَ فَالْتَقْتُ إِلَيْهَا د. فَالْتَرِ بَهْدِوَةٍ وَكَأَنَّهُ يَعْرِفُ بِمَجِيئِهَا مَسْبِقًا.

تَتَبَّهْتُ إِلَى أَنَّهَا الفَتَاةُ نَفْسُهَا الَّتِي كَانَتْ جَالِسَةً فَوْقَ المَكْعَبِ الأَسْمَنْتِيِّ عَلَى ضِفَةِ البَحِيرَةِ تُطْعِمُ الأَوْزَ، مَعْطَفِ الوُوتَرِ بِرُوفِ الأَصْفَرِ القَصِيرِ المَنْفُوحِ وَقِوَامِهَا المَسْتَدِيرِ النَّابِضِ، غَيْرَ أَنَّ صَدِيقَهَا لَمْ يَكُنْ مَعَهَا.

حِينَ اقْتَرَبْتُ، بَدَأَتْ مَلَاحِمَهَا تَبَيَّنَ. خَمَّنْتُ عَمَرَهَا... فِي أَوْسَاطِ الثَّلَاثِينِيَّاتِ؟

كَانَتْ أُمِيلُ إِلَى القَصْرِ مَعَ امْتِلَاءِ قِوَامِ، ذَاتِ مَلَاحِمِ إِيْطَالِيَّةٍ أَوْ يُونَانِيَّةٍ، بَدَأَ ذَلِكَ مِنْ لَوْنِ بَشْرَتِهَا المَازِجِ بَيْنَ الشَّقْرَةِ وَالخَمْرَةِ. ابْتَسَمَتْ بِوَجْهِهِ مَشْرِقٍ لِتَحِيَّتِنَا، ثُمَّ وَضَعَتْ كَفَهَا بِرَفَقٍ فَوْقَ كَتْفِ د. فَالْتَرِ، وَقَالَتْ:

- أَسْتَادِي... مَكَانَكَ المَفْضَّلُ... وَأَيْنَ سِوَاهُ يُمْكِنُنِي أَنْ أَجِدَكَ؟

- لَنْ أُخَمِّنَ يَا حَنَّا... أَكِيدُ سَابِيْنَا أَخْبَرْتُكَ.

- لَآ... اليَوْمَ هُوَ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ مِنْ نِوَفَمْبَرٍ... أَحْفَظُ الجَدُولَ.

كُنَّا نَنْتَظِرُ أَنْ يَعْرِفُنَا د. فَالْتَرِ بِهَا، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، فَتَطَوَّعَتْ هِيَ بِتَقْدِيمِ نَفْسِهَا، وَقَالَتْ:

- اسْمِي حَنَّا لِأَيْتَجِبُ... مَدْرَسَ مُسَاعِدٍ فِي قِيسِمِ الأَدَابِ الشَّرْقِيَّةِ.

بَادَرْتُ بِتَعْرِيفِ نَفْسِي وَكَذَلِكَ فَعَلَ لُؤْيِي، ثُمَّ زَمِيلَتُنَا التُّونِسِيَّةُ الَّتِي التَزَمْتُ الصَّمْتَ مِنْ جَدِيدٍ. تَخِيلْتُ أَنَّ د. فَالْتَرِ لَا يَأْبَهُ بِمَنْ يَأْتِي وَمَنْ يَتَحَدَّثُ.

كَانَ تَأَمُّلُهُ الشَّغُوفَ بِالبَحِيرَةِ وَطَبِيعَةَ يَطْغَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَكَأَنَّهُ اسْتَعْرَقَ فِي حِوَارٍ مَعَ دَائِرَةِ لَا نَرَاهَا مِنَ الأَصْدِقَاءِ السَّرِيِّينَ.

استمرّ اللقاء ساعتين، اكتفى خلالهما د. فالتر بشرب ماء فوار، قال إنه يُستخرج من بئر طبيعية قديمة، تقبع خلف تلك الغابة الشجرية الهائلة المطلة على البحيرة، بينما أكتفينا أنا ولوي بقهوة ألمانية مفلترة، وطلبت حناً كأساً من البيرة، جائتها في سطل عميق.

توافدت بشائر نسمات باردة تنقر شعيرات أذرنا بخفة فأثارت رعدة خفيفة، فاستأذن د. فالتر في الرحيل، ثم غادرنا وراءه.

أثناء العودة في القطار المتجه من Grundlsee، إلى جراتس، حدثني لوي عن تعرّفه إلى فتاة نمساوية من أصل مصري تدعي «كريمة أبو هندي»، وقال إنها تخرّجت في كلية الهندسة في جامعة جراتس، وأنها تؤدي تدريبها المهني في مكتب تصميمات هندسية في جراتس. أشار لوي إلى ما يشبه الإعجاب المتبادل... وعن لقاءات متقطعة... وأحلام مشتركة وطموحات، تجرأت وحدّته عن سارة... النمساوية العراقية، فقال لي: شو بنعمل تبادل وتوافق يا رفيقي... أنت تحب عراقية وأنا أحب مصرية؟ فأجبته:

- لست متأكدًا إن كان ذلك حبًا أم مجرد حاجة انفعالية إلى الشعور بالأمان أو الاستقرار النفسي.

- والله أنا لا أعرف يا صديقي... المتبني له بيت شعر جميل عن الحب بلا سبب:

إنَّ المَحَبَّةَ أمرٌها عجبُ

تُلْقَى عَلَيْكَ وَمَا لَهَا سَبَبُ

بِدُكْ تتهب يا يونس... والله لو لم يكن غير هذا الشعور لكفى.

سألته عن سرّ تقريب د. فالتر إلينا... هو بارون ابن بارون، ماذا عساه أن يفعل بنا؟ فقال لي إنه لم ير أي نوع من الخصوصية في علاقة د. فالتر بنا، إنه يعامل الجميع بهذه الطريقة اللطيفة...

لم يكن رد لوي عليّ مُتبعًا، فسألته مداعبًا ومستفزًا:

- لم أسألك يومًا ما يا لوي عن شيءٍ وأعطيتني عنه جوابًا؟

- مثل شو يا رفيقي؟

- مثل شو؟ هل كنت أكلم نفسي؟

- لا صحيح... لا أفهم؟

- سألتك عن بيت شعر للبياتي، قرأته وأنا طالب في الجامعة، ولم أفهم معناه؛ لدرجة أنني كتبتَه على لوحة كرتون كبيرة وعَلقته على الحائط المواجهة لسريري... عسى أن يفيض المعني من قلب حلمٍ.

- البياتي بحر عميق يا يونس... ماذا كان يقول البيت؟

- «ضيعتني... ضيعك الوتر»؟ مَنْ كان يقصد ب«ضيعتني»؟ وَمَا «الوتر» الذي كان يعنيه «عبد الوهاب»؟

- مَعَ أَنَّكَ أنكرتَ أول يوم قابلتك فيه أنك درويش، أكيد أنت تعرف أن «البياتي» كَتَبَ شعراً عرفانياً... «الوتر» و«القيثارة» لهما تأويلات عديدة عنده، قَالَ مثلاً: «الله والقيثار في لهفتي، إليهما أوقدتُ نار الدليل»... أَظن - والله أعلم - أن «الوتر» والقيثارة» هُما إشارتان إلى الأغاني أو الموسيقى... وَهِيَ الدليل إلى درب المحبوب أو ربما إلى الله أو إلى المطلَق الإنساني، أَيضاً كلمة «ضيعتني» من الجائز أن نترجمها «هديتني»؛ لِأَنَّ الهداية عند العارفين هِيَ ضياع عند غيرهم... هل فهمت شيئاً؟

- ألم تقل عني يوماً إنني «درويش»؟

- لا والله منو أقصد شيئاً سيئاً، أعني أنك إذا أردت أن تقرأ البياتي في بُعدهِ العرفاني، اعتبر نفسك أنك تقرأ «حافظ الشيرازي» أو «سعدي»؛ ستجد البياتي مثلهما يستخدم أيضاً مفرداتٍ خاصة مثل «الخمير» و«الذوق» و«الشراب»، وغيرها، فالخمير ترتبط بالأنغام والموسيقى والحُب الإلهي... البياتي كان محيطاً يا رفيقي... قَالَ يوماً: «لم أجدُ الخلاص في الحب، ولكنني وجدتُ الله».

- يبدو أن اليوم هُوَ يوم الألغاز... أنا وأنت ود. فالتر... لكن لم ترد على سؤالي يا لؤي لماذا نحن تحديداً؟

- طيب، وَمَا علاقة البياتي بالبروفيسور فالتر يا يونس؟

- أحسُّ أَنَّهُ دوريشٌ على نحوٍ ما؛ درويشٌ لا يدعوك كي تكون مثله، لكن، هُوَ هكذا، مستوحداً في ذاته مشغولٌ بطريقه.

المشهد الثالث

فليتحدث مَنْ أَخَذَ، وليصمْتْ مَنْ أعطى

(الكيخوته-سيرفانتس)

- عَلَى فكرة... فيكتور هوجو جاءني أمس في المنام وطلب مني شيئاً.
- هل أنتما صديقان إلى هذه الدرجة؟ هوجو يطلب منك شيئاً؟
- طبعاً صديقان، وعندي أصدقاء كثيرون مثله؛ طلب مني أن أهديك قصيدة «جوته».
- جوته؟ ولماذا لم يطلب منك إهدائي شعره هُوَ شخصياً؟
- ربما لأنه يعرف أنني لا أتقن الفرنسية.
- كان من الممكن يقوله لك بالألمانية!
- لماذا تعسرّين الأمر عليّ يا سارة...؟ أفكرُ في هذه الحيلة منذُ يومين.
- وهل «هوجو» حكرٌ عليك وحدك؟ هوجو كان عندي بالأمس أيضاً، وسألني عنك؟
- وماذا قال لك؟
- خبرني أنت أولاً؟
- طلب مني هوجو أن أقرأ عليك قصيدة واحدة فقط...
- لا أحتاج قصيدة كاملة... كلمة واحدة صادقة تكفيني.
- قال جوته... أقصد طلب مني «هوجو» أن أتلو عليك أبيات «جوته» التالية:
قبل برهة تسلّلتُ خلف حبيبتني
وضممتُها بينَ ذراعيّ، فقالت:

«دعني، وإلا فإنني سأصرخ»

فهددتها متحديةً إيّاها:

«سأقتل من يجروء على إزعاج خلوتنا»

فهمست وهي توميء لي:

«صمتاً يا حبيبي، قد يسمعنا أحد»

كنت خرجت في هذا اليوم حاملاً دليلاً مبسّطاً حول تاريخ المدينة القديمة، والتي لم أكن قد زرتها من قبل - والمتمثلة في شارعها الرئيسي في وسط المدينة: (شارع Herrengasse السادة) الذي كان يقطن فيه في العصور الوسطى طبقة النبلاء والحاكمة والشخصيات الكبيرة، وشارع (Schmiedgasse الحدادين) وهو مجاور وموازٍ. وقد بات هذا الشارع الأصغر - على الأقل حسبما أحسست من روح الشارع - هو الأجل والأهدأ من شارع Herrengasse الذي يبدأ من مجلس المدينة بطرازه الأثري الفريد الواقع بين شارع الأسياد وشارع Sporgasse.

تلهيتُ بالسير في شوارع المدينة، حتى جاءت الساعة الثانية؛ موعدُ انتهائها من المحاضرات. لمحتُ سارة تهبطُ سلالمَ مبنى الكلية وهي تتحدث إلى زميلة شقراء، كان شعرها ملموماً إلى الخلف، بدتُ جذابةً في قرطبيها الفضيين الكبيرين الذين كانا يلمعان بشدة في ضوء الشمس.

مشيتُ بضع خطوات نحوها، حتى اقتربتُ ورأيتني... سلمتُ عليها وعلى صديقتها، فبادرتُ سارة بتعريفنا قائلةً: Marleen: Younes، ثم نظرتُ إلى صديقتها قائلةً: Younis: Marleen.....

سألته عن حالها، فابتسمتُ وقالت: «فيكتور هوجو» أيضاً هو الذي أتى بك إلى هنا؟ فأجبتُها: «لا... بل «ليلي مراد»... قلبي دليلي... لا أظنك تعرفينها، نظرتُ الفتاة إلينا وهي ترفع حاجبيها في دهشة ممزوجة بالسخرية، ثم قالت وهي تهزُّ رأسها يميناً وشمالاً: vserte gar kein Wort... !!Deutsch, Bitte، فأجبتُ الالثنيتين: هذا ألماني، لكن القلوب لها شفرة خاصة. نظرتُ سارة بخجلٍ إلى صديقتها، التي خبطت على كتفي وكتف سارة في الوقت نفسه، قائلةً سوف أذهب أنا... .Viel Spass

سيرنا في الطريق المؤدي إلى الشارع الرئيسي، دون أن نتبادل كلمةً واحدة، حتى وصلنا إلى مشارف Hauptplatz وهو الميدان الرئيس للبلدة، طالعنا أشهرَ تمثال وهو تمثال أرشيدوق النمسا يوهان، وأسفله نافورة سُميت باسمه، وتحولتُ إلى نقطة التقاء العاشقين والسواح.

أسفل تمثال الأرشيدوق، دَرَج رخامي ينتهي بحافة دائرية عريضة مصقولة مخصص للجلوس، فجلسنا أنا وسارة على الحافة.

بالقرب منا، تَرَبَّع رجلٌ عجوز ذو ملامح لاتينية، وبشرة خميرية وجلد مشقق. إلى جواره صندوقٌ خشبي مستطيل. أخرج العجوزُ آلةَ «فيولين» قديمة من صندوقه، وأخذَ نَفَسًا من نصف سِجَّارة بُنية متآكلة كَانَتْ تَرَقْدُ في هزال بَيْنَ أطراف أصابع يده اليمنى. وضعَ السِجَّارة شبه المنتهية على حَجَرٍ صغير إلى جواره، وبدأ يعزفُ ألحانَ فلانكو شهيرة، وَقَدْ رَقَدَتْ أَمَامَهُ قُبْعَةٌ مكسيكية مقلوبة، يجمعُ فيها ما يجودُ به المارة والمتفرجون.

كَانَتْ سارة تنظرُ إلى الأَرْضِ بعدما قرأتُ عَلَيْهَا قصيدة «جوته»؛ فرفَعَتْ رأسها وَهي تداري ابتسامة صامتة.

- هل ستقتل من يُزعجُ خلوتنا فعلاً مثل «جوته»؟

- لن يسمعنا أحدٌ... وأنتِ... ماذا طلب منك «هوجو» في الحُلْمِ؟

- طلب مِنِّي أن أخبركِ كلمة واحدة... «عندما تتحدثُ إلى امرأة أنصتِ إلى ما تقوله عيناها».

- وصلنتي الرسالة، تجربة الفيلم الصامت علمتني، سمعتُ ما أريدُ بقلبي يا سارة.

نهضنا من أسفل النافورة في اللحظة ذاتها، أمسكتُ بيدي، «تعالَ معي سوف أريك شيئاً لم تره من قبل».

انعطفنا شمالاً حتَّى دَخَلْنَا أحدَ الأزقة الضيقة في المدينة، فأشارتُ إلى ساحة تبعدُ بضعة أمتار، «هنا تَسْكُنُ الحكايات خلفَ إحدى الساعاتِ العملاقة التي ينتهي إليها الزقاق، اسمها ساحة دق الأجراس... تعالَ يا يونس».

مَشِينَا في الطريقِ على مهل. كَانَتْ سارة عطشى؛ لَمَحَتْ حوضاً من الورود إلى جوار نافورة ماء ذات نقوش قوطية مكتوب أسفلها أن ماءها مخلوطٌ بماءِ الفردوس؛ مددتُ كفي فشربتُ سارة حتَّى ارتويتُ.

أعجبنتي وردةٌ بيضاء تتوسطُ أمواجِ الورد؛ قطفتها برفقٍ وأهديتها سارة.

- لم قطفتها؟

- للعاشق مهمةٌ واحدةٌ في الدنيا... قطفِ الورد.

- حلوة طبعاً، ولكنني أفضلُ الوردَ الأحمر.

- بسيطة... قبلها وسوف تحمر فوراً.

- هذا أيضاً من كلام هوجو؟

- اسألي الوردة.

سرتُ إلى جوارها حتّى وصلنا ناحية لم أرها من قبل؛ قالت إنّها من أجمل ساحات غراتس، وأنّ عرضاً ساجراً يُقدّم في هذا المكان ثلاث مرات يومياً.

- ما أن تدق الساعة الحادية عشرة صباحاً والثالثة عصرًا والسادسة مساءً من كل يوم، حتّى تُطلّ من النافذة الزجاجية أعلى الدار دُميتان خشبيتان ترتديان الزيّ الشعبي الشتايماركي-نسبة إلى مقاطعة شتاير مارك؛ لتأدية رقصة ساحرة على أنغام موسيقى شعبية يعزفها عازفون مجهولون خلف الكواليس.

كان الصوتُ عاليًا، وصخبُ تصفيق الجمهور يحول دون أي حوارٍ، فاقترَب فم سارة من أذني ليهمس:

- هذا اللحن يتغير في العام أربع مرات، لكن روح الموسيقى والإيقاعات التي تصدر من هؤلاء العازفين خلف الستار لا تتغير.

- ولماذا يختفي العازفون؟

- كي يُخمن كلُّ مُستمعٍ ما يشاء.

انتابتي جراءة مماثلة؛ فقرّبتُ فمي من أذن سارة وسألتها:

- هل تعرفين أكثر ما أعجبنى؟

- ربما الرقصة الشعبية والموسيقى التي تتغير كلَّ عام وتبقى روحها؟

- لا... هؤلاء العازفون المجهولون؛ وهل هناك أجمل من أن يكون في حياتك شخص يهديك البهجة من خلف الستار؟

- ومن كان هذا الشخص في حياتك؟

- اسألي «هوجو»... ألا يأتيك كل يوم في الحلم؟

ديكور شرقي بامتياز، لوحات ومنمنمات ذات ملامح عربية دقيقة تغطي جدران الصالة، ذوق الأثاث غمرني بالدفع، لون السجاد الأحمر والستائر البنية منحني شعورًا بأن الجذور المدفونة في أعماق التربة متصلة بأوراق الزهور بحبل سري خفي لا يراه أحد، لكن آثارها بانئة، ولا يمكن طمسها.

كنت قلقًا. أخذت نفسًا عميقًا، ثم قرعت الجرس، ففتحت لي الباب مُدبِّرة منزل عجوز ذات ملامح سريلانكية أو فيتنامية، ففطنتُ على الفور إلى المستوى المادي الذي تعيش فيه سارة، أشارت بيدها أن أتبعها.

أتاح لي سيرتي وراءها ببطء في الممر الواسع المؤدي إلى الشرفة فرصة مشاهدة أثاث الشقة، كان الأثاث حديث الطراز. على اليمين غرفة مفتوحة الباب، لمحتُ بطرف عيني وأنا مارق عددًا من الأواني الزجاجية الملونة وآلة عودٍ قديمة، وجرامفون تنبعث منه موسيقى شرقية خفيفة.

دعتني مشرفة المنزل للجلوس وَقَالَتْ إن د. بكر سيأتي في غضون دقائق. جلستُ متأملًا الحديقة الواسعة التي تطل عليها الشرفة، اطمأنت قليلاً... من المؤكد أنهم اختاروا هذا المكان تحديداً لإشاعة جو من السكينة أو الطمأنينة... ربما.

بعد دقائق دخل والد سارة، د. بكر الطولاني، كان متوسط الطول، يرتدي نظارة طبية ذات إطار بلاستيك أسود، أميل إلى السمنة، أصلع الرأس إلا من شعيرات بيضاء قليلات تتفرق بين أنحاء رأسه الضخم. صافحني بودّ ثم دعاني إلى الجلوس وَقَالَ مبتسماً:

- أهلاً بك... حدثتني سارة عنك.

- أهلاً بك يا فندم.

- أول نصيحة لك يا أستاذ يونس ألا تسرف في الوعود فهي أصل الداء والبلاء.

- هذا ليس من طبيعتي في الأساس يا دكتور طولاني... وَقَدْ حكيتُ لسارة ظروفني بالكامل... أمامي قرابة سنتين للانتهاء من الماجستير... أعمل على الرسالة بجدّ، لدي عمل خاص في الترجمة التحريرية والشفهية في مؤتمرات بعض الأحزاب هنا في جراتس أحقق منه دخلاً جيداً..... لا يعوقني شيء... أريد خطبة «سارة»... وبعد عام على الأكثر يمكننا إتمام الزفاف...

- جميل... تعجبني الجدية والمباشرة في الحديث يا يونس... يبدو أنك عاشرت خواجهات كثيرًا.

- كنتُ أسافر في الصيف إلى خالي في هامبورج وتعاملت... تعلمت منهم قليلاً.

- في الواقع سارة حكت عنك كثيرًا... أنت تعلم نحن هنا في النمسا منذ أكثر من ثلاثين سنة، أنا وكيرستين زوجتي ربينا سارة على احترام التقاليد العربية... أنا عربي مسلم... وأمها نمساوية مسيحية، الحياة فرضت التأقلم مع الثقافة وأمها تفهم ذلك، لكني أريد إخبارك بشيء، سارة ابنتنا الوحيدة، وقد رزقنا بها بعد فترة من الزواج، ستأخذ «نور أعيننا» يا يونس...

- أنا متفهم لذلك، تعرفت إلى سارة منذ سبعة شهور تقريبًا... وأعتقد أننا متفاهمين في أشياء كثيرة... لا تقلق يا د. بكر، سنتنقل سارة من عين إلى أخرى.

سمعتُ وقع خطوات كعبٍ أنثويٍّ يقترب منا، حركت رأسي بهدوء لليسار، فلمحتُ «كيرستن»، والدة سارة. في منتصف الخمسينيات تقريبًا، طويلة القامة، ذات شعر أسود قصير تتخلله خصلات بيضاء، كانت ترتدي قميصًا كتانيًا أحمر اللون فوق بنطال أبيض واسع، وترزين عنقها قلادة ذهبية بسيطة، كانت ملامحها تشبه ملامح سارة إلى حدٍ كبيرٍ، أو ملامح سارة تشبه ملامحها إلى حدٍ كبيرٍ.

بدت لي من الوهلة الأولى قوية الشخصية، بالرغم من أن البسمة لم تفارق شفثيها أثناء اللقاء، حتى بعد أن قدمت إلينا القهوة.

كنتُ أرقبها بهدوء كما كانت ترقبني. تتأملني، تختبر حركاتي وسكناتي؛ لم ألتفت للأمر، فهذا حقها وهذه ابنتها الوحيدة. بادرتني بالسؤال:

- علمت من سارة أن والدتك متوفاة يا يونس، لكن والدك ما يزال على قيد الحياة.

- صحيح فراو كيرستين، تقاعد أبي منذ بضع سنوات ويعيش ما بين منزلنا في القاهرة، ومنزله الريفي.

- locker... locker... خذ حريتك في الحديث... أنا لا أكل أحدًا... هل أنت على تواصل دائم مع والدك؟

- أكيد... لكن مشاغل الدراسة والعمل تمنعني بعض الأحيان.

- يعني قد ينقطع الاتصال مع والدك مثلًا... أسابيع أم أشهر؟

- في أسوأ الظروف، لا يتجاوز الموضوع أسبوعين... ولكن هل لهذا الموضوع أهمية بالنسبة لك...
?Frau Kerstin

- طبيعي... هذا مهم بالنسبة لي، وأتمنى أن تقدر مشاعري، أنا أم لا أملك سوى «سارة»، افهمني، لا أقصد التحقيق معك... لكن هذا شيء حيوي بالنسبة لأي أم تجود بزهرة عمرها... علاقتك بوالدك تكشف لي أشياء عديدة.

كان حديث والدة سارة أشبه بتحقيق ودي؛ تماكنت أعصابي ولم أحول بصري إلى الأرض، أو أتشغل بساعتي أو ضبط نظرتي كما قد يفعل أي شخصي. طال صمتي، فقالت:

- أتمنى أن تتفهم موقفي؛ لم ننجب سوى «سارة»، هي زهرة عمرنا، لم يتدخل أحد يوماً في اختياراتها، سواء الدراسة أو حتى الهواية، وبالطبع في اختيار شريك حياتها، الأهم هو التواصل والتفاهم يا يونس... أتمنى من كل قلبي أن تنجحاً معاً، وأتمنى أيضاً أن تتفهم احتياجي لفترة كي أتعرف عليك.

- أنا متفهم لذلك تماماً، لكن دعيني أقول شيئاً؛ لكل شيء في الدنيا فترة اختبار إلا الحب؛ الحب عندي اختبار دائم، ولكنه ليس اختباراً للمحب للمحوب، وإنما اختباراً للحياة لصلابة هذا الحب وقدرته على مواجهة الحياة ومصاعبها، الحب كلمة تتحول إلى فعل في كل فعل.

- حذرتني سارة منك يا يونس... قالت إنك تجيد الكلام، وتعرف كيف تنفذ إلى قلب متحدثك بعبارة أو كلمة.

- سيدتي... في البدء كانت الكلمة وفي النهاية أيضاً... بالمناسبة، حكيت لي «سارة» أن حضرتك طاهية ماهرة وأنها تعلمت منك الكثير.

- «سارة» ماهرة في كل شيء، مثلاً في إعداد الأطباق النمساوية، شريحة فينر، والحلويات أيضاً مثل Kaiserschmarren، Knödel، Sachertorte ، وهي عبارة عن فطيرة مليئة بالبطاطس والأعشاب والنعناع مع صلصة الزبدة.

بعد هذه الوصفات العجيبة، تأكدت أن حماة المستقبل قد ارتخت عضلات عقلها قليلاً، فقررت دعم الموقف لصالحه. نهضت من مقعدي وتوجهت إليها، بأسطاً كفي للمصافحة من جديد، فوجدتها تبادلني الابتسام وتمد يدها وتشد على كفي وهي تبتمس. صحيح... كل الأشياء الصلبة تذوب في الهواء.

مضت دقائق حتى أطلقت سارة من غرفة الصالون، فازدادت الشموع واحدة. جلست إلى جوار أبيها الذي كان مشغولاً بالبحث عن قذاحة السجائر الضائعة.

نظرت إلى عيني نظرة مباشرة، بعثت برسالة صامتة، تعودت على رسائلها الصامتة، أجبته رسالتها الصامتة بأخرى: ومن سواكي؟

في الثلاثاء التالي اجتمع بنا د. فالتر في غابة Wiender Wald المُطلة على نهر المور لمناقشة البروفات النهائية لمنهج البحث تمهيداً لتقديم الخُطة الأولى لرسالة الماجستير.

ذهبتُ وعرضَ كُلُّ منا ما عرضَ. بدأ د. فالتر يتحدث باهتمام عن شخصية لم أكن قد سمعتُ عنها من قبل؛ الأب أنستاس ماري الكرملّي. قالَ إنهُ وضع كتاباً مهمّاً للمهتمين بالمرآد الصوفية في العراق والطقوس الشعبية، اسمه «مزارات بغداد» وأسهبَ فيه عن طقوس البغداديين في زيارات مقامات أولياء الله... الإمام أبي حنيفة النعمان، الغوث عبد القادر الجيلاني، شيخ الطريقة الجنيد البغدادي، معروف الكرخي، وغيرهم.

كان يتساءل لماذا كتب الأب الكرملّي هذا المخطوطَ باللغة العامية الشعبية العراقية، وليس باللغة العربية الفصحى وهو من هو في اللغة العربية حتى أنه قدّم تضحيات كثيرة مقابل دفاعه عن اللغة العربية الفصحى؟!

بعد انتهائنا، دُعينا - لؤي وأنا- إلى تناول القهوة في كوخه المفضّل على نهر المور.

- يبدو أنك مغرّم بالأب الكرملّي يا أستاذنا؟

- وما أدراك ما الكرملّي يا لؤي، لقد دوّخني الأب الكرملّي. أبحثُ منذُ أربعين عاماً عن كتاب طُبِعَ تحت رعايته عام ١٩٢٢ داخل دير الآباء الكرمليين في بغداد... الكتابُ فردٌ مفقود من عائلتي.

أجابه لؤي بنبرة العارف:

- ربما لم تبحثُ عنه في مكتبة «كاشف الغطاء العامة» في النجف، أو في مكتبة جامعة بغداد...

- أهذا كُلُّ ما تعرفه عن المكتبات في العراق؟ لقد سافرتُ وراءَ هذا الكتاب إلى بغدادَ عشرات المرات قبل الحرب، وسافرتُ إلى بيروت قرابة خمس مرات، وارتحلتُ إلى «تركيا» كثيراً، باحثاً عنه بسبب خبر، وفي مرة بسبب إشاعة من طالبة دكتوراه ألمانية أن نسخة من الكتاب في حوزة بائع كتب روماني هناك، بل إنني في إحدى المرات مكثتُ في إسطنبول أسبوعين كاملين أفتني أثرَ تاجر مخطوطات وكتبٍ قديمة، اتضح لي بعدها أنه «نصاب»... بالرغم من ذلك لا يزال لدي حدسٌ دائمٌ أنه لم يُحرق.

- يُحرق؟!

سألته وأبقيتُ فمي فاغراً لمدة ثوانٍ إلى أن نبّهني لؤي:

- نعم... لقد كان جدّي يعمل مستشاراً عسكرياً للسلطان العثماني، ولأُعرف - قالها ضاحكاً - كيف ربّطتُ بينه وبين الأب الكرملّي صداقة، كان الأب الكرملّي يملكُ خزانة تملأ خمسَ عُرفٍ من

الطابق الثاني في مبنى دير الآباء الكرمليين، وَقَدْ بَلَغَ مضمون ما حوته من كَتَبٍ قرابةَ عشرين ألفَ مجلد، لكن من المعروف أن العثمانيين أتلَّفوا عددًا هائلًا من الكتب، وكان الجنود العثمانيون الذين احتلوا ديرَ الآباء الكرمليين في عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى يأتون بالكتب فيحرقونها للتدفئة بنارها، ولكن بعض الكتب احتُفِظَ بها في الدير، وَمِنْهَا أجزاءٌ في مكتبة متحف الموصل، وبسبب مناداته بالعربية والإشادة بها، نفاه العثمانيون إلى «قيصري» في الأناضول من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٦ ثم أعيد إلى بغداد وَمِنْهَا رحل إلى أوروبا مرارًا، وجعلته حكومة العراق من أعضاء مجلس المعارف. كَمَا كان عضوًا في مجمع الشرقيات الألماني، وظلَّ محافظًا على ثوبه الرهباني حتى وفاته في بغداد في عام ١٩٤٧.

- غريب! وكيف يمكن أن تنشأ صداقة بين جنرال ألماني موالٍ للإمبراطورية العثمانية، وبين راهبٍ كان مُناهضًا لها؟ بل وتعرَّض للنفي وحرَّق كتبه كَمَا قلت؟

- هَذِهِ هِيَ عائلة فون دير هولتس يا يونس.

- ما اسمُ الكتاب؟ وكيف عرفت أن ثمة نسخة عليها إهداء إلى جدِّك وَأَنَّهُ لم يُحرق؟

- من مذكرات جدِّي شخصيًا، قَالَ إِنَّ العثمانيين أحرقوا كُلَّ نسخِ الكتاب - دون سبب معلوم - سوى نسخةٍ واحدةٍ مهمورة بإهداء من الأب أنستاس الكرملّي إلى المارشال فون دير هولتس الذي توسَّطَ لَهُ عند السلطان العثماني أثناء نفيه خارج العراق، وساعده في الإقامة في مكانٍ ملائمٍ في تركيا، ربما هُوَ الذي ساعده في السماح بالعودة إلى بغداد.

- تتحدَّثُ عن حكاية قادمة من «ألف ليلة وليلة»!!

- الكتاب عجيب فعلاً... اسمه «ذكر ما جرى ليونس السَّمَان مَعَ زهور البستان» لمتصوفٍ مصري مغموّر يُدعى «سناة الدين الأجهوري»، عاش في عهد الدولة المملوكية؛ كان زاهدًا، يعيش في خانقاه بالقرب من جبل المقطم، يروي في الكتاب حكايات وقصص عجيبة، ولم يكتب غيره.

- ولكنك د. فالتر، بجلالة قدرِك، يجذبُك كتاب حكايات لصوفي مغموّر؟

- فِيهِ مَا فِيهِ يا يونس، قَدْ يحدثُ يومًا أن تسمعَ حكايةً تَرَى فيها كُلَّ شَيْءٍ... ربما أروي لك حكاية من حكايات الكتاب يومًا ما.

- هل قرأتَ الكتاب قبل أن تراه د. فالتر؟

- حَلُمْتُ بِهِ... لا تشغل بالك، هل سمعتَ شيئًا عن هَذَا المتصوف المصري؟

- أول مرة أسمع عنه؟ هل مات في مصر؟

- أَحَبُّ أَنْ يَمُوتَ خَامِلَ الذِّكْرِ، وَدُفِنَ فِي قَرِافَةِ الْمُقَطَّمِ.

- طَبِيعِي د. فَالْتِر... «جبل المقطم» يَغصُّ بِقُبُورِ العارفين والزاهدين... قَبْرُ سُلْطَانِ العارفين «عمر بن الفارض» الَّذِي دُفِنَ بِالْقَرِافَةِ عِنْدَ سَفْحِ الْمُقَطَّمِ، وَقَبْرِ الصُوفِيِّ «ابن عطاء الله السكندري».

- زَرْتُهُ يَوْمًا.

- أَيَهُمَا؟

- مَرَقْدُ «ابن عطاء الله السكندري».

- رَائِعٌ... أَوَّلُ مَرَّةٍ تَقْصُ عَلَيْنَا مَوْضُوعَ زِيَارَتِكَ إِلَى مِصْرٍ.

- لَقَدْ زَرْتُ مَرِاقِدَ عارفين وأولياء فِي كُلِّ بِلْدَانِ العالَمِ، رَحَلْتُ إِلَى مِصْرٍ وَزَرْتُ مَرَقْدَ «أحمد بن عطاء الله السكندري» فِي سَفْحِ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ فِي القَاهِرَةِ، كَانَتْ المَرَّةَ الأُولَى زِيَارَةً سَرِيعَةً ضَمِنَ مَجْمُوعَةَ مَحَاضِرَاتِ أَلْفِينَهَا فِي جَامِعَةِ القَاهِرَةِ ١٩٧٣ بَدْعُوَّةٍ مِنْ د. عَبْدِ الغَفَارِ مَكَاوِي، أَذْكَرُ أَنَّنِي عِنْدَمَا زَرْتُ المَقَامَ وَجَدْتُ البَابَ الرِّئِيسِي مَغْلَقًا، فَانْحَرَفْتُ لِعَلِّي أَجِدُ بَابًا آخَرَ فَوَجَدْتُ طَرِيقًا مِسْدُودَةً، فَكَّرْتُ أَنَّ المَسْجِدَ رُبَّمَا يَكُونُ مَغْلَقًا بَعْدَ صَلَاةِ العَصْرِ. جَلَسْتُ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ مَعَ السَائِقِ الَّذِي أَقْلَنِي إِلَى المَسْجِدِ. شَعَرْتُ بِتَعَبٍ فَهَمَمْتُ بِالانْصِرَافِ. قَبْلَ انْصِرَافِي خَطَرَ لِي الدُّورَانُ مَرَّةً ثَانِيَةً حَوْلَ المَسْجِدِ عَسَى أَنْ أَجِدَ البَابَ مَفْتُوحًا وَقَدْ كَانَ. دَخَلْتُ المَقَامَ فَوَجَدْتُ سَقْفَ المَسْجِدِ وَحُلِيَّاتِهِ قَدْ نُفِثَتْ بِبَعْضِ حُكْمِ ابْنِ عَطَاءِ اللهِ.

أَزَاحَ كَرْسِيَهُ إِلَى الوَرَاءِ كَمَنْ يَرِيدُ القِيَامَ، لَكِنَّهُ بَقِيَ قَاعِدًا وَسَأَلَنِي:

- لَكِنْ لِمَاذَا أَنْتَ مَهْتَمٌّ بِمَرِاقِدِ العارفين وَالمُتَّصِفِينَ؟

- زَرْتُ مَرَّةً مَعَ أَبِي مَسْجِدَ السَيِّدَةِ نَفِيسَةَ فِي القَاهِرَةِ... بَعْدَهَا بَدَأْتُ عِلَاقَةَ الخِيَطِ بِالمَتَاهَةِ.

- وَاجِبْنَا الجَمِيلَ دَائِمًا يَا يُونُسَ تَخَيَّلْ أَنَّ الخُرُوجَ مِنَ المَتَاهَةِ يَبْدَأُ بِرُؤْيَةِ الخِيَطِ الَّذِي يُخْرِجُنَا مِنْهَا.

بَعْدَ العُودَةِ إِلَى المَنْزَلِ وَأثناءِ الطَّرِيقِ، بَقِيْتُ أَفْكَرَ فِي مَوْضُوعِ الكِتَابِ المَفْقُودِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْهُ فَالْتِر، ثَمَّ مَرَّ أَسْبُوعٌ لَمْ يَشْغَلْنِي فِيهِ سِوَى التَّفْكِيرِ فِي مِغَامَرَةِ سَادِجَةِ اللِّعْثُورِ عَلَى الكِتَابِ المَفْقُودِ، وَفِي الأَسْبُوعِ الثَّانِي شَغَلْتَنِي الجَامِعَةُ وَسَارَةُ حَتَّى نَسِيتُ المَوْضُوعَ بِرَمَّتِهِ.

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الجَامِعَةِ كُنْتُ أَمْرًا يَوْمِيًّا عَلَى مَكْتَبَةِ لِبَيْعِ الكُتُبِ القَدِيمَةِ. الحَقِيقَةُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَكْتَبَةً بِالمَعْنَى الحَرْفِي، وَإِنَّمَا كَشْكُ خَشْبِي يَتَحَرَّكُ عَلَى إِطَارَاتِ كَاوَتَشُوكِ، وَيَقَعُ فِي رُكْنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ مِنْ

مبنى المعهد.

كَانَتْ تديره سيدة في منتصف الخمسينيات تقريبًا اسمها «فاتيمة إيبادولا»، وَكَانَتْ تَقْفُ مُنْذُ سَاعَاتِ الصَّبَاحِ الْأُولَى لِتَبِيْعِ الْكُتُبِ الْقَدِيْمَةِ لِلطُّلُبَةِ وَالْأَسَاتِذَةِ وَالْبَاحِثِيْنَ.

كَانَتْ «فاتيمة» أَرْمَلَةً تَاجِرِ كُتُبٍ رُومَانِيٍّ اسْمُهُ «Sikin Ibadulla»، عَاشَ بَيْنَ بُوخَارِسْتِ وَإِسْطَنْبُولِ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فِي جَرَاتِسَ بِمَحْضِ الصَّدْفَةِ كَمَا حَكَتْ، تَجِبُ الثَّرَثْرَةَ مَعَ أَيِّ شَخْصٍ يَتَرَدَدُ عَلَى مَكْتَبَتِهَا وَيَتَصَفَّحُ الْعَنَاقِيْنَ. كَانَتْ فِي أَوَاخِرِ الْأَرْبَعِيْنِيَّاتِ تَقْرِيْبًا، تَمْشِي مُنْفَرَجَةً السَّاقِيْنَ مِثْلَ سَاعَةِ تَشْيِيرٍ إِلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ وَالثَّلْثِ، مِمْتَلِئَةً بِعُضْ شَيْءٍ، وَفَمُهَا مَشْغُولٌ دَائِمًا إِمَّا بِالطَّعَامِ أَوْ بِالسَّجَائِرِ.

فِي صَبَاحِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقَفْتُ أَنْصَفُ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ مَصْفُوفَةً بِعِنَايَةٍ فِي مَجْمُوعَةٍ مِنَ السَّلَالِ الْمَعْدِنِيَّةِ الْمَرْصُوصَةِ عَلَى الْأَرْضِ دَاخِلَ وَخَارِجِ الْكَشْكِ، وَكَانَ يَعْطُ كُلُّ سَلَّةٍ مَعْدِنِيَّةٍ وَرَقَةً كَرْتُونِيَّةً تَحْمَلُ فَنَّةَ السَّعْرِ.

سَأَلْتُهَا إِنْ كَانَ لَدِيْهَا كُتُبٌ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَأَخْبَرْتَنِي أَنَّ فِي حُودُثِهَا بِالْمَخْزَنِ مَجْمُوعَةٌ كُتُبٌ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ وَالْأُرْدِيَّةِ أَخَذَتْهَا عَنْ زَوْجِهَا، إِلَّا أَنَّ أَحَدًا لَا يَطْلُبُهَا مُنْذُ زَمَنِ، فَلَمْ تَعُدْ تَعْرِضُهَا. أَشْعَلَتْ سِيْجَارَةً مِنْ عِلْبَةٍ أَخْرَجَتْهَا مِنَ الْجَيْبِ الْخَفِيِّ لِلْبَنْطَلُونِ الْجِيْنِزِ وَقَالَتْ:

- هل تبحث عن شيء معين؟

- ممكن أطلع على قائمة بهذه الكتب؟

- عمّ تبحث تحديدًا؟

- كل شيء... لن يضر إن اطلعت على القائمة بأكملها.

- لم أحرر قائمة بالكتب... قل لي اسم الكتاب.

- كتاب قديم باللغة العربية طبع في عشرينيات القرن الماضي.

- لا مانع... كله بحسابه... أين ومتى طبع؟

- في العراق... دير الآباء الكرمليين... لكنّه عتيق طبع سنة ١٩٢٢.

- سحبت نفسًا من السيجارة ثم نفثته في وجهي بعم معوج وقالت:

- لا أظن... أقدّم الكتب التي أملكها تعود إلى الخمسينيات على أقصى تقدير

أشفتُ عَلَى نَفْسي وَأنا أتوسل إليها عندما نظرتُ إليها وكررتُ:

- سأدفع فيه ما تطلبين... سوف تقدمين لي خدمة العمر.

- ثانية واحدة.

انصرفتُ لتحاسيب زبوناً آخر كان يقلّب كتاباً منذُ ساعة. أطالت الحديث معه، فشكرتها بصوت مرتفع ومشيتُ. ثوانٍ ونادتُ بصوت مبحوح:

- أنت... إلى أي مدى تحتاجه؟

- مسألة حياة أو موت.

- إلى هذه الدرجة! انظر... كنت أعرفُ سيدةً كانت تعيش في العراق فترةً طويلة، تُدعى «أوديت مسكوني»، وكان زوجي Ibadula يأخذ منها كتباً قديمة، لم أكن أعرف إن كان يشتريها أم يأخذها هدية؛ لأنه لم يدونها أبداً في دفتر يوميات المحل ولا في الفواتير.

- عراقية نمساوية؟

- كل ما أعلمه أنّها أرملة ثرية هاجرت من العراق عام ١٩٩٩ إلى النمسا بصحبة ابنتها بعد زواجها من نمساوي كان يعمل في محطة كهرباء بغداد.

- هل تبيع الكتب مباشرة... أقصد أين محلها؟

- هي ليست بائعة كتب في الأساس... لكنّها تساعد «مُدمني الكتب النادرة»، وهي سيدة منطوية ومتحفظة إلى حدّ بعيد.

- ممكن أسأل من جديد... كيف أصل إليها؟

- إذا كنت منتظماً في زيارة الكنيسة الإنجيلية في جراتس، يمكنك أن تجدها هناك كل أحد... أنا أصلي هناك وتجمعنا صلة صداقة بالأب «مارتن هيل» راعي الكنيسة... قد أعرفك إليها، وأنت ومهارتك.

أيقظ اسم الأب «مارتن هيل» الأمل في قلبي للعثور على أي خيط قد يقودني إلى الكتاب. كانت قد انقضت سبعة أشهر منذ آخر مرة التقينا فيها داخل مكتب والده في الكنيسة، وشربنا القهوة، ثم تحدثنا قليلاً حول الإرهاب والسياسة وحوار الأديان وموضوعات أخرى لم أعد أتذكرها.

قادني ولعي القديم بالكتب المفقودة وكلام د. فالتر إلى الكنيسة. وبالصدفة، وجدتُ فيليب جالساً على مكتب أبيه يراجع بعض الأوراق على ضوء أباجورة خفيفة، وقد أشعل راديو صغير يبث موسيقى هادئة.

- أصبحت نمساوياً أصلياً يا «يونا».... بمجرد أن تعلمت اللكنة النمساوية ابتلعنك أرض جراتس.

- على فكرة إن كنت تقصد ما في ذهني، فعندنا في مصر نطلق على الشخص سريع البديهة «نمس» وهي قريبة النطق من «نمساوي» في اللغة العربية.

بدا عليه أنه لم يفهم شيئاً مما قلت؛ سألته عن صحة والده، فأخبرني أنه يلزم الفراش منذ أسبوع بسبب انزلاق قدمه وهو يسير فوق باركيه المكتب المبلل بالماء، فأصررت على زيارته للاطمئنان عليه.

كان «فيليب» قد أنهى عمله في الكنيسة، وبصدد التوجه للمنزل. سألته عن إمكانية زيارة أبيه فرحب. مررنا بمحل زهور عند ناصية الشارع، فطلبت منه الانتظار لشراء زهور.

- لا تتعب نفسك.... كما أنني لا أفضل فكرة الزهور يا يونس... نحن نشترها عادةً عند زيارة القبور.

- آسف... لم أقصد طبعاً... ما رأيك؟

- أبي يعشق قوالب الكيك بالبرتقال... إذا كنت مُصرّاً... يمكن شراء قالب كيك من Frisch .Bäckerei

حين وصلنا المنزل، أحسست أنني دخلت شقة صديق من أصدقاء أبي القدامى. كان البيت متواضع الأثاث، مفعماً برائحة القهوة. كانت الشقة مكونة من غرفتين فقط؛ واحدة للأب مارتن وزوجته، والثانية لفيليب، وفي كل ركن من أركان المنزل ثمة رفوف خشبية مكدسة بأكوام كتب تصل إلى سقف الشقة.

أذن لي الأب مارتن في الدخول فسلمت عليه. كان راقداً نصف رقدة على سريرته، قبّلت رأسه إمعاناً في إظهار المحبة، تهللت أسارير وجهه ودبّ النشاط فيه فجأة، عندما اقتربت رائحة قالب الكيك المخبوز منذ دقائق من أنفه.

سألني عن أحوال الجامعة والدراسة، فأخبرته بانقضاء الأيام بسرعة بين المحاضرات والمكتبة:

- المركب تسير... يعذبني كتابٌ أبحث عنه منذ فترة... رسالتي كلها متوقفة على العثور على ذلك الكتاب... لكن أحس أنني أطارد شبحاً في عقلي.

- كتاب؟ جراتس مليئة بالمكتبات القديمة... يمكنك العثور على أي شيء... كما أن مكتبة الكنيسة متاحة أيضًا لو أحببت البحث... أو حتى سافر «فيينا».

- المشكلة... أن الكتاب مطبوع باللغة العربية وقديم جدًا.

لم يسمع الأب «مارتن» عبارتي الأخيرة بسبب دخول والدته «فيليب» في اللحظة ذاتها حاملة فنجان قهوة فلتر. وضعت الفنجان أمامي على الطاولة المستديرة. ابتسمت خفية بعد أن خطرت لي حيلة رأيتها في فيلم قديم. قربت المقعد من سريره، ورفعت صوتي مكرراً الجملة:

- المشكلة أن الكتاب مطبوع باللغة العربية في العراق في دير للآباء الكرمليين وقديم جدًا.

صمت دقيقةً محدقًا إلى باب الغرفة يفكرُ فيما أقول:

- أعرف شخصًا ربما يمكنه المساعدة... سأرى...

- مَنْ؟ هه

- سيدة عربية تأتي للصلاة معنا يوم الأحد، هي عراقية الأصل، تمتلك مجموعةً صناديق تحوي كتبًا نادرة، هربت بها من العراق في أوائل سنة ١٩٩٩... سمعتُ منها ذات مرة موضوع «دير الآباء الكرمليين» هذا. أذكرُ أنها قالت إنها لم ترغب في رؤية موضوع العثمانيين وحرق الكتب من جديد يتكرر مع الأمريكيان، كان لديها حدسٌ بما سيحدث لبلدها في ٢٠٠٣... على العموم عندما أتعافى سوف نذهب إليها.

تمنيتُ في تلك اللحظة أن تكون قدمي هي التي كُسرت كي يذهب «يانتوس» إلى تلك المرأة ويسألها عن الكتاب. خرجتُ وأنا أدعو أن يتعافى بسرعة جدًا.

لمعتُ في ذهني عدة سيناريوهات للوصول إلى «أوديت مسكوني»؛ كان السيناريو الأول هو الاستعانة بصديق؛ فكرتُ في مصارحة لوي بما أنوي فعله، كي يصحبني إلى السيدة في الكنيسة، فهو عراقي ويستطيع استعطافها بشكل أو آخر، لكنني تنبهتُ إلى سذاجة الفكرة... هل لوي هو العراقي الوحيد الذي تعرفه في النمسا كي تجيب أي مطلبٍ له؟

أمّا السيناريو الثاني فكان طلب وساطة الأب «مارتن»، راعي الكنيسة التي تتردد إليها، فصلتُهما على ما يبدو طيبة، ولا أظنه سوف يتوانى عن مساعدتي، واستقر رأيي على سيناريو «فيكتور هوجو»... المبادرة.

كَانَتْ السَّاعَةُ الثَّامِنَةَ إِلَّا خَمْسَ دَقَائِقَ حِينَ اجْتَرَزْتُ بَوَابَ الْكَنِيسَةِ الَّتِي كَانَتْ مَمْتَلئةً نَسْبِيًّا بِالزَّائِرِينَ،
لَمَحَنِي الْأَبُ يَانْتُوسَ فَحْيَانِي بَابْتِسَامَةً، سَأَلْتُهُ:

- لَوْ وَقْتُكَ يَسْمَحُ مِمَّكَ تَعْرِفَنِي إِلَى السَّيِّدَةِ أُوْدَيْتِ ... هَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ الْيَوْمَ؟

- لِلْأَسْفِ ... لَمْ تَأْتِ الْيَوْمَ لِلصَّلَاةِ، لَا الْيَوْمَ وَلَا الْأَسَابِيعَ الْمَاضِيَةَ.

أُسْقِطُ فِي يَدِي، وَصَارَتْ جَمِيعُ السَّيْنَارِيُوهَاتِ الْمَرْسُومَةِ قَبْضَ الرِّيحِ، وَيَبْدُو أَنَّهُ شَعَرَ بِذَلِكَ مِنْ تَبَدُّلِ
مَلَامِحِ وَجْهِهِ، فَبَادَرَنِي:

- وَلَكِنِّي تَحَدَّثْتُ إِلَيْهَا تَلِفُونِيًّا عَنكَ وَعَنْ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ، وَحَدَدْتُ لَكَ مَوْعِدًا الْيَوْمَ فِي الرَّابِعَةِ
عَصْرًا فِي مَنْزِلِهَا.

دَوَّنتُ الْعُنْوَانَ بِقَلَمِي الْحَبْرِ عَلَيَّ كَفَّ يَدِي الْيُسْرَى، ثُمَّ أَدْرْتُ الْكَفَّ الْيُمْنَى لِأَرَى السَّاعَةَ. كَانَتْ
السَّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ الْوَاحِدَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ.

وَصَلْتُ الْمَنْزَلَ فِي الرَّابِعَةِ إِلَّا دَقِيقَةً، وَانْتظَرْتُ دَقِيقَةً كَامِلَةً أَمَامَ الْبَابِ حَتَّى تَزَامَنَ قَرْعُ جَرَسِ الْبَابِ
مَعَ دَقَاتِ سَاعَةِ الْمَنْزَلِ الَّتِي سَمِعْتُهَا مَدْوِيَةً مِنَ الدَّخْلِ.

كَانَتْ «هِيَ» مَنْ فَتَحَتْ الْبَابَ بِنَفْسِهَا وَجَعَلَتْهُ مَوَارِبًا؛ فِي الْبَدَايَةِ ظَنَنْتُ أَنِّي أَخْطَأْتُ الْعُنْوَانَ؛ لِأَنَّ
مَنْ فَتَحَتْ الْبَابَ كَانَتْ «مُهْرَةً نَقِيَّةَ الدَّمِ»، بِالرَّغْمِ مِنْ خَطُوطِ طَوَّلٍ وَعَرْضِ خَطِّ قَسَمَاتِ وَجْهِهَا،
فَوْشَتْ بَعْمُرَهَا الْفَعْلِيَّ. كَانَتْ تَرْتَدِي فَسْتَانًا أَبْيَضَ وَاسِعًا مَنْفُوشًا مِنَ الْأَسْفَلِ، وَمُطَرَّرًا بِحُلِيِّ فَخْمَةٍ
تُصْدِرُ صَوْتًا حِينَ تَتَحَرَّكُ.

- أَنْتَ يُونَسُ ... الْمَصْرِيُّ؟

- نَعَمْ يَا فَنْدَمُ ... أَعْتَدْتُ عَلَيَّ الْإِزْعَاجِ، الْأَبُ مَارْتِنُ هُوَ مَنْ حَدَدَ الْمَوْعِدَ فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَلَوْ كُنْتُ
أَعْرِفُ أَنَّهُ غَيْرُ مَنَاسِبٍ ل ...

- أَنَا مَنْ ضَرَبْتُ الْمَوْعِدَ ... مَرْحَبًا

تَبِعْتُهَا عَبْرَ طُرُقَةِ الْمَنْزَلِ الَّتِي كَانَتْ مِضَاءَةً بِشَمُوعِ حَمْرَاءَ تَفُوحِ بَرَائِحَةِ تَفَاحٍ ذَكِيَّةٍ.

دَعَنْتِي لِلْجُلُوسِ فِي حِجْرَةِ الصَّالُونَ الْمُطَلَّةِ عَلَى حَدِيقَةِ الْفَيْلَا. كَانَتْ الْجِدْرَانُ تَحْمِلُ صُورًا لِأَفْرَادِ
عَائِلَتِهَا، وَلُوحَاتٍ أُخْرَى.

إِلَى جِوَارٍ مَقْعَدِي، لَمَحْتُ صُورَةَ جَمَاعِيَّةٍ، تَضُمُّ طِفْلَةً جَالِسَةً عَلَيَّ جِجْرَ رَاهِبٍ طَوِيلِ اللَّحْيَةِ، وَإِلَى
جِوَارِهَا يَقِفُ رَجُلٌ طَوِيلٌ وَسَيِّدَةٌ تَرْتَدِي فَسْتَانًا أَسْوَدَ قَصِيرًا. جَلَسْتُ نِصْفَ جَلْسَةٍ فَوْقَ مَقْعَدٍ مَذْهَبٍ

ومغطى بفرشٍ وردي. كَانَتْ الغرفة التي جَلَسْنَا فيها واسعة؛ فيها كراسٍ أبنوسية، ومراة كبيرة، وبيانو ضخمة، وتمثال للسيدة العذراء.

تحت ضوء الأباجورة الهالوجين المبهّر، أنارَ وجهها مثلَ قنديل بحر متوهج، بينما سَبَحَتْ باقي الفيلا في ظلامٍ غامض لا تضيئه سوى مصابيح خفيفة معلقة فوق صور أفراد عائلتها.

كَانَتْ «أوديت» أقرب إلى نجومات سينما الخمسينيات؛ جمالٌ رُخَامِي مصقول مثل جمال «هدى سلطان» في شبابها. حول رسغها الأيسر، لمحتُ إطارًا من الشيفون الأسود ينتهي بفص بللوري متألئ.

- أخبرني الأب يانتوس أنك تبحث عن كتاب قديم، طُبِعَ في بغدادَ تحت رعاية الأب أنستاس الكرملّي... أوصاني بك... كيف علمت بوجوده من الأساس؟ وفيم تحتاجه؟

- في الحقيقة... أنا أقوم برسالة ماجستير في معهد الأدب تحت إشراف د. فالتر فون دير هولتس وأحتاج الكتاب في دراستي...

- هل تعرف شيئاً عن موضوعه؟

- آه... في الواقع... الكتاب نادر وقديم... وربما...

- وجهك مثل الزجاج يشقّ عما خلفه.

- وكيف عرفت؟

- قراءة الكتب تمنحنا عيناً سحرية ننظر من خلالها إلى القلوب.

أحسستُ بخجلٍ من نفسي؛ لستُ تلميذاً كي أضطرّ إلى الكذب، تراجعتُ للوراء حتّى لامستُ ظهرَ المقعد وفردتُ ظهري:

«سأصارك... أريد هذا الكتاب لأنّ أستاذي د. فالتر يبحث عنه منذُ نحو أربعين عاماً تقريباً ولم يعثر عليه، حدّثنا يوماً بشغفٍ وحنينٍ عنه، وعن ذكريات جدّه مع الكتاب ومع الأب الكرملّي؛ قال إن الأب الكرملّي أهدى ذلك الكتاب إلى جدّه شخصياً بعد أن توسط بإيعاز من أحد أساقفة الأرمن الكاثوليك لدى السلطان العثماني عام ١٩١٧ للعفو عنه، وتمكّن الكرملّي بعدها من العودة إلى بغداد، أكنُ حباً وتقديرًا لبروفيسور فالتر، وأريد العثورَ على الكتاب لإهدائه إيّاه... سبب إنساني محض... قدّ تصدقين وقدّ لا تصدقين كلامي... لكن هذا هو كل ما لديّ».

بينما كنتُ أتحدّثُ كَانَتْ «أوديت» تحدّق في وجهي مثل قطّ متأهب، مُحافِظَةً على ذلك البريق البرّي في نظرتها، قالت دون أن تطرف رمش عين:

- تمام... لكن أي كتاب قَدَّرَ لَهُ الخروج من خزانتي يجب أن يرقَدَ في سلام مَعَ من يحبهم ويحبونه، لقد عاشَ أبي صديقًا للأب ماري الكرملِي مُنذَ عشرينيات القرن الماضي حَتَّى نُفِي الأب الكرملِي إلى «قيصري» على يد العثمانيين؛ البرابرة عاملوه معاملَةً قاسية وساروا بِهِ في الشوارع والأزقة جاعلين مِنْهُ أضحوكة للأطفالِ وناقوا شعرَ لحيته، ثم صدرَ لَهُ أمرٌ إعدامٍ كاد يُنفَذُ، لَكِنَّهُ كان «أسدًا»؛ كان ابن الكنيسة المُخلص، الذي لم يتراجع يومًا عن إيمانه بأفكاره وإخلاصه للغة العربية، هل تعلم أنهم دمروا المكتبة وحرَقوا كُتُبًا كثيرةً ونادرة؟ كان والدي «أنطوان مسكوني» صديقًا للأب «الكرملِي» هُوَ وعائلة «الألوسي» بأكملها... علي الألوسي، ومحمود شكري الألوسي، وكان يحكي عن رؤيته لحرقِ دُررِ التراث العربي وَهُوَ يبكي، واستطاع جمع ما تيسر من المجلدات والكتيبِ النادرة ووزعها على أصدقائه من العرب والسريان والقساوسة في الكنائس المحيطة بنا من كلِّ الطوائف... لم يتوان أحدٌ منهم عن المساعدة في صون الكتب، وكان يحرر قائمة بأسماء الكتب التي يُودِعها أمانة لدى كلِّ منهم حَتَّى يستردّها في الوقت المناسب، وبعد وفاة أبي سنة ١٩٥٩ قمتُ أنا وأخي «جوزيف» بجمع كلِّ الكتب المودعة لديهم. وبعد ضربات الأمريكان للعراق في ديسمبر ١٩٩٨ أحسستُ أن سيناريو غزو العراق ثم حرقِ الكتب قد يتكررُ على يدِ العثمانيين الجدد، فاقترحتُ ابنتي «ليديا» الهجرةَ معها ومع زوجها النمساوي. هل تعلم كم ترك الأب الكرملِي؟ ستة آلاف كتاب وثلاثمائة وخمسة وثلاثين مخطوطًا نادرًا... هذا هُوَ ما تم إنقاذه من الحرق والنهب والسلب على يدِ العثمانيين، فما بالك بالباقي؟ بعض الجهلاء كانوا يتهمونه بالبخل، إلا أَنَّهُ كان يدخر المال لغرضٍ أسمى... استطاع تديبرَ آلافِ الكتب والمخطوطات والقيامَ برحلاتٍ إلى مصرَ ولبنانَ وفلسطينَ وسورياَ وأوروبا.

- وهل أحضرتِ كُلَّ هذه الكتب معك؟ أظنك تحتاجين مكتبة دير سانت كاترين لحفظها!

- جلبتُ معي الأعمال الأدبية والمجموعة الذهبية؟

- المجموعة الذهبية؟

- مجموعة من الخواطر والأبحاث دَوَّنَها بالعربية والفرنسية والتركية عندما كان في منفاه في «قيصري» كانت تحوي موضوعاتٍ صوفيةً وتاريخيةً: القلب والأبدال، فتك التُّرك بالأرمن، أمثال تركية وترجمتها.

- يبدو أنكِ فهرستِ الكتب جميعها.

- طبيعة عملي كأستاذ للتاريخ في جامعة بغداد جعلني شبه مُقيمةٍ داخلَ مكتبة أبي في بيتنا بشارع «السعدون»؛ ربما هيئة الكتب المكدسة هُوَ الذي دَفَعَنِي لدراسة التاريخ والتخصص فيها... بمناسبة سؤالك عن الفهرسة... بالطبع ليس كلها، لقد فهرستُ الأعمال الأدبية المكتوبة بالعربية فقط، أمَّا الكتب السريانية واللاتينية فتركتها عند آباء الكنائس من أصدقاء أبي. وعندما جئتُ إلى النمسا في يوليو ١٩٩٩ افتتحتُ مكتبةً لبيع الكتب القديمة وأسميتها «بجماليون»؛ وتعرفتُ هُنَاكَ إلى سيكين عباد الله زوج بائعة الكتب الرومانية التي دَلَّتْكَ عليّ...

- لقد تصورت أن اسمه Ibadulla... وليس عباد الله!

- من الطبيعي أن ترتبك؛ هُوَ في الأساس روماني مسلم من أصول تترية، كان يعيش في منطقة «طبروجا» جنوب شرق رومانيا، كَانَتْ هَذِهِ البقعة قطعة من بلغاريا في العصور الوسطى، ثم استولى عليها العثمانيون وظلت جزءًا من الدولة العثمانية مُنْذُ القرن الخامس عشر للميلاد وَحَتَّى القرن التاسع عشر... قَالَ لي «سيكين» إن هَذِهِ المنطقة تضم ٢٥ ألف تترٍ مسلمٍ، يعيشون بنفس تقاليد أسلافهم تيمور لك، وهو لآكو بنكهةٍ مسلمة...

- هَذِهِ ميزة أساتذة التاريخ... أي حوار يتحول إلى كبسولة تاريخية... طيب وهل أغلقت المكتبة؟

من قلب الظلام المحيط بنا، لمعتُ صينية فوقها إبريق شاي مفضض وفنجان شاي، وضعتها خادمة سميحة عَلَى الطاولة الأرابيسك أمانا؛ أشارت «أوديت» إلى فنجاني وَقَالَتْ:

- نَعَمْ أَغْلَقْتُهَا؛ لَسْتُ تاجِرَةً، وَخَجَلْتُ كَثِيرًا مِنْ كَوْنِ أَبِي وَأَصْدِقَاؤُهُ قَدْ نَاضَلُوا طَوَالَ حَيَاتِهِمْ لِلدِّفَاعِ عَنِ قَضِيَّةِ مَا، ثُمَّ أَتَحَوَّلُ إِلَى «كاشيرة» عَلَى مَاكِينَةٍ لِيَبِيعَ الْكُتُبَ... وَالْآنَ مَا اسْمُ الْكِتَابِ الَّذِي تَبْحَثُ عَنْهُ؟

- آه الْكِتَابُ... الْكِتَابُ اسْمُهُ... اسْمُهُ «ذِكْرُ مَا جَرَى لِيُونَسَ السَّمَّانِ مَعَ زَهْرٍ الْبِسْتَانِ»، لِشَهَابِ الدِّينِ الْأَجْهَوِيِّ الْمِصْرِيِّ.

- المكتبة صحيحٌ ملكي، لكنني لا أحفظ أسماء ستة آلاف كتاب... انتظر لحظات...

- هل سأرى بنفسِي المكتبة؟

- بهذه البساطة؟

أطرقتُ رأسي خَجَلًا، فاعتدلت السيدة أوديت في جلستها وَقَالَتْ:

- ولماذا تهتمُّ برويتها؟

- فضول ليس أكثر... عشتُ مَعَ الْكُتُبِ وَالْأَوْرَاقِ مَعْظَمَ حَيَاتِي.

- معظم حياتك! هه... كم عمرك؟

- ٢٦ سنة... ماذا؟ صغير؟

- لا أقصد، السن ليس معيار التجربة... ابنتي «ليديا» عمرها أيضًا ٢٦ سنة ومسئولة عن أربعة أطفال... عَلَى العموم لنترك موضوع تفقد المكتبة إلى يومٍ آخر... اتركها للظروف... لا أحد يعلم.

نادت خادمتها «سيسيل» وحادثتها بالفرنسية. لحظات وأحضرت «سيسيل» ورقة وقلماً فدوّنت اسم الكتاب الذي سألتني عن اسمه مجدداً، وطلبت مني المرور عليها يوم الأحد القادم في مثل هذا الوقت لأخذ الكتاب.

- أعلم أنه عندي... كل ما خطه الأب الكرملّي وأشرف على تحريره وإصداره في حوذتي.

- طبعاً هذا من فضلك وكرمك مدام «أوديت»... لكن هل تسمحين لي بسؤال؟

اكتفت بهز رأسها موافقةً.

- هل سأستعير الكتاب لفترة مؤقتة أم ستمنحنيه لي؟ الكتاب سوف يُهدى للبروفيسور فالتر، ولا يجوز استرداد الهدية.

- دعني أعيد صياغة السؤال... هل ستقول إنك أنت من عثرت على الكتاب بنفسك أم ستزُد الفضل إليّ؟

- أنتِ تقرئين الوجوه... لن أستطيع الكذب أمامك.

- الهدية لا تُسترد، لكن هناك مقابل... C'est la vie

- تفضلي...

- علمت من الأب «مارتن» أنك مقبل على خطبة أنسة نمساوية من أصل عراقي...

- صحيح!

- ضَعها في عينيك... هذا هوَ طلبِي...

- أتعرفين سارة الطولاني؟

- ضَعها في عينيك...

انشغلت «أوديت» بإشغال سيجارة عاشرة وهي تحكي عن زواج ابنتها من مهندس نمساوي شاب يمتلك مصنعاً للمولدات، وعن اختلاف الثقافات والطباع، «المرأة العراقية قادرة على تعليم البشر، كان دخان السجائر المتوالية يتصاعد بهدوء فيصنع ظلاً تحت ضوء المصباح القوي، قلت لها:

- مدام «أوديت» أنا لا أريد إزعاجك أكثر من ذلك، ولكنني سأخبرك بشيء قد تَرينهُ نوعاً من النفاق أو التملق وقد تَرينهُ كلاماً حقيقياً... عندما كنت في الثامنة من عمري كان أبي يصحني كل يوم أحد

يوم العطلة من مدرسة سان جورج في القاهرة- إلى سيده لا أذكرُ عنها شيئاً سوى أنّها كانت تسكن وحدها في فيلا قديمة في حي مصر الجديدة، بالقرب من ميدان الجامع... كل ما أذكره أنّها كانت تشبهك تماماً... عفواً يعني... في الفستان الأبيض الضخم... العرائس التي كانت تملأ كل مكان، كانت تُقبلني وتملأ جيوب ملابسي بالحلوى... علقت تلك السيدة في ذاكرتي، وكنتُ عندما أسألُ أبي عنها، كان يقول إنّها صاحبة الفضل الأكبر عليه في حياته ولكنّه لم يعطني تفاصيل. كل ما أذكره أنّ اسمها كان مدام «إكرام أبدير»، كانت تُحبنى لسبب لا أعلمه، ربما السبب ذاته الذي يجعلني أتذكرها اليوم وعمرى ٢٦ عاماً... والآن أنتِ صاحبة فضلٍ عليّ... هل تصدقيني؟

- ستتعلم كلما تقدمت في السن أنّ لا أحد يدين بالفضل لأحد؛ الحياة خطٌ مستدير، يومٌ لك ويومٌ عليك، تُعطيك الدنيا، ثمّ تباغتك بالأخذ حين تطمئن لها، ثمّ تأخذ منك لتعطيك حين لا تتوقع، وكلنا نقاط فوق الدائرة... أنتظرُك يوم الأحد لأخذ الكتاب.

- أشكرُك... ولكن هل ستخبرين د. فالتر أو زوجته أنكِ أنتِ من عثرتِ على الكتاب؟

- لستُ من هواة إسداء النصائح، لكنني سأعطيك نصيحة، ربما تكون أهم من الكتاب الذي أتيت من أجله... ليصمت من أعطى وليتحدث من أخذ.

- أنتِ كريمة جداً.

- ليس دائماً... علمتني عشرة الكتب القديمة التفرقة بين الأصلي والمزيف.

نهضتُ وودعتني بابتسامة ملكية، ثم أغلقت الباب. بقيتُ خمس دقائق واقفاً على الرصيف المقابل للفيلا التي تسكن فيها. مشيتُ قليلاً بمحاذاة السور ناحية الشمال متأملاً شكل الفيلا من الخارج، محاولاً تصوير مساحة المكان الذي يحوي آلاف الكتب والمخطوطات. لم تكن مساحة الفيلا واسعة على النحو الذي يسمح باستقبال هذا العدد الخرافي من الكتب والمخطوطات.

هل تمتلك قبواً حجرياً يسكنه الأقزام مثل الذي كان في منزل جدّي؟ أي أسرار تسكنُ معك يا «مسكوني»؟

على امتداد الشارع الطويل الذي سرتُ فيه عائداً للمنزل، كانت المصابيح تئن وسط ضباب كثيف، لتبث نوراً خافتاً قلل من شأن عتمة الليل. فتحتُ صدري وقلبي، فاقتحميتني أطياف عوالم قد ولت، مضيت في طريقي الذي كان مفروشا بأوراق خريف سبتمبر الذابلة، مُخلفاً ورائي عالم «مسكوني».

وانقضت أيام الأسبوع مثل أيام الخلق، استيقظت يوم الأحد الموعود مبكراً، وأمضيت يومي في القراءة وسماع الموسيقى.

لم تكن «أوديت» بالمنزل عندما وصلت؛ وكأنما أرادت ترك ذكرى اللقاء السابق بكرة لا تعكره كلمات شكرٍ مكررة. كانت قد وضعت الكتاب في صندوق هدايا أبيض وتركته لدى خادمة المنزل «سيسيل» التي أعطتني الصندوق من على الباب في حركة آلية وكأنها منومة مغناطيسيًا.

قبل مغادرتي طلبت من الخادمة ورقة بيضاء لأكتب كلمة لأوديت، جاءتني بالورقة فأخرجت قلمًا من جيب قميصي وكتبت: «... وعد الحُر دين عليه... وسأصمت أيضًا إذا أعطيت يومًا».

عبرت الشارع إلى الجانب المقابل وجلست فوق الرصيف، وفتحت العلبة متأملًا شكل الكتاب. كان الكتاب صغيرًا ذا غلاف أسود سميك، وكانت حوافه سليمة. عندما فتحته لاحظت أن الغلاف القديم البني قد قارب على الاهتراء تمامًا، وكان تسعين عامًا وأيدي عشرات البشر الذين تتاقفوه وربما قرأوه كانت تحفر في جداره، وتأخذ من كلماته:

«في ذكر ما جرى ليونس السَّمَّان مع زهور البستان»، لسناء الدين مُحَمَّد بن سليمان الأجهوري المصري، طبع في بغداد في ١٧ سبتمبر ١٩٢٢ برعاية الأب أنستاس ماري الكرملّي.»

فتحت الكتاب بسرعة، فوجدت إهداء الأب الكرملّي إلى المارشال فون دير هولتس، وقد كتب بقلم جبر باهت طال منه الزمن كثيرًا ولم يبق إلا على ظلال: «ذكرى إقامتكم الكريمة في بغداد ودينكم الذي يطوق عنقي».

جلست على الرصيف وبدأت القراءة:

«هُوَ سناء الدين مُحَمَّد بن سليمان الأجهوري المصري الشافعي (توفي سنة ٩١٠ هجرية). لم أف على ترجمة مفصلة عن حياته، فقد أهملته كتب التراجم، وله شعرٌ قليل غامض، توفي ودُفن في مغارة المقطم، وحكاية موته طريفة؛ فلما مات سناء الدين لم يترك درهمًا ولا دينارًا ليكفل نفقات دفنه، فاجتمع المجبُون عند سفح المقطم وعزموا على جمع المال لشراء الكفن. فذهب كل إلى بيته ليجلب ما تيسر، ولما رجَعوا وجدوا أمام الجثمان الملفوف بكفنٍ مخضّر، صرّتين مملوءتين بالفضة، فجهزوا الكفن ودفنوه في يوم قانظ الحرّ من أيام رمضان. ويُقال إن أسرابًا من السَّمَّان حلقت فوق الجنازة وأظلت عشرة آلاف من المحبين والمشيعين حتّى وصل الجثمان إلى مرقد الأسنى ومقامه الأَفنى، فدُفن قبل صلاة المغرب. وبقي النَّاس مُتَحَلِّقِينَ القبرَ يدعون ويضرعون حتّى نسوا أنهم صائمون.

يضمُّ دفتره الموسوم بـ «حكايات الحالم الوسنان في زهور البستان» قصصًا وحكايات أُوردها كما هي، ثم ألقى بأشعاره الغامضة، أُوردت في الكتاب الحكايات التالية:

1. في ذكر يونس السَّمَّان والبساط العجيب الذي أهداه له جده.

2. رحلة حول العالم، وهي رحلة لشخص مجهول دوّن فيها ما رآه في البلدان المسكونة التي ارتحل إليها، ولّا نعرف متى قام بهذه الرحلة ولّا متى انتهى منها لسقوط ورقة من أولها... وقد زار المؤلف فيها بلاد مصر وإسطنبول وبلاد الهند الشرقية وبلاد فارس، وزار فيها قبور العارفين والأولياء.

3. حكاية عن الأعجوبة الربانية «أبي الحسن الخرقاني».

ذهبت الكلمات بعقلي، لم أقلب باقي صفحات الكتاب... قبلته وأعدته داخل الصندوق. أثناء سيرتي في الطريق المطوّق بأشجار أكاسيا هائلة تكاد تمثل سياجاً طبيعياً يحيط بجانب الطريق، انشغلت بعبارة «مدام أوديت» الأخيرة... ليتحدث من أخذ، وليصمت من أعطى.

أنسني الكتاب أسبوعاً كاملاً بعد سفر د. فالتر في إجازة، لم أعرف أين أضعه وسط ركام القواميس والكتب التي كانت تملأ الحجرة. وضعته فوق حاجز النافذة الرخامي الذي يمتد إلى الداخل. أبقيت على الشباك مفتوحاً. هبت نسماّت خفيفة قلبت صفحات الكتاب حتى وصلت لصفحة محددة واستقرت عندها، خدرتني برودة الطقس. ولم أحلم سوى حلمًا واحدًا.

رأيتني أسير في منطقة المعمورة ليلاً وأسأل الواقفين عن مقرّ مصيف العاملين بالشركة المصرية الكندية للحفر والتنقيب، فأشاروا جميعاً إلى أنّها بالقرب من البحر اتجاه الشمال.

توقفت عند أحد الشاليهات. لمحت شرفة مضيئة في الطابق الأرضي، وترددت صدى أصوات أعرفها جيداً، ثم انسابت صوت عفاف راضي وهي تغني «قضينا الليالي... بندور عالغالي... وأدينا ماشيين»، من مذياح معلق في أحد أركان الشرفة.

طيف أمّ تجهز طعام العشاء لأب وولدين في شرفة الشالية... الولدان يتشاجران حول من يفرق أوراق الكوتشينة أولاً... ظل أب جالس على فوتيه ضخم وقد رفع قدميه الحافيتين فوق سور الشرفة.

بقيت مختبئاً وراء شجرة... سمعت النكات نفسها... القفشات نفسها... الحكايات نفسها. لم أر أحداً... أصوات وظلال فقط...

- أعتقد أنّها المرة الأخيرة التي سوف أتمكن فيها من السفر معك ومع الأولاد للإسكندرية.

- لماذا؟

- كنت مع أبي في مستشفى وادي النيل من يومين... يجب بدء جلسات الكيماوي فوراً.

- لماذا لم تخبريني بتطور الموضوع إلى كيماوي؟ آخر مرة ذهبنا للدكتور هشام الصواف أخبرنا أنّه حميد!

- لقد أتيت من السويس أمس يا سعيد... واليوم أول يوم مصيف مع الأولاد... لا أريد إفساد الإجازة.

- وهل هذا وقت مصيف!...؟ أنا معك... سوف أطلبُ نقلي لعمل إداري بالمكتب الرئيسي في القاهرة وسأكون إلى جوارك... حتى لو فقدت وظيفة البترول... لا يهم... أنتِ أهم.

- أنا قلقة على الوالدين... لا أعرف مصيرهما بعدي.

- بعد الشر... الله كريم... على العموم «يحيى» يريد السفر منذُ فترة... سوف أرسله إلى أخي إسماعيل في «نيو جيرسي» العام القادم... رتبتُ كل شيء...»

- والصغير؟

- يونس... أعلمُ أنه مُتعلقٌ بجدّه كثيراً وبشقة «كوبري القبة»... يُمكنك الإقامة مع حماي حتى أنتهي من إجراءات النقل أو حتى الاستقالة...

- لا أريدُ أن أعذبُ أحداً معي يا سعيد... أنا أعرف... المشوار طويل... والخبيث لا يرحم أحداً...

- عذابك هو عذابي... ولكني كنتُ أخيب تلميذ في المدرسة في التعبير.

خَرَجْتُ مِنْ وراء الشجرة واقتربتُ خطوتين من سلالم الشرفة؛ أردتُ الاختراق، لكن شيئاً أرعشني كناقوس تنبيهه فتوقفتُ. سمعتُ دويّ قطار يغادر محطته، ثمّ ما لبثتُ أن تداعى المشهد بأكمله؛ تلاشتُ الظلال وخفتتُ الأصوات وتبدد كل شيء مع هواء البحر الذي طاح بهم مع إطاحة أوراق ياسمين ذابلة كانت مُلقاة أمامي على الرمل، فهمتُ الرسالة. لم يخطر ببالي قط أنني سأفزعهم، كنتُ أفقدهم جميعاً.

انقلبتُ ورقة أخرى من الكتاب: لا يجوز إزعاجهم... هم نيام فإذا ماتوا استيقظوا... هل أيقظتهم أم أيقظتُ نفسي؟

تكرّر الحُلمُ نفسه سبع ليالٍ، وفي الليلة السادسة أبعثتُ الكتاب من فوق رأسي ووضعتُه في ركنٍ بعيدٍ أقصى يمين الغرفة، بل وأثقلتُ فوقه مجموعة من القواميس، فلم يعد يأتيني الحُلمُ.

تذكرتُ حكاية «لؤي» حول زيارته لشارع «المتنبي» في بغداد وشرائه نسخة عتيقة من «ألف ليلة وليلة» من تاجر كتب كردي عجوز يُدعى «حبيب هوشيار»، وكلامه عن الأحلام العجيبة التي راودته في شقة الطلبة في شارع «الفضل» ببغداد بمجرد شراء تلك النسخة. كان لؤي يقرأ «الليالي» قبل أن يخلد إلى النوم، ثم يضعه إلى جوار رأسه على الوسادة وينام، فإذا بات مشتاقاً لأمه في «سمنان»، يرى نفسه على بساط السندباد طائراً إلى حيثُ تقيم والدته فيراها ويرى جدّه وجدّته من بعيد فيطمئن ويعود.

وإذا اشتاق لأبيه الراحل، يرى أباه يصطحبه للغداء في أحد مطاعم السمك المسكوف في شارع «أبو نواس» على شاطئ دجلة، فيأكلان المسكوف ويحبسان باستكانة شاي مُعدَّ على الفحم، ثم يذهبان لشرب الساقع من مرطبات «الحج زبالة».

وفي ليلة نسي لؤي الكتاب فوق الطاولة التي يذاكرُ عليها في الصالة، فاستيقظ مفزوعاً بعد أن سمع أصواتاً عجيبة تنبعث من الصالة، وكأنَّ عائلة من الأشباح استأجرت المكان، رجال يرتدون جلابيب بيضاء قصيرة لا تكاد تبلغ الواحدة ركبة أحدهم... صوت صبيان يلعبون كرة قدم... أمهات يطبخن... وأطفال يبكون... عجوزٌ يقرأ الصحف بصوت عالٍ... حياة كاملة.

تكرر الأمر يومياً حتى اعتاد لؤي هذه الأصوات، إلا أنه لم يعرف كيف يشرح الأمر لعمه الذي كان يزوره أحياناً ويبيت معه. فقرر إعادة نسخة ألف ليلة وليلة إلى الكردي العجوز الذي كان يعلم - يقيناً - بما في الكتاب فاستردَّ بضاعته وهو يبتسم في خبث.

بعد انقضاء الأسبوع، وفور انتهاء محاضرات تاريخ الحضارة في الثانية ظهراً، مررت بمكتب د. فالتر، سألتُ سكرتيرة القسم «سابينا» إن كان جدول أعمال د. فالتر مزدحمًا اليوم أم يمكنني مقابلته؟ فنظرتُ إلى شاشة الكمبيوتر أمامها، وأخبرتني أنه حضر منذ ساعة في مكتبه، وأنه سينصرف في غضون دقائق، ثم اتصلت من تليفونها الأرضي لتسأله، وأخبرتني أنه يمكنني مقابلته سريعاً.

حينما دخلت الغرفة، كان د. فالتر جالساً وقد أدار الكرسي إلى اليسار ناحية النافذة المفتوحة على اتساعها، وقد ملأت أشعة الشمس الحجرة، وعبق زهور الياسمين يملأ المكان، كان يحدق إلى السماء وهو يدخل غليونه، ألقى التحية فأدار بصره ناحيتي وحياتي بابتسامة هادئة، وقال:

- Und... Wie geht es ?

- أشكرك... الأمور تسير بشكل جيد، عفواً ولكنني وجدت اليوم شيئاً قد يكون جديراً باهتمامك.

لم تبدُ على ملامح وجه د. فالتر أي بادرة اهتمام، فاستمر في تدخين غليونه وهو يهز رأسه، وكأنه يحثني على الإسراع فيما جئتُ إليه.

ابتسمتُ خجلاً وأخرجتُ الكتاب من حقيبتي، ثم مددتُ يدي ووضعتُه فوق سطح المكتب أمام بصر د. فالتر تماماً.

- هذا الكتاب عليه إهداء لأحد من أفراد أسرتك... المارشال فون دير هولتس، أضمن أنه جدك الذي أشرتُ إليه يوماً.

أشَرَقْتُ عيناه ببريقٍ صافٍ قبلَ أن ينخلعَ مِن مقعده. وضعَ نظارته باضطرابَ على طاولة المكتب وأمسك بالكتاب. مرَّ بأنامله على سطح الكتاب وكأنه يقرأ العنوان بطريقة «براييل». تصورتُ أَنَّهُ يبحث عن الإهداء الذي حدَّثنا عنه، إلا أَنَّهُ أخذَ يقلبُ صفحات الكتاب بسرعةٍ كأنَّما يُفتش عن صفحةٍ بعينها.

توقَّفت فجأة عند إحدى الصفحات وسحبَ نظارته من فوق سطح المكتب، وراحَ يقرأ، وفمهُ يفتُر عن ابتسامةٍ خفيفة. مضت دقيقتان حتَّى انتهى من قراءة ما كان يبحث عنه.

- هذا الحفيد المخطوف مُنذ عقود... مستحيل... أين عثرتَ عليه؟ لقد قلبتُ الدنيا رأسًا على عقبٍ.

- هوَ الَّذي عثَرَ عليّ... يُقال إنَّ ما تبحثُ عنه يبحثُ عنك.

لاحتُ من فمه ابتسامة عريضة، ثمَّ هزَّ رأسه يمينًا ويسارًا على طريقة الخواجات في تعجبٍ:

- لا أصدق... أنت الوحيد الَّذي أمكنه العثور على هذه النسخة، زُرتُ بغدادَ قبل الحرب مُنذ ثلاث سنوات، وفتشتُ عنه كثيرًا في دير الآباء الكرمليين، ومكتبة الموصل، ومكتبة بغداد العامة، والمجمع العلمي العراقي، ومكتبة كاشف الغطاء، ومكتبة د. سامي حداد في بيروت، ومكتبات دمشق وإسطنبول... ولم أعثُر عليه... أين وجدته؟

- أولاً أنا مسرور جدًّا يا دكتور أنني جلبت لك شيئًا عزيزًا عليك... صدفة... كان يرقد على بُعد أمتارٍ من هنا، لن تصدق الحكاية إذا رويتها لك... سهمٌ قادني إلى سهمٍ ثم إلى أحلام.

ارتمتي على مقعده. وضعَ نظارته فوق أنفه، واحتضنَ الكتاب، ثم أخذَ نفسًا عميقًا وقالَ:

- آآه... لن أتعلّم أبدًا مهما طال بي العمر، عادةً ما تُكون الأشياء التي نبحث عنها، بل نساfer ونشقى للوصول إليها قريبةً منا ولا نشعر... ينقصنا العمى لنرى.

- لكن... ما موضوع هذا الكتاب يا بروف؟ في الحقيقة لم أتفحص الكتاب جيدًا.

- لم تتصفح الكتاب! وماذا كنت تفعل بالكتاب؟

- اكتفيت بالأحلام.

لا أعلم حقيقةً إن كان سمع كلامي أم لا؛ اتَّصلَ بسكرتيرته التي حضرتُ بعد دقيقة فناولها الكتاب ويده لا تريد مفارقتها، وطلبَ منها صنعَ نسخة مصورة وتجليده بشكل لائق. أخذتُ «سابينا» الكتاب دون تعليق مثل ماكينة صرَّاف آلي تفعل ما تؤمر، «سوف أرسل لك نسختك قريبًا».

بدأ يلملمُ أوراقه ويضعها داخلَ حقيبته الجلدية الصغيرة، ففهمتُ أنه يريدُ اللحاق بموعده الذي أشارت إليه السكرتيرة قبل دخولي.

حينَ خرجتُ من مكتبه تأكدتُ أنّ د. فالتر كان أكثر راديكالية في إيمانه بالخيال أكثر مما تصورتُ. كان شبيهاً بالدون كيخوته، يقرأ الكتب كالمنوم مغناطيسياً لكي يعيشها. يبدو أنه كان يتخيل نفسه شخصية روائية في حكاية كبرى. كانت الكلمات المطبوعة عالمه الخاص.

يبدو أنّ الهدايا تُفتتُ الصخور وتخرق الحوائط العالية، أدركتُ بعد انتهاء المقابلة أن عثوري على هذا الكتاب العجيب قد يصبح المفتاح الأول لفتح بوابات ذلك العالم الغامض... عالم الدون الهادي د. فالتر.

المشهد الرابع

مَنْ طَلَبَ الطَّرِيقَ بِلا دَلِيلِ إلهِيّ، لَقَدْ طَلَبَ المَحَالَ

(محيي الدين بن عربي)

كَانَتْ عَلاقتنا مِثْلَ عَلاقةِ مَسافِرِينَ يَجْلِسَانِ مُتقابلينَ فِي قِطارٍ يَمضي سَريعاً؛ عَلاقةٌ غامضةٌ؛ كِلانا مَجهولٌ مِنَ قِبلِ صاحِبِهِ، يَريدُ أَنْ يَبوَحَ بِما عِندَهُ، وَلَكنَّهُ لا يَتَقَ بِرَفيقِ سَفرِهِ.

أَياماً كَنتُ أَفردُ البِساطَ أمامي، فأرى الصُورَ نَفسَها الَّتِي أرَتني أُمِّي إِيَّاهَا، مَشفَرةٌ لا تَبوَحُ بِشَيءٍ، فأغضبُ مِنْهُ عَلَيهِ وَأَتركَه وَحيداً مَطوياً دَاخلَ حَقيبَةِ سَفرِي. وَأَياماً أُخرى أَشعُرُ بِرَغبِهِ البِساطِ نَفسَهُ فِي أَنْ يَهتَكَ غِلالَةَ الغَموضِ الرَقيقةِ الَّتِي يَلِفُ بِها نَفسَهُ. لَكنني لَم أَعرِفُ قِيمَةَ البِساطِ حَتَّى زَرْتُ مَنازِلَ «الخِواجِة».

لَم نَكنْ قَدْ زُرنا مَنازِلَ دِ. فَالترَ قَبلَ ذَلِكَ، اننَظرنا أَوْ بالأحرى أَمَلنا دَعوَتَهُ، إِلاَّ أَنَّ الدَعوةَ جَاءتْ فِي تَوَقِيتٍ لَم نَكنْ نَتَوَقَّعُهُ، كانَ ذَلِكَ فِي نَهايةِ العَامِ الثالِثِ مِنَ بَدءِ بَرنامِجِ المَاجِستيرِ، وَكنا فِي بَدايةِ الأَسبوعِ الأَخيرِ مِنَ شَهرِ دِيسَمبِرِ، وَأجراسِ «أعيادِ المِيلادِ» تَقرُغُ الأَبوابَ... الشِوارِعَ تَترَزينَ، وَمراكزِ التَسوقِ والمَقاهايِ تَتهَيأُ لِاستِقبالِ Weihnachten، والبِشَرِ أَيضاً، تَقرِيباً مَعَظَمِ الأَسانِذَةِ وَالعامِلينَ بِالجَامِعةِ بَدَوا عَطَلاتِهِم قَبلَ «عَيدِ المِيلادِ» بِأَسبوعٍ، وَأَجَلَّتِ الحِياةُ وَمَنْ يَحِيونَها إِلى ما بَعدَ العَيدِ. لَمَن كَانتْ تَقرُغُ أَجراسَهُ؟ كانَ لَوْنُ الطَلاءِ الأَبيضِ الَّذِي يَحَرسُ عَلَيَ تَجدِيدِهِ كَلَّ عامِلينَ تَقرِيباً كَما سَمِعْتُ. يُعَطي انطِباعاً بِدخولِ كَنِيسةٍ أَوْ مُتحَفٍ تَاريخي.

اجتَرنَا البِوابَةَ الفَخيمةَ، فَاستَقبلتُنا نِوافِذُ المَنازِلِ المَطعمَةِ بِالزِجاجِ المَنقوشِ وَالْمَزينَةِ بِرِسومِ طَيورِ وَحِيواناتِ، تَحنَقي وَراءَها سَنائرُ زَهريةٌ ظَننتُها لا تُفَتَحُ أبَداً.

لا، بَلْ كَانتْ تُفَتَحُ يَومَ الأَحدِ فِي تَمامِ التَاسِعةِ صَباحاً؛ كانَ يُطلُّ مِنْها مِثْلُ حَبِرِ الفاتِكانِ الَّذِي يَفَتَحُ شَرفَتَهُ المَقدِسةَ يَومَ الأَحدِ، كِى يَلقي التَحياتِ وَالبِركاتِ.

كانَ المَنازِلُ مُكوَّناً مِنَ طابِقينَ؛ الأَولُ عِبارَةٌ عَن صالَةِ واسِعةٍ مَقسَمةٍ إِلى قِسمينَ؛ عَلَيَ الِيمينِ صالونِ كِلاسيكِيٍّ مَكوَّنِ مِنَ ثَمانيةِ كِراسٍ وَمَنضدةٍ تَتوسَطُ الصالَةِ، ثَم «كورِيدور» صَغيرٍ يَقودُ إِلى حَديقَةِ المَنازِلِ، الَّتِي كانَ يَفضَلُها عَن الصالَةِ بِوابَةُ خَشبيةٍ، مَشغولَةٌ بِنقوشِ أُندلسيةٍ وَزِجاجِ مُعشِقِ بَينَ ثَنايا الخَشبِ.

أَما الجَهةُ الِيسرى فَكانتْ صالَةَ أَكثَرَ اتِساعاً... كَانتْ قُدسُ الأَقداسِ، أَوْ «الرِوضةُ الفالتريةُ المَقدِسة» كَما أَسماها لُوي.

كَانَتْ الصَّالَةَ الَّتِي تَضُمُّ غَرَفَةَ المَكْتَبِ وَالمَكْتَبَةَ شَدِيدَةَ الِاتِّسَاعِ، زَاخِرَةً بَعْدَ مِنَ المِزْهَرِيَّاتِ الصِّينِيَّةِ، بَعْضُهَا شَفَافٌ كَلَوْنِ السَّمَاءِ، وَرَفِيقٌ مِثْلُ وَرَقِ السُّوْلِيْفَانِ يَسْتَطِيعُ المَرءُ أَنْ يَرَى مَا فِي دَاخِلِهِ مِنْ فِرَاطِ صِفَاتِهِ.

عَلَى الأَرْفَافِ الخَشْبِيَّةِ المَلْتَقَّةِ دَائِرِيًّا بِكَامِلٍ مَحِيطِ الصَّالَةَ، رُصَّتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ القَطْعِ الفَنِيَّةِ، مَا بَيَّنَّ قِطْعَ رِخَامِيَّةً وَخَشْبِيَّةً وَمَعْدِنِيَّةً وَمَجْسَمَاتٍ بِأَحْجَامٍ مَتَنُوعَةٍ لِقِصْرِ «تَاجِ مَحَلٍّ» بِقَبِيَّةِ الرِّخَامِيَّةِ عَلَى شَكْلِ زَهْرَةِ اللُّوتِ... نَمَازِجَ خَشْبِيَّةٍ لِسُيُوفِ مَغُولِيَّةٍ مَقْوَسَةٍ... أَوْانٍ فَضِيَّةٍ مَنقُوشَةٍ عَلَى جِدْرَانِهَا صُورَةَ لِحْيَوَانَاتٍ خِرَافِيَّةٍ مَتَعَدِّدَةِ الرُّؤُوسِ... أَبَارِيقَ زَجَاجِيَّةٍ مَزخَرَفَةٍ... مَجْمُوعَةٌ مِنَ الأَسَاوِرِ النِّحَاسِيَّةِ الَّتِي تَنْتَهِي أَطْرَافُهَا بِرُؤُوسِ كِبَاشٍ... عِدَدٌ مِنَ اللُّوْحَاتِ الجِدَارِيَّةِ مَتَوَسِّطَةِ الحِجْمِ، زَاهِيَّةِ الأَلْوَانِ، تَعُودُ إِلَى التَّرَاثِ المَغُولِيِّ الإِسْلَامِيِّ مَرصُوصَةً فِي تَرَاتِبِ زَجَاجٍ؛ أَكْبَرُهَا صُورَةُ مَحَارِبِ عَجُوزٍ، يَرَكُّعُ عَلَى بَسَاطٍ أَزْرَقٍ دَاكِنٍ مَزِينٍ بِزَخَارِفٍ مِنَ الزُّهُورِ المُورَقَّةِ، وَتَظْهَرُ المَسَاحَةُ خَلْفَهُ إِلا مِنْ بَعْضِ السَّحَبِ الخَفِيفَةِ تَحْمِلُ زَهْرَتَيْنِ مَلُونَتَيْنِ حَمْرَاءَ وَصَفْرَاءَ. كَانَتْ جِدْرَانِ غَرَفَةِ مَكْتَبِهِ الفَاخِرَةِ مُزْدَانَةً بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ «الْمَنَمَنَاتِ» الفَارْسِيَّةِ الفَخْمَةِ، بَعْضُهَا يُغَطِّي أَجْزَاءً وَاسِعَةً مِنَ جِدْرَانِ الحِجْرَةِ وَالحِجْرَةِ الجَانِبِيَّةِ المَلْحَقَةِ، كُنَّا أَشْبَهَ بِمَنْ دَخَلَ إِلَى مَتَحَفِ فَنُونِ شَرْقِيَّةٍ فَنَسْمَعُ بِعَيُونِنَا وَنَرَى بِأَذَانِنَا.

لَفَتَ نَظْرِي مَنَمَنَةً فَارْسِيَّةً ضَخْمَةً، تَشْغُلُ مَسَاحَةً كَبِيرَةً مِنَ الجِدَارِ المَقَابِلِ لِمَكْتَبِهِ؛ بَسَاطٌ مِنَ الكَاشَانِ المَطْرُزِ بِأَوْرَاقِ نَبَاتِيَّةٍ وَأَزْهَارٍ. كَانَ البَسَاطُ فِيرُوزِيًّا مِثْلَ مَحِيطٍ يَرْتَدِي فَسْتَانًا مِنَ الزُّهُورِ الزَّرْقَاءِ، يَحْمِلُ صُورَةَ شَيْخٍ كَثِيفِ الشَّعْرِ أَبْيَضِ، يَجْلِسُ إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ عَمَلَاقَةٍ، وَمِنْ خَلْفِهِ جِدُولُ مَاءٍ تَحُومٌ حَوْلَهُ طَيُورٌ مَلُونَةٌ. كَانَ الشَّيْخُ شَاخِصًا بِبِصْرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، رَافِعًا يَدَهُ الِيمَنَى مِثْلَ مَنْ يَتَوَجَّهُ بِدَعَاءٍ، بَيْنَمَا تَحْمِلُ يَدُهُ الِيسْرَى كَأَسَا. كَانَ البَسَاطُ مُذِيلاً بِعِبَارَةٍ مَكْتُوبَةٍ بِخَطِّ فَارْسِيٍّ وَاضِحٍ.

- لَوْي... مَا المَكْتُوبُ أَسْفَلَ هَذَا البَسَاطِ؟

- أَنْتَ تَعِيدُنِي لِأَيَّامِ الجَامِعَةِ يَا يُونِسَ... هَذَا بَيْتُ شِعْرِ مَشْهُورٍ لِحَافِظِ الشِّيرَازِيِّ، آه يَا يُونِسَ... بِدَكَ تَخْتَبِرُنِي فِي تَرْجَمَةِ الشَّعْرِ...؟ سَنُو مِمَّكَ نَقُولُ:

لَوْنِ البَسَاطِ بِالخَمْرِ إِنْ أَمْرَكَ شَيْخُ المَجُوسِ...
فَالشَّيْخُ العَارِفُ هُوَ الأَعْلَمُ بِمَسَالِكِ المَنْزَلِ

- الأَمْرُ صَعْبٌ يَا يُونِسَ... أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ حَافِظَ كَانَ بَحْرًا عَمِيقَ الغُورِ، وَشَيْخَ المَجُوسِ يَقْصِدُ بِهِ الشَّيْخَ المَرشِدَ فِي لُغَةِ الصُّوفِيَّةِ.

- أَوَّلَ مَرَّةٍ أَسْمَعُهُ يَا صَاحِبِي، تَصَدِّقُ!... أَنَا تَعَرَّفْتُ إِلَى حَافِظِ الشِّيرَازِيِّ مِنَ «الخَوَاجَاتِ»... جُوتَهُ وَفُونِ بُورْجِشْتَالِ.

- الخواجات تعني «الشيوخ أو المعلمين»... أفكرُ ما الذي يحاول أن يُخبركَ بِهِ بيتُ حافظ الشيرازي؟

- لا أفهم؟

- أنا سافرتُ للعيش في «سمنان» معَ أمِّي بعد وفاة أبي مثلما حكيتُ لكَ، وقضيتُ فترةً طويلةً هُنَاكَ... لعلك سمعتَ يا يونس أَنَّهُ لا يكادُ يخلو بيتُ هُنَاكَ من «ديوان حافظ» ويسمَّى «فأل حافظ»، شيءٌ مثل صلاة الاستخارة... فيقومُ النَّاسُ عادةً في المناسبات الدينية وغيرها يأخذون طالعهم من الديوان، حيثُ يقوم الشخص المتقدم في السن أو الشخص المعروف عنه صفاء النية... الخواجة... بفتح صفحة من «ديوان حافظ» على نحو عشوائي، ويقرأ ما يصادفه بصوتٍ مرتفع، ثم يفسره معَ محاولة لأخذ إشارات من الشَّعر بشأن نية صاحب الفأل.

- وَهَذَا مَعْنَاهُ؟

- هَذَا مَعْنَاهُ أَنَّنَا إِذَا مَشِينَا وَرَاءَ كَلَامِ دِرَاوِيشِ حَافِظٍ... أَنَّ الشَّيْخَ المَتَقَدِّمِ فِي السَّنِ أَوْ الخَوَاجَةَ، وَهُوَ بروفيسورٍ فالتَّر يُخْبِرُكَ أَنكَ يَجِبُ أَنْ تَسِيرَ وَرَاءَ الشَّيْخِ العَارِفِ وَهُوَ يَدُلُّكَ عَلَى الوَصُولِ... أَوْ رُبَّمَا كَيْفَ تَصِلُ إِلَى مَرَادِكَ...

- جَلَمَكَ يَا شَيْخَ لُؤْي؟

- سَنُو تَقْصِدُ حُلْمِي؟

- لا عليك... هَذَا عَنَوَانُ مَسْرُحِيَّةٍ قَدِيمَةٍ لِأَنيسِ مَنصُورٍ خَطَرَ فِي بَالِي وَأَنْتِ تَتَحَدَّثُ... هَلْ لَا زَلْتَ مَتَأَثِّرًا بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ يَا لُؤْي؟

- هَذَا طَبِيعِي، لَكِنِ الجُذُورُ تَذْبُلُ وَتَمُوتُ بَعْدَ فِتْرَةٍ مَا... هُوَ أَنَا صَرْتُ أَهَاجِرٍ مِنْ قَلِيلٍ يَا رَفِيقِي...

- وَهَلْ خَابَ يَوْمًا فَأَلِ الشِيرَازِي يَا لُؤْي؟

- سَوَالُ خَبِيثٍ يَا يُونِسَ... أَنَا شَخْصِيًّا لَمْ أَجْرِبْهُ... لَكِنِ كُلُّ مَنْ أَعْرَفَهُمْ مَا خَابَ مَعَهُمْ فَأَلِ حَافِظُ أَبَدًا، وَلِمَاذَا تَفَكَّرَ أَنَّهُ يَخِيبُ مَعَكَ؟ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ أَخْذُ فَأَلِ «حَافِظ» يَوْمَ «عِيدِ النِّيروز»... الدُّنْيَا سَاعَتَهَا تَحُلُو.

تركني لؤي، ومشى بضع خطوات ثم جلس على المقعد المواجه لمكتب بروفيسور فالتَر، بينما رُحْتُ أطُوفُ ببصري في أرجاء الغرفة.

فوقَ الجدارِ المَقَابِلِ للمكتبِ لمحتُ بِسَاطًا أَكْبَرَ فِي الحِجْمِ قَلِيلًا. كَانَ البَسَاطُ مَنَمَمَةً فَارِسِيَّةً فَاخِرَةً؛ تَبَدَّى ذَلِكَ مِنْ لَمَعَانِ الخِيوطِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضِيَّةِ المَتَعَانِقَةِ فِي تَنَاعُجِ، وَتَكَادُ تُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهَا أَشْعَةُ

الشمس، تصور مَعْبَدًا رخاميًا مفتوح الأركان، يقفُ في وسطه شاب خفيف الشعر، جاثيًا على ركبتيه أمام كأس ذهبي عملاقة تخرج منها ألسنة النار، ويحيط به شيخان كبيران، يرتديان أسدالاً بيضاء، وعلى رأسيهما قلنسوة خضراء عريضة. كان الكاهنان يتوجان رأس الشاب بتاج فضي مسنن، يعلو مقدمته هلالٌ يضم زهرة بارزة، وفي خلفية الصورة لاح تمثالٌ لشيخ ملتجٍ يجلس ممسكًا كتابًا في يده، فيما يرقد تحت قدميه أسدان مُنكس الرأس، اقتربتُ خطوة من البساط، مُحاولًا قراءة النقش المذيل أسفل البساط فقرأتُ عبارة مكتوبة بخط عربي: «فيراز».

- أتعلم من هذا يا يونس؟

دخل د. فالتر إلى حجرة المكتب حيثُ ننتظره، ولم نكن قد شعرنا به.

- صباح الخير يا دكتور... بالطبع لا... أعتقد أننا هنا لنسمع فقط، قلتها مبتسمًا.

- هذا «فيراز»... شخصية مهمة وردت في «الأفستا»، الكتاب المقدس للزرادشتيين...

- فيراز؟

جَلَسْنَا على المقاعد الجلدية في غرفة المكتب وفي أيدينا فناجين القهوة. تمدد د. فالتر على أكبر الكراسي حجمًا وفرد ظهره تمامًا وقال:

- حكايته بدأت بعد اجتياح الإسكندر المقدوني لبلاد إيران حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وقتل الملك وتدمير المعابد، ساعتهما اتفق كهنة المعبد على اختيار أكثر الرجال المؤمنين المخلصين نزاهةً وصدقًا ليقوم برحلة مقدسة إلى السماء ليجلب لهم أخبارها، ويطلعهم إذا كانت صلواتهم قد قبلها الله أم لا، وإن كان طريقهم طريقًا صالحًا أم لا... وكان «فيراز» هو من وقع عليه الاختيار.

لم أعز انتباهًا لمضمون الحكاية التي رواها، بقدر ما التفتُ إلى وقع الاسم على أذني، فقلت له:

- على فكرة... اسم هذه الشخصية قريب - صوتيًا - من اسم من أسماء البنات عندنا... «فيروز»، أفكر لو تزوجت، ورزقتُ بطفلة أن أسميها «فيروز»، ولكن لماذا اخترت هذه الشخصية تحديدًا لتعلقها في غرفة مكتبك؟

- هم الذين اختاروه... أنا لم اختر شيئًا.

قالها ضاحكًا وهو يمدُّ يده إلى فنجان الشاي ويأخذ منه رشفة... «مجرد إعجاب بحكاية من الحكايات ليس أكثر، بالرغم من أن «فيراز» لم يكن كان مجبًا للسفر، ولكنهُ مكان «مطلوب» للسفر من قِبل أهل السماء كما تقول الأسطورة.

إشعل د. فالتر غليونَه الفضي بولاعةٍ جذبها من درج مكتبه، ثم نفث الدخان في الهواء وبقي يتأمله.

لذنا بالصمت دقائق، حتّى قام د. فالتر من مقعده متجهاً إلى يمين الغرفة. أخرج من جيبه سلسلة مفاتيح، ثم اختار واحداً وفتح دولاباً خشبياً أنيقاً موشى بنقوش نحاسية. فوق سطح الضلفة الخشبية من الداخل، لصقت ورقة بيضاء مصقولة مُدَوَّن عليها جدول أيام الأسبوع وأمام كل يوم أسماء أنواع شيكولاته غريبة... LaMadelien... Knipschlidt... Godiva ...

«... الميزة الوحيدة التي جنيتهُ من قضاء زوجتي ثلاثة شهور كل عام في سويسرا هي أنواع الشيكولاته، ومن كثرة الأنواع التي عرّفتني عليها زوجتي، فكّرتُ في تحرير قائمة أسبوعية بأنواع الشوكولاتة التي سأكلها خلال أيام الأسبوع، فمثلاً شوكولاته La Madeline الأوفر على الإطلاق لا أقربها إلا يوم السبت والأحد، حيثُ الراحة والكتب ودائرة الأحبة، وشوكولاته Knipschildt مُخصصة ليوم الإثنين أول أيام الأسبوع حيثُ صداع الطلبة، وسقم فحص البريد والعمل الإداري، وتفحص بريده الوارد، والرد على الرسائل، ويوم الثلاثاء شوكولاته Godiva الداكنة المخلوطة بالقهوة، حيثُ يبدأ مجموعة طلبة الدكتوراه العمل الشاق.

- حظنا رائع... اليوم هو الأحد... موعدا مع الشيكولاته La Madeline

وقلتُ وأنا مُد يدي لأخذ واحدة:

- الشيكولاته والبهجة لا يفترقان يا بروف...

- أراهن أنكما لن تتناولوا طعام الغذاء اليوم... قطعة واحدة تعدل وجبة غذاء دسمة.

كانت قطعة الشيكولاته المغلفة سميكة ثخينة، فتحتُ الغلاف السوليفان، فتدققت رائحة كراميل سخية إلى أنفي، وقبل أن أضعها في فمي، قال لي:

- انظر إلى الغلاف يا يونس...

أخرجتُ الغلاف الذي كنتُ قد طويته ووضعتُه في جيب قميصي، فرأيتُ جدولاً صغيراً مكتوباً بحروف رقيقة يشير إلى مقدار السرعات الحرارية والدهون والبروتينات بدقة.

- حلو... سأحتفظ بهذا الجدول ذكرى أول يوم أكل فيه أعلى نوع شيكولاته في العالم.

- كل حياتي داخل عُلب الشيكولاتة التي تراها أمامك.

كان كل رف من رفوف المكتبة لا يكاد يخلو من علبة شيكولاته ضخمة، حتّى بدا أن عُلب الشيكولاتة تُهدى إليه يومياً مثل الكتب.

- أعتقد أن هذه الكميات من الشيكولاتة تحتاج ثلاث ساعات مشياً يومياً يا دكتور...

- لن تحتاج إذا قرأت الكتالوج.

- كتالوج؟

- الورقة البيضاء المثبتة في الدولاب الخشبي.

- وإذا تركنا الشيكولاتة... هل لي أن أسألك عن كل هذه اللوحات والمنمنمات؟

- ما لها؟

- هل تحضر فيلمًا؟

- من زمن... هذه مشاهد تحضيرية لفيلم فانتازي.

- تقصد خيالياً؟

- الخيال شيء، والفانتازيا شيء آخر.

- كيف؟

- الخيال يخلق ما هو موجود وما يمكن أن يوجد في الحياة، أمّا الفانتازيا فتخلق ما لم يوجد ولن يوجد، فعندما خلقت الفانتازيا الشعبية قصة «اليساط السحري» والسندباد في ألف ليلة وليلة، لم يكن يخطر ببال أحد أن الناس سوف يعرجون للفضاء في صواريخ وطائرات؛ الفانتازيا تعرف كل شيء... كانت الفانتازيا ملهمة لحياتي حتى أنها ساعدتني على محو ذاكرتي وإثبات ذاكرة أخرى.

- محو وإثبات؟ هل يمكن للإنسان أن يمحو ذاكرته يا بروفسيور؟ كان عندنا شاعر اسمه صلاح عبد الصبور و...

- صاحب «مأساة الحلاج»؟

- نعم...

- كان ديوانه الأخير بعنوان «الإبحار في الذاكرة»، وكانت آخر جملة فيه تقول «لا تبجر في ذاكرتك قط».

- ترجمت مقتطفات من أشعاره إلى الألمانية، كان صلاح عبد الصبور شاعرًا مُحَرِّضًا في معظم أعماله، مُحَرِّضًا عَلَى الشَّعْر: «علموا أولادكم الشعر»، ومُحَرِّضًا عَلَى التحرر من القوالب الشعرية الكلاسيكية والأفكار المكررة.

- وبالتالي كان يحرضُ علىِ محرِّ الذاكرة؟

- ما معنى الإبحار؟ هه؟ الإبحار هُوَ السيرُ في مركب وسط مياه البحر... الذاكرةُ ميناءُ انطلاقٍ، وليس ميناءً وصولٍ؛ أرَادَ الشاعِرُ أن يفارقَ مطرَحنا... هُوَ قَالَ لا تُبحرُ في ذاكرتكِ قط... ولم يقلْ مِنْهَا...

- وماذا نفعل مَعَ الذكريات؟

- للأسف... الذاكرة لَصَّ تائبٌ يؤرقه ضميره كُلَّ لحظةٍ ليردَّ الأشياءَ المسروقة، إلاَّ أَنَّهُ لا يعيدها.

- وما الحل؟ لا يمكن القضاء علىِ الذكريات تمامًا بهذا المعنى!

- سلِّم اللصَّ للعدالة... قالها ضاحكًا...

قَطَعَ حديثنا صوتُ طرقاتِ علىِ بابِ حجرةِ المكتبِ. دخلتُ «حنًا» حاملةً لفافة مطوية داخل غلاف أسطواني أسود، نظرتُ إلى د. فالتر بعد أن حَيَّتنا. كَانَتْ مُشْرِقةً فِي هَذَا اليومِ بالرغمِ مِنْ ملامحِ التعبِ الواضحةِ علىِ وجهها، نظرتُ نحوي نظرةً غريبةً لم أفهمها يومًا، وَجَّهتُ حديثها لدكتور فالتر وَقَالَتْ:

- أخيرًا يا بروف... وصلتُ اللوحة من «إسطنبول»... كِدْتُ أكره حياتي من كثرة المراسلات مَعَ جمعية حفظ التراث الوطني ووزارة الثقافة التركية... كأنها تخصُّ السلطان العثماني نفسه وليس مستشاره العسكري.

- رائع... ضَعِيها مِنْ فضلكِ فوقَ الخزانةِ النحاسيةِ في اليمين... سوف نُعلِّقها يوم السبت.

كاد الفضول يفترسني لمعرفة ما تحويه هذه اللفافة المطوية، وجزمتُ أن ذلك شعور لؤي أيضًا. ولم أظهر ذلك. خَمَّنتُ أن اللفافة منمنمةٌ جديدةٌ أو لوحة أثرية مهداة من أحد الأساتذة الأتراك ما دامت أشارتُ إلى جمعية حفظ التراث.

- ممكن يا «حنًا» تساعديني في إصلاح الساعة الرقمية المعلقة بجوار المكتب، غالبًا تحتاج بطارية جديدة... الضوء الفوسفوري لم يعد يعمل في الظلام.

- يونس... صاحبي... ما الذي حدث؟ وجهك شارد مُنذُ أن خرجنا من منزل د. فالتر...!

- ما رأيك يا صاحبي؟ الخواجة يتحدث عن أشياء غامضة اليوم.

- وَمُنْذُ مَتِي كَانَ د. فالتر واضحا يا صديقي؟

- هل تعرف شيئاً عن ابنته «بياتريس» التي توفيت وهي طفلة؟

- والله هذا موضوع غامض... سمعته ذات مرة من «سابينا» سكرتيرته... لكن دون تفاصيل كثيرة.

- «سابينا»... Wooooow... تعرف من أين تؤكل الكتف يا لوي؟

- شنو الكتف؟... سابينا عمرها ثمانية وأربعون عاماً!...

- يعني تعرف سنها أيضاً؟

- يا رفيقي الله يرضى عنك..... قابلتها مرة في Betriebsausflug... هذه النزهة الخلوية اللي بيسويها القسم كل عام إلى الحدائق... وتحادثنا... قالت لي إن ابنته توفيت من حوالي ثلاثين سنة... في سن الخامسة نتيجة مرض خبيث... وأنه بعدها بفترة قام بإجازة شهرين من الجامعة... وسافر... لكنه لم يخبر أحداً أين سافر ولا ماذا حدث، ثم عاد بعدها شخصاً آخر... كأنما مُحيت ذاكرته.

- مُحيت ذاكرته؟

- هكذا قالت... لا تتشغل بهذا كثيراً يا يونس... معظم الأساتذة هنا غريبو الأطوار. ربما السبب يعود إلى الوحدة المفرطة... والله لم أشأ التدخل في حديثكما لأنني سمعتُ أشياء غامضة عن حياته؛ لكن دعني أقول لك إن نَبش حياته لن يُفِضِي بك إلى قصة منطقية، على أقصى تقدير سيحيلك إلى شيء من الرهبة، يقولون إنه لا يواجه العالم إلا من وراء زجاج شفاف يختبي وراءه... يداريه الزمان ويداري الزمان عنه... لا يُعرَف له أصدقاء، كما أن عدد تلامذته يتناقص تدريجياً... كيف لم تسمع من القسم؟ الرجل يقضي وقته تقريباً وحيداً مع صناديق الشيكولاتة التي تملأ المكان، ولوحاته ومخطوطاته القديمة التي يحرص على اقتنائها من كل مكان... إسطنبول... سمرقند... بومباي وكأنه يعيش في عالم مواز خاص به، يعيش منعزلاً عن الواقع بزجاج شفاف... لكن على العموم هو رجل محترم... وهو يعاملنا بتقدير.

كان كلام لوي عن الخواجة يزيد إصراري على اختراق ذلك العالم الغامض. ما الذي يخفيه الرجل؟ ماذا وراء قصة وفاة ابنته «بياتريس»؟ وما كل هذه اللوحات والبسطة التي تعمّر جدران منزله؟ ثم أين زوجته؟

أثناء سيرنا لمحتُ تجمعاً لرجال يرتدون بذلات «سموكنيج» وسيدات في ملابس سواريه أمام مبني تتبع منه أصوات بروفات موسيقية أوبرالية. توقفتُ أمام المسرح أتأمل شكل البشر المهندمين الواقفين، ربت لوي فوق كتفي وقال:

- هَذَا مسرح غنائي... تودُ تجرّب حضور حفلة في يوم؟ الأفضل تروح إلى فيينا... ستستمتع بالأوبرا على أصولها.

- لؤي... هل عندك معلومة عن التخصص الأساسي للدكتور فالتر... أقصد موضوع رسالة الدكتوراه؟

- أعرف أنّه نال الدكتوراه من جامعة فيينا، معهد الدراسات الإسلامية، لم تسأل؟

- مجرد فضول... فتش عن الماضي يا صاحبي، ما رأيك تسافر معي إلى فيينا الأسبوع القادم؟

- ماذا تريد أن تفعل في فيينا؟ هل أعجبك منظر الأوبرا وتريد تدخل أوبرا فيينا؟

- إطلاقاً... شيء من بعيد ناداني، أريدُ الاطلاع على التخصص الأكاديمي لبروفيسور فالتر... رسالته للدكتوراه...

- شيء من بعيد ناداك؟ أصبحت تسخرُ مني كثيرًا يا يونس؟ بصرتَ داهيةً يا رفيقي... لا تحتاج للسفر... يمكنك الدخول إلى أرشيف مكتبة الجامعة من هنا...

- كيف؟

- قامت إدارة الجامعة منذُ عام بإدماج قاعدة بيانات مكتبة جامعة فيينا مع مكتبة جامعة «جراتس المركزية» وخاصة رسائل الماجستير والدكتوراه غير المنشورة... يمكنك الاطلاع على كل شيء من هنا...

- الله عليك يا مولانا... ألن تأتي معي؟

- وهل النداهة ندهت عليك ولا عليّ يا يونس...؟ أنا بصير ألعب رياضة اليومين دول... لا أعرف لماذا سمّنت كثيرًا آخر ستة شهور...

- أكيد تأكلُ عند حماك وحمايك كثيرًا يا لؤي...!

- كيف عرفت؟

- هَذَا كرش مصري بامتياز...

استيقظتُ في السابعة صباحًا على صوتِ نقرِ مطرٍ فوقَ زجاجِ نافذةِ الحجرة؛ أزحتُ الستارةَ ونظرتُ للخارج. رأيتُ طابورًا من الأطفال يقفُ مصطفاً في انتظار أتوبيس المدرسة في صحبة مُعلّمة شابة، دُهِشتُ من دفءِ الحجرة رغمَ برودةِ الطقسِ وإغلاقِ المدفأة.

وكأنني نُوديتُ، قَصَدتُ إلى الدولابِ وأخرجتُ البِساطَ من حقيبةِ سفري، فردتهُ أمامي، كان مَلْمُسُهُ دافئًا، تأملتُ المشهدَ من جديد. بدأتُ أتعاطفُ معَ بعضِ التفاصيلِ التي رأيتها بالأمس في منزل د. فالتر؛ الشَّيخُ الجاثي على ركبته وهو يرفعُ كأسًا للسماء، والشاب الذي يُتَوَجَّهُ شيخانِ بتاجٍ يحمل زهرةَ فيروزية لا تدبُّ، خُيِّلَ إليَّ أنَّ الكأسَ المرسومةَ فوقه قد فاضت ناراَ ونوراَ، فأسبغتُ على الحجرة دفنًا لا ينتهي.

أثناء الفطور ظلَّ موضوع د. فالتر وابنته يشغلان بالي على نحو مطرد، خشيتُ منه على نفسي. لا أعرف لماذا؟ ربما كانت الرغبة في التفكير بأنَّ الذكريات كلها متشابهة؟ هل هو الفضول وحده؟

هل يمكن أن تظل ذكري ما محفورة في وجدان أي إنسان مهما مرت السنوات؟ هل صنع الخواجة من حادثة وفاة ابنته نوعًا مغايرًا من الوجود؟ وجودٌ يتوسط المنطقة الفاصلة بين الحلم والعلم.

أفقتُ من شرودي حينما اضطررتُ للوقوفِ أمامِ البوابة الإلكترونية لمكتبة الجامعة انتظارًا للدخول، مشيتُ نحو قسم الرسائل المنسوخة إلكترونياً. أغلقتُ هاتفي المحمول كما هو مدون في لائحة التعليمات المعلقة أمامي، ثم ضغطتُ على زرِ البحث في الأرشيف الإلكتروني.

لم يستغرق الأمرُ سوى بعض دقائق للوصول إلى نسخة رسالة الدكتوراه للدكتور فالتر، ضغطتُ صغيرة على صفحة الجامعة منشورات عام ١٩٧٨... مرّت ثوانٍ حتّى فُتحت رسالة الدكتوراه بصيغة PDF

[.Institut für Islamische Studien](#)

معهد الدراسات الإسلامية – جامعة فيينا...

Die Traumdeutung als Erforschung der Seele: Am Beispiel der literarischen Werke von C.J.Jung und Ibn Arabi (Das Rote Buch und Fosos Al Hikam), betreut vom Prof. Franz Ludwig Bremer, 1978.

رسالة الدكتوراه في فلسفة الآداب الشرقية من جامعة فيينا- قسم الدراسات الإسلامية:

«تفسير الأحلام باعتباره استكشافاً للروح : كارل جوستاف يونج ومُحيي الدين بن عربي أنموذجاً» دراسة تطبيقية على الكتاب الأحمر وفصوص الحكم»، إشراف بروفيسور د. فرانتس لودفيج بريمير، ١٩٧٩.

كَانَتْ الرسالة تقع في قرابة ٥٢٥ صفحة من القَطع الكبير، تعجبتُ... هَذَا هُوَ الموضوع الَّذِي اقترحه عليّ د. فالتر للمرة الأولى لرسالتي للماجستير... ماذا كان يريد إذن؟

أمسكتُ بالماوس وبدأتُ تصفحَ الرسالة، هبطتُ بالماوس إلى النهاية، فبدأتُ من حيثُ انتهى الخواجة:

«... وبالتالي فإن التأمل الهادئ لطبيعة سرد كارل جوستاف يونج في الكتاب الأَحْمَرُ يشيرُ إلى أن هَذِهِ النصوص لِيَسَتْ أحلامًا، بقدر مَا هِيَ تأملات وتأويلات لأفكار طرحها عقل يونج الواعي في محاولة استكشافية للعثور عَلَى «روحه» حسب عبارته هُوَ شخصيًّا، لا أَظن أن تعبيرات مثل: أنت الطريق... ليس الطريق إِلَّا بداخلك، لستُ مرشدًا لأحدٍ، هِيَ حكي مباشرٌ لأحلام، بل هِيَ فِي تركيبها اللغوي- لِيَسَتْ إِلَّا خلاصة تجربة غنوصية، وَلِيَسَتْ حكيًّا لأحلام لا يتحكم فيها الإنسان تحكّمًا منتظمًا، يسمح لَهُ بكتابة مئات الصفحات. وبالمثل، فإن «فصوص» ابن عربي، لم تكن كلها «أحلامًا» و«رؤى منامية»، بل استبصارات و تأملات -جادة- للنصوص القرآنية والنبوية، والتراث الصوفي السابق عليه، عَلَى نحو مَا نرى فِي لقائه بعبد الجبار النفري والجنيد والبسطامي، إلخ...

لستُ متأكدًا أن رجلاً استطاع ترويض وتوجيه أحلامه، عَلَى مدار سنوات، لتتطرق بما أَرَادَ هُوَ قوله عَلَى نحو غير مباشر، وَلَا متأكدًا أن ابن عربي كتب آلاف الصفحات المليئة بتأملات وتحليلات، بدأت مُنذُ زيارته للبيت الحرام في مكة، نتيجة أحلام فقط. كلاهما استند إلى نصوص دينية في بداية طريقه، وكلاهما حاول تجاوز الوعي العام الشعبي حول ألفاظ الكتاب المقدس.

طبيعة السرد واختيار الألفاظ فِي «الكتاب الأَحْمَرُ» و«فصوص الحكم»، عَلَى اختلاف الغرض والمنظور، تشير إلى نتيجة شبه واحدة: محاولة تحرير الذِّاتِ وملامسة المطلق من خلال «البصيرة» من خلال التجربة الغنوصية/العرفانية، بينما يوهم كل منهما فِي الوقت ذاته- القارئ/المتلقي/المريد، بأن هَذِهِ الأحوال والأقوال نتيجة أحلام ورؤى فِي المنامات.

السؤال: لماذا يَكُونُ الحلم دائمًا هُوَ «الستارة» «والمجاز المكاني» الَّذِي يحاول من خلاله «الأكاديمي» مثل يونج، والعارف مثل «ابن عربي» أن يَقُولَ أفكاره إلى النَّاسِ؟ لماذا فكرة الأفتنة؟

انتبهتُ إلى نقر المطر المتواصل عَلَى زجاج نوافذ مكتبة الجامعة، كَانَتْ الساعة تقترب من الخامسة عصرًا، وعمودي الفقري يشتكى بنبرة لومٍ قاسٍ. كنتُ أجلسُ مُنذُ ستِ ساعاتٍ متواصلة، كَمَا لو كان يَقُولُ لي: الرحمة حلوة.

الساعة الآن السابعة، والشمسُ مَا تزالُ متواريةً وراء ركام من السُّحب. فكرتُ فِي الاتصال بسارة أو المرور عليها لأحكي مَا حدث مَعَ «حنًا» مُنذُ ساعتين.

بعدما تركتُ المقهى، مشيتُ نحو محطة Stassenbahn، فلمحتُ فتاةً قريبة الشبه من سارة، كانت تقفُ منتظرةً عليّ محطة قطارٍ الشارع، موليةً ظهرها إليّ، إلا أنني لم أتأكد من ملامحها بسبب البالطو الجلدي الأسود الطويل الذي كان يغطيها بالكامل.

وصلَ قطار. كنت واقفاً على الرصيف المقابل مُنتظراً اخضرار الإشارة؛ فخشيتُ ألا ألحقَ بها وتفتتني الفرصة. لم يكن فوق الرصيف ولا في الشارع أحدٌ سواي؛ عبرتُ الشارعَ بسرعة، كاسراً إشارة المرور. كانت سارة قد صعدتُ بالفعل إلى القطار، وجلستُ على أول مقعد إلى جوار النافذة، فيما استطعت أنا بالكاد القفزَ بأعجوبة ربانية إلى القطار، فأغلق أبوابه على الهواء الذي خلفته ورائي، وانطلق.

كانت تُمسك كتاباً وقد بادرتُ بفتح أول صفحة. حين نظرتُ إليها، أغلقتُ الكتاب وضجكتُ وكأنها تغني:

- يونس... يا يونس... يا يونس... اشتريتُ منذُ دقائق كتاباً عن دور الصدفة في حياة العاشقين... أنت كنتَ معي؟

جلستُ على المقعد المجاور لها وقلت:

- كنت أفكر فيك من ثوانٍ... وأريد أن أقابلك، لأكلمك في بعض الأشياء... آخذ رأيك...

- خير حبيبي؟

- قابلتُ «حنأ» منذُ ساعة وحكتُ لي حكاية غريبة عن د. فالتر.

- هل لديك وقتٌ...؟ يمكننا تناول القهوة في مقهى Tschibo القريب منا... لن نسير كثيراً في المطر...

- طبعاً...

- ما شاء الله يا يونس... تخرجُ لتتناول القهوة معَ غيري؟

- صبرك بالله... اسمعي الحكاية حتى آخرها يا سارة، أنا مندهشٌ... كانت حناً تعرفُ عني كلَّ شيء تقريباً... أخذتُ تتحدثُ عن د. فالتر وعن شخصيته وأبحاثه...

- صحيح... تعلمين عني الكثير يا حناً، ولكنني لا أعلم عنك شيئاً... هل تعملين معَ د. فالتر منذُ فترة؟

- نعم... منذُ عشر سنوات تقريباً... أنا ألمانية من مدينة بريمن، ووالدي يعمل مهندساً في أحد المكاتب الهندسية في مجال الطاقة الشمسية هنا... حكايتي بدأت بالعمل معَ د. فالتر كما قلتُ لك منذُ

عشر سنوات... أولاً في الجامعة حيث كان يدرّس لنا فقه اللغات الشرقية القديمة، ثم في الماجستير... لكن عددًا كبيرًا من الطلبة انسحبوا من برنامج الماجستير أو الدكتوراه بسبب قسوة نظام عمله...

- على أي حال... الموضوع ليس لعبة يا حنا... هذه رسالة جامعية...

- ليس الموضوع متعلقًا بهذا الشأن... الموضوع له علاقة بأسلوبه مع الطلبة أثناء الدراسة... البعض رفض أسلوبه في فرض موضوعات بعينها عليهم... ورفض صحبته في رحلات علمية إلى أماكن محددة يختارها بنفسه؛ ليطلب منهم كتابة تقارير علمية حول أشياء بعينها... لم يفهم أحد لماذا كان يطلب منهم ذلك ولا هذه الموضوعات، وكان يأخذ هذه الأبحاث ولا يعيدها أو يناقشها معهم... بعض ممن أعرّفهم اشتكى لي أنه أحس نفسه «فأر تجارب» لأبحاث د. فالتر، والبعض الآخر ظن أنه يسرق مجهودهم وأوراقهم العلمية، ليترجمها لأي لغة أخرى لا يعرفونها، ويتكسب منها...

- أها... وأنت يا حنا ما رأيك؟

- في الحقيقة لم أستطع الوصول إلى شيء محدد... كانت نقاشاتنا طويلة وممتدة حول كل شيء وأي شيء... من الغباء تصور أنه يسرق أبحاث طلبته... من نحن أمامه!

- وماذا كان يفعل بهذه الأبحاث إذا كان لا يسرقها؟ وأرجوك ألا تقهمني كلامي على أنه تأكيد لما يردده بعض الطلبة...

- لا أعرف... أظن أن د. فالتر يفتش عن شيء ما...

- شيء مثل ماذا؟

- لست متأكدة... قد يكون الأمر له علاقة بحياته الشخصية وأسفاره الكثيرة...

- أولاً أشكركِ على هذه المعلومات... لكن لماذا تخبريني بذلك الآن؟

- مجرد دردشة... plaudern... أردتُ مشاركتك تجربتي الشخصية، خاصة بعدما علمت أنك أصبحت في دائرة المقربين من د. فالتر نسبيًا...

- هو قال لك ذلك؟

- لا... بعض زملائي لاحظوا ذلك... د. فالتر لا يقول شيئًا... إنه يشير من بعيد...

- ولكنك لم تخبريني بعدُ برأيك حول شخصيته وماذا يريد؟

- من تجربتي الشخصية أستطيع أن أخبرك أنه «ساجر»... عندما قابلته للمرة الأولى بدا لي أنه ليس من هذا العالم تمامًا... بدا أنه يعيش في حالة من السحر المتواصل من المنمنمات واللوحات التي تغطي جدران منزله... كان يُشجّع تلامذته أن يفعلوا الشيء نفسه... أن يجازفوا ويُسافروا ويتأملوا النقوش المرسومة كي يملكوا أقدارهم بأيديهم...

- معني ذلك أنه هو الذي رسم بنفسه كل هذه المنمنمات التي رأيتها في منزله؟

- لا أحد يعرف... ربما يقصد شيئاً مكتوباً... لست متأكدة من شيء.

- وماذا حدث بعدها يا يونس؟

- سارة حبيبتي... بدأت تغييرين علي... دعيني أكمل لك ما جرى...

حينها، أطرقت قليلاً متظاهراً بتفحص فنجان القهوة الموضوع أمامي. رشفت ما تبقى من القهوة ووضعت الفنجان مكانه، استثمرت هذه الثواني في التفكير في ردّ جريء، فسألته:

- وبالتالي... هل تتصحيني بإعادة التفكير في العمل مع د. فالتر؟

- وبماذا أجابتك حناً؟

- تهربت من إجابة مباشرة يا سارة...

حين رويت لسارة عن لقائي بـ «حنّا» وعن كلامها عن د. فالتر، قالت إنها لا تشعرُ بعبارة في حديثها، بالرغم من أنها لا تعرف حناً هذه شخصياً، إلا أنها تستطيع القول إنّ طباع د. فالتر لا تخلو من غرابة أحياناً.

حكّت سارة عن ذكرياتها حين كانت ترافق والدتها إلى شركة السياحة التي تعمل فيها، وهناك كانت ترى د. فالتر أحياناً في المكتب. رفعت سارة بصرها قليلاً إلى سقف الباص كأنما تستحضر ذكرى ما وقالت:

- عندما كانت أمي تتشغل بالرد على هاتف أو بإصدار تذكرة طيران، كان د. فالتر يمسك بيدي وهو جالس على المقعد المقابل لمكتبها، وأنا واقفة بين يديه... كان يشرد ببصره ويدندن بأغان غريبة، لم يكن ينظر نحوي... كانت حجرة أمي تقع في الدور الأخير، ومكتبها إلى جوار نافذة تخيلتها دوماً باباً على البحر، كان يحدّق إلى الشمس ويهمهم كأنه يناجي نفسه. أحياناً كنت أحسّ بدموع محبوسة يخشى خروجها أمام الناس، كان ينظر نحوي تارة، ثم يرفع بصره نحو الشمس تارة أخرى، ويهمس بكلام لا يكاد يخرج من شفتيه، كنت أشعر أن الرجل يحلم، بعدها كان يقبّلي ويُعطيني شوكولاته

Kinder التي أعشقها... وَمَا زِلْتُ؛ الحقيقة أنا عمري مَا خِفْتُ مِنْهُ وَلَا أَحْسَسْتُ بِالْفَلَقِ مِنْ هَذَا السلوك... بالعكس كنت ألمس فِيهِ مشاعر أبوة حانية...

- وماذا كان ردُّ فعل والدتك؟

- لا أذكر، كنت صغيرة وقتها... لكن إحساسي أن أمي لم تكن تغضب أو تقلق... كَانَتْ تعرف د. فالتر جيداً بحُكم تردُّده الدائم على المكتب لأمر تخصه أو تخص زوجته، وَكَانَتْ تقول إنه يعتبرني مثل ابنته الفقيدة، لم يكن الأمر يستغرق سوى دقائق...

- كُلُّ هَذَا عظيم... مَا علاقة ذَلِكَ بما حكيتَه لكَ عن حنا؟

- لا أعرف يا يونس... أنا أفكر معك بصوت عالٍ... هَذَا انطباعي الشخصي عن الرجل، أمَّا بالنسبة لموضوع ترك عدد من الطلبة له فهذا قد يكون مفهوماً... أنت تعرف الطلبة الكسالى... يمكن الملل من كثرة الأبحاث الإضافية المطلوبة أو الرحلات... لا أعرف والله... لكن الغريب لماذا تحكي لكَ هذه الـ «حنا» كُلُّ ذَلِكَ؟

- هل تغارين عليّ فعلاً؟

- ولم لا؟

- حبيبتي يا سارة... لكن هَذَا الكلام أدعى للحيرة...

- الأظن أنك دائماً قلق يا يونس، وتعمل حساباً لكل شيء، كُلُّ كلمة، وكل حركة... الموضوع ليس ذا أهمية كبيرة... قد تكون حناً تريد أن تعيش قصصاً جديدة من أناسٍ جدد، أنت حكيت لي أنها solo... وتعيش وحيدة...

- أنت لا تتركين شيئاً.... وبعدين جديدة solo هذه...

مضت أسابيع سَحَبَتْ فِي إثرها شهوراً حَتَّى بدأ د. فالتر وجود عليّ ببعض مما يخفيه في قلبه، في البداية كَانَتْ اللقاءات تتكرر في الغابة القريبة من المعهد، في ذَلِكَ الكوخ الخشبي المطل على نهر المور، وبعْدَ عُثوري على كتاب «يونس السَّمَان» الذي لم يأت بعدها على ذكره يوماً، أصبحت أزوره كُلُّ أحدٍ وسبت في منزله. يقربني مِنْهُ تدريجياً كَأَنِّي مريده الوحيد. ربما كان من حُسن حظي أَنَّهُ كان يتحدث على الدوام عن ذكرياته مع جده أو مع والده أو مع أصدقائه، ففتح بِذَلِكَ الباب للكلام عني شخصياً. كان يستمع مني في البداية وهو صامتٌ حَتَّى ظننت أَنَّهُ يسمع كلامي على مضض،

ويبدو أنه أحسَّ بِذَلِكَ الشعور الذي اعتراني، فَقَالَ إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ تَفْهَمُ ذَلِكَ الإحساس بالغربة الغريبة، الذي يصيب أي وافدٍ يأتي للدراسة هنا في «جراتس»؛ لأنها مدينة علمية وطلابية.

- يجب أن تبحث عن نافذة تُطلُّ مِنْهَا برأسك عَلَى العالم الحقيقي؛ أيُّ إنسانٍ محتاجٌ إلى نافذة مفتوحة عَلَى الدنيا التي يتمنى أن يعيشها، شَيْءٌ أشبه بالسباح الذي يطفو كُلُّ دقيقةٍ لِيَأْخُذَ نَفْسًا مِنَ الأكْسِجِينِ ليتمكن من مواصلة السباحة.

- تقصد هوابية؟

- ولم لا؟ الهوابية أنقذت أناسًا أعرفهم من الجنون، أحد الأستاذة - عندها اقترب مني كأنه سيذيع سرًّا حربيًّا- ربما سمعت عنه بروفيسور «توماس فيونسكي»، أستاذ اللغات السامية، حاول الانتحار مرتين بعد أن هجرته زوجته وهربت مَعَ أحد تلامذته المقربين إلى فرنسا، لم يكن توماس يكبرُ زوجته كثيرًا، ثلاث سنوات تقريبًا، ولم أكن أَلْمَحُ عَلَى تعبيرات وجه «مارلين» زوجته أي شعور بالضيق من الحياة معه أو التأفف، بالعكس كانا بالنسبة لنا جميعًا مثالًا لعاشقين سعيدين، تزوجا بعد قصة حبٍّ استمرت سبع أعوام.

- ياه... بروفيسور فيونسكي جبل الثلج فكَّرَ يومًا في الانتحار؟

- لا أحد يعلم ماذا حدث بالضبط، حكى فيما بعد أَنَّهُ لَاحَظَ تَكَرُّرَ سفرها فتراتٍ طويلةً كُلَّ شهرين لمدة أسبوع كامل، وَكَانَتْ تتحجج بحضور معارض موسيقية وتدريب فرق موسيقية ناشئة في فيينا وباريس؛ حَيْثُ كَانَتْ تُدْرَسُ في معهد الموسيقى في جامعة جراتس. كان كلامها متضاربًا وأعدارها غير متماسكة، إِلَّا أَن «توماس» فَطَنَ أَنَّهَا كَانَتْ تسافر في نفس الأيام التي يطلب فيها تلميذه الفرنسي «مارسيل أوفراي» أجازةً لزيارة أمه المريضة في باريس... الحقيقة أَنَّهُ لم يلاحظ ذَلِكَ في البداية، إِلَّا أَن الشكَّ والقلق تسربًا إلى قلبه حينَ كان «مارسيل» يزوره في المنزل لمناقشة صفحات من رسالته للماجستير في الأدب العبري، ثمَّ بدأ يلاحظ أن تلميذه يلاحق زوجته بنظراتٍ غريبة لا تحمل إِلَّا مَعْنَى واحدًا، وكان يرى نظرات زوجته إلى تلميذه التي لم تكن تحمل سوى مَعْنَى واحدٍ أيضًا.

- وكيف عرفت أَنَّهُ يريد الانتحار؟ هل حاول الانتحار أمامك؟

تجاهل د. فالتر سوالي واستطرد مثلئذًا بسرد قصة صاحبه:

- اختفت زوجته صباح يوم أحدٍ باردٍ، وَعَلِمَ من إدارة الجامعة في اليوم التالي مباشرة أن تلميذه «مارسيل» قَدْ قَدَّمَ طلبًا للإدارة لتحويل المنحة العلمية إلى جامعة باريس لظروف قهرية، ثم اختفى حَتَّى قبل البتِّ في طلبه؛ كان تلميذًا شديد الذكاء. بعدها طلب مني «توماس» السفر معه إلى باريس في إجازة قصيرة، كنا في منتصف الثلاثينيات، ولم أكن قَدْ تزوجتُ من بيتاتي بعد، فصدَّقته، إِلَّا أَنَّهُ

كان يخطط في الواقع لملاحقتها، لَكِنَّهُ فشل في العثور عليها، فحاول إلقاء نفسه في نهر السَّين، وتمكَّنتُ من إنقاذه في اللحظات الأخيرة.

- أفتنَّعته؟

- لا... كَانَتْ ملامحه تشي بما هُوَ مُقبِل عليه؛ اتصلتُ بأختِهِ المقيمة في «باريس» وَكَانَتْ كثيرًا مَا تدعونا في منزلها لتناولِ الغذاء حينَ نزورُ باريس. فحضرتُ إِلَيْنَا وتحدثتُ إِلَيْهِ طويلًا؛ كَانَتْ أخته الوحيدةَ وكان شديد التعلق بها، فتمكَّنتُ من إقناعه بالعدول عن الفكرة. الواقع يا يونس أنني فكرت كثيرًا في الأمر بعد ذلك، ووصلتُ إلى نتيجة مفادها أن الأمر لن يستمر على هَذَا النحو؛ لم أستبعدُ فرضية أن يفاجئنا بإلقاء نفسه من نافذة تراسِ الفندق ونحن نفطر معًا في يومٍ مثلًا، أو يلقي بنفسه تحت عجلات القطار، فأفتنَّعته بالتفتيش في ذكريات طفولته، وعن هواياته وَهُوَ شاب، ثم خطرَ عَلَيَّ ذهني اقتراح الصعود إلى مكان مرتفع، يسافر إلى هضبة التبت مثلًا، فَلَمَّا استبعدَ الفكرة، نصحتَه بتأجير «منطاد هليوم» يصعد به إلى السماء لمدة ساعات.

- منطاد هليوم؟ جديدة...

لم يلتفت د. فالتر إلى مُقاطعتي واستمر في الحكي:

- كان «توماس» يحب قيادة الدراجات البخارية مُنذُ شبابه، فاقتُرحتُ عليه شراء دراجة بخارية، ولتكن BMW.... يبدو أنني أيقظتُ داخله حُلْمًا قديمًا، فاشتري بالفعل دراجة بخارية بمبلغ ١٠ آلاف شلننج نمساوي، وكان يقودها أيام الأحاد في طريق الدراجات السريع في «فيينا»، أخبرني أَنَّهُ كان يشعرُ بمتعةٍ لا وصفَ لَهَا وَهُوَ يضع الخوذة فوق رأسه، ثم يدوسُ البنزين منطلقًا بأقصى سرعة، فيهرسُ - بتلك الضغطة فوق دَوَاسة الوقود- كُلَّ شَيْءٍ وراءه... النَّاسُ والزمن والذكريات... كان الكونُ يتلاشى أمامه وَهُوَ يقود دراجته، حَيْثُ يفرغُ شحنة الطاقة، وربما الحنق والغَيْظُ من خيانة زوجته وتلميذه... المهم أَنَّهُ استطاع شيئًا فشيئًا أن ينسى الموضوع برمته في غضون سَنَةٍ واحدة.

- وَمَا هِيَ نافذتك؟

- عادةً أقضي المساء في حديقة المنزل أتأملُ كُلَّ شَيْءٍ حي يحيطُ بي... الزهور، الأشجار، قفصِ العصافير الذي أصطحبه معي في الحديقة كُلَّ مساء، لكنني عندما تقدمتُ بي السنُ اكتشفتُ أن كُلَّ شَيْءٍ يرحل ويذوي...

- هل هَذِهِ هِيَ نافذتك؟

- لا، هَذِهِ هِيَ الأشياء التي لم تسألني عنها، سأخبرك... نافذتي هِيَ خرائط المُدن القديمة، أجبُّ تأملَ خرائط الإمبراطوريات القديمة التي تبدتْ وذوت مَعَ الزمن... المُدن والعواصم الشرقية القديمة

وزياراتها وتأمل عماراتها وألوانها... هل سافرت أصفهان أو لاهور أو سمرقند قبل ذلك؟

- للأسف لا...

- أنا مولع بتأمل تمازج الألوان المختلفة في الأحجار والبشر أيضًا...

- البشّر؟

- أنصحك يومًا بالسفر إلى «سمرقند» أو إلى «مزار شريف» في أفغانستان أو إلى «أصفهان»، أو «تاج محل» أو «لاهور» في باكستان وأن تتأمل روعة العمارة هناك، وتراقب تمازج الألوان وتعاشيق النحت على الجدران، هذه جنان الله على الأرض، كل مبنى من تلك المباني يحمل سرًا عميقًا وراءه، روعة دفينة لا يبوح بها إلى لمن عشقه...

- وهل باحث لك؟

- كله مكتوب (نطقها بعربية واضحة)...

- تقصد مكتوب على الجبين أم في أوراقتك؟

- وما الفرق؟

ولم يرد من جديد، كأنني بعد هذه السنوات لم أستطع هدم حائط الأسرار الذي أمامي، استرعت كلمة «باكستان» انتباهي، ولم أكن أعرف عن باكستان وقتها إلا ما كانت تبثه الصحف في جوهنا.

- باكستان؟ هل تسمح بسؤالك ماذا كنت تفعل في باكستان؟

- كنت بصحبة د. معين الدين إحسان، وهو بروفيسور نمساوي من أصل باكستاني وأستاذ الدراسات الشرقية في جامعة فيينا، حكى لي عن طيبة أهل باكستان وتمسكهم الشديد بالتقاليد الإسلامية ومعاناتهم الطويلة لتأسيس دولة مستقلة عن الهند، الطريف أنه قال لي إنه بالرغم من ذلك التشدد الذي يضرب الحياة الدينية هناك، فاسم باكستان وتعني الأرض الطاهرة ورد أصلًا في قصيدة للشاعر الصوفي «محمّد إقبال».

جذب د. فالتر زجاجة الماء الفوار «بيرييه» من أمامي وصب نصفها في الكأس وتجرع شربة، ثم واصل:

«المهم أنني طلبت منه وقتها زيارة أشهر المراقد الدينية للعارفين المدفونين هناك، يمكنك القول إنني مغرم بمراقد العارفين والصوفيين من جميع ديانات العالم، أذكر أن بروفيسور إحسان صحبني في جولة إلى ضريح «عبد الله شاه غازي»، وهو أسطورة باكستانية تربض مثل العقاب فوق جبل

شاهق. كان المكان عبارة عن ضريح ومسجد صغير مقام فوق هضبة، يضم بيّن جنباته بهاء عمارة المساجد الآسيوية المزركشة بلون فيروزي لافت، وزخارف وآيات قرآنية، لمحت درّجات سلم ذات اتجاهين مفروشة بسجاد أحمر، إلى اليمين طريق الصعود وإلى اليسار طريق الهبوط...

- وهل زُرْتَ الضريح؟

- ولماذا ذهبت؟ طبعاً زُرته، يومها استأجر د. إحسان سيارة أقلتنا من مكان إقامتنا في كراتشي إلى الضريح، كان المكان مُحاطاً بدكاكين مرتفعة مثل علب كبريت كبيرة يجلس داخلها أصحابها متربعين مثلما رأيت في بومباي ونيودلهي، وكانوا يبيعون تذكاراتٍ وسبجاً وبخوراً... حين دخلنا المقام كان هناك عددٌ كبيرٌ من الناس يقرؤون القرآن ويرفعون أكفهم بالدعاء والتسبيح...

- عندنا في مصر يفعلون ذلك في مسجد السيدة زينب والسيدة نفيسة والحسين...

- أعلم... لكن هذا المرقد له حكاية غريبة، يُقال إن أسطورة ترقد أسفل الضريح؛ لأن الهضبة المقام فوقها الضريح، يجري أسفلها نهرٌ صغيرٌ، ولأ أحد يعلم كيف تتعلق الهضبة فوق المياه... من المعروف أن «كراتشي» تقع في منسوبٍ منخفضٍ عن سطح البحر، فكيف لم تُغرقها مياه البحر؟

- وماذا قال؟

- حينما سألت د. إحسان وقتها عن تفسير علمي، أجابني إجابة غريبة شككت بعدها في كون الرجل قد درس في النمسا ونال في جامعتها درجة الدكتوراه!!

- لا أفهم؟

- قال إن الأساطير الأردية القديمة السابقة على الإسلام في شبه القارة الهندية تقول إن العارف أو الكاهن الذي يرقد على قمة جبل أو هضبة تجري من تحتها الأنهار، يحفظ ببركته المدينة وأي مبنى مقام عليها من الماء. ويبدو أنه أحس وقتها أنني لم أرحب بهذا التفسير الأسطوري، وإن كنت غيرت موقفي بعد ذلك بفترة قصيرة بعد تجربة ماء، إلا أن الرجل حاول تغيير دفة الحديث وتلطيف مسار كلامنا، وأخذ يتحدث عن معاناة فقراء باكستان في الحصول على لقمة العيش، ثم روى لي ونحن نتناول الغداء في أحد مطاعم كراتشي قصةً طريفة عن كيفية حصول الفلاحين الباكستان على جلود الثعابين الخطرة في صحارى خاران في منطقة بلوشتان وبيعها بأثمان باهظة للتجار الأوروبيين...

- أكيد بأدوات حادة... يعني مثلاً ينصبون شباكاً أو ما شابه؟

- لا... الأمر أكثر قسوة... يقوم الصيادون ومعظمهم من القرويين باصطياد الحَمَام وقتله دون فصل رأسه عن جسده، ثم يقومون بملء جوف الحَمَام بكيس رقيق مملوء بالجير الحي، ويلقونه في أماكن تجمع الثعابين لجذبها بالطعم، وينتظرون حتى يلتقم الثعبان الحَمَامَة المحشوة بالجير الحي، فيختلط

الجيرُ بالماءِ والسوائل التي يحتويها جسدُ الثعبان، فيحترقُ الثعبان على الفورِ وينفجرُ، فيأخذون في جمع جلود الثعابين وتطيفها ومعالجتها وبيعها للتجار...

- حيلة قاسية!...

- أكيد، لكنّها لَيْسَتْ أفسى من طبيعة الفقر المدقع الذي يعانيه معظمهم.

- هل تحبُّ زيارة الخانقوات والأضرحة الدينية؟

- في جراتس؟

- أنت محتاج قهوة؟ طبعًا لا... في الهند، سمرقند، إسطنبول، القاهرة، أصفهان...

- ولمَ لا... هل تسافر قريبًا؟

- لا أعلم... أحيانًا أتلقى دعواتٍ من جامعاتٍ ولا ألبّيها... سأخبرك إذا سنحتُ فرصة.

المشهد الخامس

كُلُّ حِكَايَةٍ هِيَ خُطَّةٌ مِثَالِيَّةٌ أُدْرِجَتْ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ

(بورخيس)

- أهي التي تصيح من جديد يا سارة؟

- ومن غيرها؟ والله أنا أحس يا يونس أنها ليست أمهما... ما هذه القسوة؟

- الوحدة والتجاهل قد تقود أي امرأة إلى الجنون... أعتقد أنها لا تتحدث إلى الطفلتين...

- ولمن إذن؟

- لمن تركها هكذا... ولكن ما ذنبنا في أن نسمع هذا الصياح والزعيق المتواصل؟

- حرام عليك يا يونس... أغلب النساء تعيش تلك الحياة؛ لأن أقرب الناس إليهن هجروهن... أكاد أموت من القهر حين أسمع صوت الطفلتين وهما تبكيان...

- لو كان أحدٌ غيرنا يسكن الشقة، لاتصل بالشرطة فوراً...

بعد زواجنا، انتقلنا لشقتنا الصغيرة قريباً من الجامعة. اكتشفت في الأيام الأولى أن نافذة حجرة نومنا مقابلة لحد الالتصاق - نافذة جارة تسكن في شقتها مع طفلتين صغيرين، لا تتجاوز أكبرهما خمس سنوات.

كان صوت الأم الشابة صاحباً هادراً على الدوام وهي تنهر طفلتيها بلغة خمنت أنها روسية أو على الأقل سلافية. لم يكن يعلو لها الصياح إلا في الصباح المبكر حين نستيقظ أو بعد العاشرة مساءً حين نذهب إلى فراشنا، كانت وهي تنادي طفلتيها لتناول الفطور أو العشاء تصيح كأنها تنادي أحداً من فوق جبل.

كنت أكاد أنفجر ضحكاً حيناً، وحرزاً في معظم الأحيان، حين أسمع توبيخها لطفلتيها؛ بل كنت أراهن سارة أن كلا الطفلتين تفان أمام أمهما وتحدثان في بلاهة وهما لا تفهمان بالطبع - كلمة واحدة من كلام الأم.

«... إياكي أنتِ وَهِي أن تظنان أنني سوف أقبلَ القدم تحت أقدامكما كي تأكلًا... لن يهمني إذا أكلتما أم لم تأكلًا طوال النهار»...

ناديتُ سارةَ بسرعةَ وطلبتُ مِنْهَا أن تسمعَ كلامَ الْمَرْأَةِ إلى طفلتيها. كَانَتْ سارةَ مترددةً ربما بوزاعٍ من ضميرٍ أَوْ خجلٍ لتسترقَ السَّمْعَ عَلَى الجيران، إِلَّا أن الصياح كان مُدويًا، فاستجابت، وأرَهَفَتْ السَّمْعَ وَهِي متواريةٌ إلى جوارِي خَلْفَ الستارةِ الداكنةِ.

«... عندما يقرصكما الجوع سوف تخرجان مثل الفئران الجائعة لقرض أي شيء. أطباق الطعام في المطبخ... أريد أن أرى كيف ستسلقان الكرسي المرتفع والوقوف عليه لجلب الأطباق».

بعد فترة قصيرة، تعرَّفْتُ سارةَ إليها وأخبرتني أن اسمها «ميرا»، من أبٍّ روسي وأمٍّ مَجْرِيَّة. شابةٌ طويلةٌ ونحيفةٌ للغاية لَهَا وجهٌ شاحبٌ عَلَى الدوام. لديها توأمٌ في سن الخامسة: «زورايا أورتيانيا» والثانية «زورايا فيشرنيايا». كَانَتْ تعمل من منزلها كمصمِّمةٍ مواقعٍ إلكترونيةٍ للشركات الصغيرة المؤسسة حديثًا، وتقضي ساعاتٍ طويلةً أمام شاشة الكمبيوتر، تاركةً طفلتيها تلهوان أمامها، إِلَّا أَنَّهَا لم تُشِرْ قَطٍ إلى زوجها الغائب، فالتزمتُ سارةَ الصمتَ. سألتُ سارةَ:

- زورايا وَلَا ثريًا؟ أراهنك أَنَّهَا أسماءٌ شرقيةٌ... أسمتُ الطفلتين الاسمَ نفسه؟

- حين سألتُها، قَالَتْ إِنَّهَا أسماءٌ سلافيةٌ قديمةٌ؛ فالأول اسمٌ قديمٌ يعني نجمة الصباح التي تَفْتَحُ بوابات السماء لدخولِ الشَّمْسِ، والثاني اسم نجمة المساء التي تغلق بوابات السماء بعد خروج الشَّمْسِ.

- غريب! كلامك يَقُولُ إِنَّهَا متعلمةٌ... لماذا هَذِهِ القسوةُ في معاملة البنات؟

- لا أعرف يا يونس... لاحظتُ أَنَّهَا متوترةٌ في أغلب الأحيان حَتَّى ونحن نشرب الشاي... تجزُّ عَلَى أسنانها دائمًا وَهِي تتحدث كأنها تمضغ لحمًا نيئًا، وتهرُسُ رأسها بعنفٍ باستمرارٍ... المهم أنا مشفقةٌ عَلَى الحالة النفسية للبنيتين... حالتها بتصعب علي كثير... لا أعرف ما الجرائم التي يمكن أن ترتكبها طفلتان لم يبلغا الخمس سنوات كي تتلقيا ذَلِكَ الصراخ والتوبيخ كلَّ يوم... وربما كل ساعة!

- مساكين... شكلها كبيرة في السن يا سارة...

- لا... عندها ٢٩ عامًا فقط!

- أواخر العشرينيات وأمٍّ مَجْرِيَّة... وبدون رجل... من حق أعصابها أن تتعب...

- يونس... نيتك لَيْسَتْ صافية...

- أنا أيضًا مُشفقٌ عَلَى البنات، عِنْدِي فكرة؛ اقترحي عليها بشكلٍ غَيْرٍ مباشرٍ أن تقرأ على طفلتيها قصصَ أطفال، قَدْ يخففُ هَذَا التوترَ عنها وعن البرينتين...

- قصص؟

- أو لو كنت تشعرين أن علاقتك طيبة بها، فاذهبي إليها واقراي قصصاً على مسامع الطفلتين؛ ربما يساعد هذا الطفلتين وربما الأم أيضاً...

- ولكنني لا أجد قصص الحوادث!

- جرّبي... قولي فقط «كان يا ما كان... يا سادة يا كرام»، وستأتي الحكايات وحدها... هكذا تعلمت من أمي.

- لقد أغضبت «كريمة» أمس يا لؤي، واشتكت لسارة، تحمّلها قليلاً ولو كانت عصبية... ربنا معها، ربنا زرقما بتوأم يا صديقي، الله يكون في عونها...

- والله ما أغضبتها يا يونس... هي صارت حساسة جداً...

- ليكن ببالك، كريمة بنت بلادي، اشتر لها زهوراً يا صديقي، المصريات يحبين الزهور...

- ممكن تأخذ الزهور وبعديها تعفش عليّ يومي يا يونس...

ضحك ضحكةً مجلجلةً في الشارع وانصرف، فرفعت كفي مودّعاً إيّاه.

في الأسبوع الأخير تقريباً قبل الولادة، أصبحت سارة تقيم بشكل دائم في منزل حماتي، تحسباً للحظة وضع قد تُباغتها في أي وقت.

كان الوقت في شهر يناير. في هذا اليوم، خرجت للتمشية قليلاً بعد انتهاء عملي بأحد مكاتب الترجمة. كانت الساعة لا تزال الواحدة ظهراً. كنت سعيداً بمبلغ ضخم تلقّيته نظير ترجمة مجموعة عقود وتوكيلات تجارية لتأسيس شركة عربية في جراتس.

تمشيت قليلاً أتأمل ملابس الأطفال حديثي الولادة، حتّى لمحت سيدة تدير ظهرها إليّ وهي تمسك بخرقة تنظف بها زجاج مكتبة مدفونة في بناية قديمة، تخيلت أنني رأيتها من قبل. إلى جوارها وقف رجل طويل يرتدي أفرولاً وحذاء مطاطياً يقوم بكنس الجليد بشوكة مدورة الأسنان.

اقتربت من واجهة المحل، وكأني أتأمل عناوين الكتب المعروضة من الواجهة الزجاجية، دققت النظر قليلاً فاكتشفت أنها «فاتيمات» صاحبة كشك الكتب القديمة التي كانت تقف أمام الجامعة منذ عامين. هي أيضاً عرفتني سريعاً واستقبلتني بنفثة سيجارة كثيفة في وجهي. أخبرتني أنها استأجرت هذا المكان، وكان في الأساس مخزن أخشاب وحوّلته إلى مكتبة لبيع الكتب القديمة.

بدا لون الطلاء البرتقالي للمكتبة مُضحكًا بعض الشيء؛ كان مُغايِرًا للون طلاءِ سائرِ المباني المحيطة. دعنتي لزيارة المكتبة من باب صغير محشور في المبنى السكني الضخم الذي يحوي المكان في جِبره. في الداخل رأيت سيدة مُسنة تمسك بقطعة من القماش وتتنظف رفوف المكتبة وهي تسعل سعالًا متواصلًا، وأخبرتني أَنَّها أختها.

- قبل وفاتها، أوصت لي «السيدة أوديت» بنصف محتويات مكتبتها

- أوديت تُوفيت؟ متى؟

- مُنذُ ستِّ شهور تقريبًا... أنا أيضًا فوجئتُ بالخبر مثلك... علمتُ أَنَّها أُصيبتُ بقرحة مزمنة في القولون بسبب الإفراط في التدخين والكحول، تحوّل إلى مرضٍ خبيثٍ، جرى كُلُّ ذلك في شهور... سألتني عنك أكثر من مرة.

- عني أنا؟ ماذا قالت؟

- كَانتِ تسأل إن كنتُ أراك، وإن كنتَ قد تزوجت... فأخبرتها أَنَّ العلاقة بيننا لَيْست قويةً لهذا الحد...

بقدر ما حزنْتُ على وفاتها، حزنْتُ أكثر على نفسي؛ لم أفكر وَلَا مرةً واحدةً في زيارة «أوديت» والسؤال عنها. أهدتني المرأة كنزًا كان السبب في اقترابي من د. فالتر، ولم تبخل عليّ بما كنت أريد، وبخلتُ عليها بكلمة أو زيارة.

لم تكن ثمة نافذة واحدة مفتوحة. أشحتُ بوجهي ناحية اليمين تقاديًا لدخان سيجارتها الذي كوّن سحابة دخانٍ كثيفةً فوق رأسي. قالتُ فاتيما:

- لم أعرف ساعتها كيف أتصرف، كان حجم الكتب هائلًا وليس لديّ المكان المناسب لاستقباله وفي الوقت نفسه لم أكن لأغامر برفض هذه الهدية...

- هدية... ! هذه ثروة قومية وليست هدية...

- صحيح... لكن «ليديا» ابنتها ساعدتني في البحث عن مكانٍ أستأجره لبيع الكتب...

- وباقي الكتب؟

- لا أعرف... لكنني أحسستُ أن سبب مساعدة «ليديا» كان الاطمئنان إلى أن الكتب سترقد في مكان آمنٍ ومعلومٍ لدى أسرتها...

- مكان يحبهم ويحبونه... الله يرحمها... هل كان لديها أبناءٌ آخرون؟

ابتسمت «فاتيماء» دون سبب، ثم انزلت من أمامي مثل ثعبان بحر يقفز إلى الماء؛ التفت ورائي فرأيت زبوناً يحمل سيجاراً فحماً، فضحكت. سألتها عن مكان الكتب العربية القديمة، فأشارت دون الالتفات إلى أقصى يسار المكتبة.

كانت الكتب مرصوفةً رأسياً فوق رفوف حديدية، وإلى جوار كلِّ قائم معدني، ورقةً كرتون برتقالية تحمل أسماء المؤلفين بترتيب أبجدي. لم أكن أعرف أحداً منهم، اللهم إلا شذرات قليلة حول «حافظ الشيرازي» و«سعدي» و«القطار» و«جلال الدين الرومي» بعد اطلاعي على ترجمات المستشرقين النمساويين له.

أخذت أتأمل العناوين حتى وقع بصري على مجلدٍ ضخيم، ذي غلاف من الجلد الغامق؛ كان كتاب «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار مترجماً إلى الإنجليزية، بترجمة رينولد نيكسلون، طبعة لندن ١٩٠٥. فتحت الغلاف متأملاً الفهرست. عثرت في الصفحة الثالثة على ثبوت باللغة الإنجليزية بأسماء عددٍ من المتصوفين. كانت صفحات الكتاب مهترئة، إلا أن الكتاب قد أعيد تغليفه من جديد للحفاظ على مظهره.

قلبت الصفحات بسرعة، لفتت نظري ورقة صغيرة؛ علامة وضعت عند ترجمة حياة أحد المتصوفين، كان الاسم شبيه مطموس، حاولت قراءة الاسم... Abo El Hassan ...

لم أكد أكمل قراءة النصف الثاني من الاسم، حتى فاجأني رنين جرس هاتفٍ المحمول. أغلقت الكتاب وأعدته إلى موضعه، كان صوت حماتي «بكر الطولاني»، طلب مني سرعة الحضور إلى مستشفى جامعة جراتس المركزي، لأن سارة على وشك الولادة. تركت كل شيء وهربت إلى المستشفى ركضاً.

وصلت المستشفى وسألت عن زوجتي، فأخبرتني موظفة الاستقبال أنها في «كشك الولادة» الكائن في الدور الثاني. صعدت السلم قفزاً وفرحاً، ولكن «فيروز» كانت قد سبقتي... دائماً ما تسبقني فيروز... ولكن هذه المرة إلى الدنيا.

أخذت سارة تنقل بصرها بيننا بعيونٍ واهنة، وملامح تقوُّح بألم مكتوم بعد أن زال أثر المخدر. قالت حماتي: «سارة لديها قدرة رهيبية على تحمل الألم، لا تشكو أبداً».

اقتربت منها وقبلت رأسها، «الآن اكتمل نور حياتنا يا سارة... فيروز وسارة... قلبي وعيني». شككت سارة من فيروز؛ لأنها ظلت موليةً وجهها نحو باب الحجر، حتى دخلت أنا.

أجبت بقبلية على جبينها، ثم على جبين فيروز التي كانت ترقد جوارها، وقلت لها: «فيروز لم تفارقني يا سارة كي تبحث عني».

طلبتُ الإقامة في المستشفى مع فيروز وسارة هذه الليلة حتى الصباح للاطمئنان عليهما، فسمحت لي إدارة المستشفى بالمبيت في الغرفة هذه الليلة فقط.

استقيتُ على المقعد المقابل لسرير سارة، وبصري يتأرجح مثل بندول الساعة بينها وبين «فيروز»، وقد غط كلاهما في نوم عميق. كانتا أبهى من قمرين في الظلام، فسحبتُ المقعد ناحية الباب وجلستُ أحرصُ بوابة السماء.

أخرجتُ هاتفي المحمول، وأرسلتُ رسالةً إلى لؤي، أخبره أن سارة قد وضعتُ، وطلبتُ منه إبلاغ سكرتارية القسم أنني لن أتمكن من الحضور غداً، ثم لحقتُ بهما بعد ذلك بدقائق.

استقيتُ في الساعة تقريباً على صوت هاتفي المحمول، وشعاع شمسٍ قوية يتسللُ بين ثنايا نباتٍ متسلقٍ عبر النافذة ليغمُرَ أرجاء الغرفة. كانت سارة وفيروز غارقتين في بحر الأبرياء الهادئ. نظرتُ إلى شاشة الهاتف، فوجدتُ رقم بروفيسور فالتر. جاني صوتهُ هادئاً، سألتني عن صحة زوجتي فأجبتهُ خيراً، ثم سألتني عن صحة المولودة فحمدتُ الله.

- مبروك على مولودتك... أتمنى أن ترى «بياتريس» تنمو وتكبر أمام عينيك...

تسمرتُ ثواني من ذكر اسم «بياتريس» على لسان د. فالتر، فصححتُ الاسم بطريقة لائقة:

- لقد استقر أمرنا سارة وأنا على اسم «فيروز»...

- سنظل الزهرة الجميلة تطلق عطرها، حتى ولو أسموها أي اسم آخر...

لماذا يتذكرُ موضوع «بياتريس» الآن؟ في يوم ميلاد ابنتي، انتابني شيء من الضيق بعد هذه المكالمة، فإطلاق اسم «بياتريس» على طفلي فأل سيئ، ولم أكن أتوقع ذلك... منه هو تحديداً.

كانت فرحتي بميلاد «فيروز» مختلفة؛ فرحةً ممزوجةً بنوع من القلق والخوف عليها من كل شيء، بل حتى من أصابع الممرضة وهي تقوم بتبديل ملابسها لتضعها في السرير إلى جوار «سارة».

ويبدو أن حماتي «كيرستين» قد لاحظت هذا القلق، لكنها كانت تربتُ فوق كتفي وتقول إن ذلك شعور طبيعي.

- أنا أيضاً انتابنتي مثل هذه المشاعر حينما ولدت «سارة».

اعتدنا على الاحتفال بعيد ميلاد «فيروز» في منزل حماي، وكانت حماتي «كبرستين» تدعو عددًا قليلاً من صديقاتها وأحفادهن، بينما لم أكن أدعو سوى لؤي وزوجته «كريمة» وطفليهما التوأم «إياد» و«عمر»... اللذين ولدا قبل «فيروز» ببضعة شهور.

حين كنتُ أحملها من سارة، لم تكن «فيروز» تُجسُّ بأصابعي وهي تلتفتُ حول وسطها؛ كانت تسرعُ ملقياً برأسها الصغير فوق صدري، ثم تقرد رجليها الصغيرتين حول خصري، وكفيها الرقيقان يلمسان بالكاد أول ذراعي.

وحيثُ أتمتُ «فيروز» عامها الأول، وبدأتُ في الحبو والجلوس، ثم مناغاتي بكلماتٍ كان يقول عنها الناسُ إنها كلماتٌ غير مفهومة، كنتُ أخبرهم أن ثعابها بالنسبة إليّ كمنطق الطير الذي لا يفهمه سوانا.

انقضت السنوات سريعة حتى بلغت «فيروز» أربع سنوات. قالت سارة إنها تكبرُ الآن يوماً بعد يوم، وتحتاج إلى بضعة مني، وطلبتُ أن أخصص مزيداً من الوقت للجلوس مع فيروز.

- لماذا لا تشتري لها شيئاً مميزاً تستطيع فيروز أن تتذكرك به كل يوم يا يونس؟

- وهل تتساني «فيروز»؟

- حبيبي... لا أفصد النسيان... لكنّها طفلة، كما أنّها متعلقة بك على الرغم من قلة ساعات وجودك إلى جوارها... فكر في أي شيء يا يونس... غلبة ألوان... أوراق ملونة... يجب أن تكون روحها على تواصلٍ مستمرٍ معك، أنت خارج المنزل أغلب الوقت... بين الجامعة والمكتبة ومكاتب الترجمة، وأنا لا أريدها أن تفقد التواصل معك.

لمعت في رأسي حيلةٌ كانت أمي قد ابتكرتها لتعلمني حروف الهجاء وأنا صغير؛ حروف الأبجدية على شكل قطع خشبية ملونة من حرف (أ) إلى حرف (ي)؛ كانت تطلب مني ترتيب كلمة جديدة أتعلمها كل يوم، ووضعها فوق لوح خشبي.

بحثت عن شيءٍ شبيه في محلات اللعب ووجدتها؛ الحروف الأبجدية اللاتينية على شكل قطع معدنية ملونة من حرف A إلى حرف Z، مزودةً بمغناطيس من الظهر يتيح لصقها فوق الأسطح المعدنية، فكنت أطلب من فيروز أن تختار كلمة مما تعلمته في «KG1» وتضعها فوق سطح الثلجة من الأسفل بحسب ما تطول قدمها. كان ارتفاع الثلجة ١٤ قدم، أي حوالي ١٦٠ سم تقريباً.

رصدت فيروز كلماتٍ كثيرة، إلا أنّ قدمها لم تستطع أن تبلغ سوى ربع الارتفاع فقط، وتوقفت عند ذلك.

كنت قد اعتدتُ أنا وسارة زيارة محلاتِ الزهور في جراتس. كانت فسحةً مبهجةً؛ نطوفُ الشوارع مساء كلِّ جمعةٍ. وقد نتوقفُ ونشترى قهوة و«كرواسون» من Tschibo، وقد تُعجبها حقبةً أو حذاءً جليدياً، فأفرغ كلِّ ما في جيبِي وأشترى لها ما تشاء لنواصل جولتنا في المدينة، حتَّى نصل إلى المنزل.

كُنَّا نسقي زهرتنا الوليدة صباح كلِّ يوم فور استيقاظنا؛ حيثُ تمسكُ «سارة» بأحد جانبي الدورق الزجاجي، وأمسكُ أنا بالطرفِ الآخر للدورق، فتشربُ الزهرة حتَّى نرتوي.

ولدى عودتنا في المساء، كُنَّا نفعَلُ الشيء ذاته؛ نسقيها، ونخذُ إلى فراشنا بعد أن نطمئن إلى أنَّها قد لملتُ أوراقها لتنام في مكانها مثل زهرة اللينوفر.

ثمَّ جاء يومٌ أصفر؛ كان اليومَ الذي وجدنا فيه زهرتنا قد ذبلتُ، وأشرفتُ أوراقها على السقوط، فبدتْ أجزاءها مُصفرةً فوق سطح الطين الذي يملأ الإصيص، حاولنا لملمة أوراقها الذابلة، وسقيها من جديد بالماء لعلَّ الحياة تدبُّ فيها، وبكنا طويلاً، حتَّى كادتْ دموعنا تملأ الإصيص، وتفيضُ من جنباته، لكن حتَّى نهرًا من الدموع لم يكن ليفعل شيئاً.

لم نصدِّق أنَّ الزهرة قد ذبلتُ، ولم يتبقَّ منها شيء. لم نتخيَّل قط أننا سوف نفتحُ عيوننا كلَّ صباح على «إصيص» فارغ... مهجور... لا تملؤه «زهرة العمر»، ولا يمكننا شراء زهرة جديدة؛ هي أشياء لا تُشترى.

لم أعد ألمح الحروف المعدنية مرصوفةً فوق سطحِ الثلاجة لنقول كلمةً جديدة؛ لم يكن هناك سوى حروف مبعثرة تائهة فوق سطح معدني باردٍ تبحثُ عن صاحبها التي غابت.

لا أذكرُ أين قرأتُ أن كلَّ الإجابات تكمنُ داخلنا، وأنا نعرفُ أكثر مما هو مُدَوَّن في الكتب، ولكي نتذكَّر الإجابة عن أسئلتنا الحائرة علينا أن نقرأ، وتأكَّدتُ داخلي هذه العبارة، حين أهدتني المرحومة د. أوديت مسكوني النسخة الخطية الوحيدة من كتاب «في ذكر ما جرى ليونس السَّمان وزهور البستان» للمتصوف المصري سناء الدين الأجهوري. لم يدُرْ بخلدي قط أنني سوف أكون الكتاب ويكونني.

حينَ تصفحتُ الكتابَ للمرة الأولى قبل إهدائه للدكتور فالتر، غزاني شعورٌ غامضٌ أن علاقة ما تربطني بهذا الكتاب؛ شيء لا يمكن تفسيره بالكلمات، وكأنَّني حرفٌ أو كلمة أو جملة من هذا الكتاب العجيب، بل تطور الأمر، فأحسستُ أن حكاياتِ الكتاب قد فارقتهُ لتسكنَ أحلامي.

كانتُ أمي تقول «لكلِّ كتاب جسد وروح»؛ جسده الأوراق التي بين يديك، وروحه الحكايات التي تقارق الأوراق لتسكنَ خيالك. لكن كتاباً وحيداً في حدِّ ذاته لا يعني شيئاً؛ هناك حاجة دائمة لقارئ

قادر على إدراك المغزى من الرموز الإشارات والكلمات والأشياء.

وكنت أنا هذا القارئ؛ فانتقلت روح «يونس السَّمَان» إليّ بمجرد أن لامست صفحات الكتاب؛ وحين مضيتُ في قراءة أول صفحة، خطرَ لي أنني أحلمُ أحلامَ رجلٍ آخر، وأنَّ أحلامَ هذا الآخر تتحققُ داخلي.

فشغفتُ بالكتاب دون قراءته واكتفيتُ بالأحلام، ثمَّ أصبحتُ مجذوبًا إليهِ، قبل أنْ أهبه للخواجة بمحضٍ اختياري. ومضتُ السنوات والأحداث، فتداخلتُ حكايات الكتاب معَ حكاياتي، حتَّى فقدتُ القدرةَ على التمييز أيها ينتمي لابن السَّمَان وأيها ينتمي إليّ. وحين رُدَّت البِضاعة، سَحَرَنِي الكتابُ مِن جديد، وعثرتُ فيه على حكايةٍ غريبة، دفعتني لأتساءل: هل صحيحُ أنْ بُسْتَان الكون يُورق زهرتين، فتصيران واحدًا في النهاية؟

في صباح أحد الأيام فتحتُ بابَ الشقة فوجدتُ طردًا مُرسَلًا مِن سكرتيرة القسم، يحوي كتابًا مُجلَّدًا في غلافٍ أسود، فتحتُ الغلاف فوجدتُ تعليقًا مدونًا بخطٍ رقيق على الورقة الأولى:

«عثرَ عليه تلميذي ذو النون المصري في سبتمبر ٢٠٠٥»...

كنتُ قد نسيتُ موضوع الكتاب الذي أخذته من د. أوديت مسكوني في منزلها منذُ سنوات، وعليه إهداء الأب أنستاس ماري الكرملِي إلى جَدِّ د. فالتر، كما نسيتُ وعده بإرسالِ نسخةٍ من الكتاب إليّ.

واليوم، وبعد انقضاءِ سنواتٍ يتذكُرُ د. فالتر أن يبعث لي بنسخةٍ من الكتاب. لم يكن الكتاب ثقيلًا كما شعرتُه أول مرة، تخيلتُ أن حجمه قد صَغُرَ قليلًا؛ فلم يكن بنفس «الثخانة» التي لمستُه بها قبل أربع سنوات. قلبتُ الصفحةَ وبدأتُ في تصفح العنوان:

«في ذكر ما جرى ليونس السَّمَان معَ زهور البستان»، لسناء الدين مُحَمَّد بن سليمان الأجهوري المصري: ذكر سنة تسعين وسبعمئة».

في البداية كانت هناك مقدمة مذيِّلة بتوقيع الأب أنساس ماري الكرملِي، قرأتُ فيها:

«... بينما كنتُ أتصفحُ خلال الشتاء الماضي مخطوطاتٍ، وردتني من تاجرٍ مغربي من مدينة طنطا المصرية اسمه أبو الطاهر الصنهاجي، باعني إيَّاهَا لتعذره في المال. عثرتُ على مجموعة أوراقٍ منفرطةٍ نسخها عن مخطوطٍ قديمٍ بخط صاحب المؤلف. قرأتُ الأوراق فراعني أسلوبُ صاحبها، وعلى الأخص قصةٌ عجيبةٌ حول شابٍّ مصري اسمه يونس السَّمَان، فعزمتُ أمري على تحقيق المخطوط وتهذيبه وتشذيبه، وطبعه على نفقة دير الأباء الكرمليين.

«حكاية يونس السَّمَان وزهور البستان»

نيل مصر المبارك في هذه السنة: ماء النيل الطهور خمسة أذرع وخمسة عشر إصبغاً، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وسبعة عشر إصبغاً: اللهم زد وبارك.

اللهم يا مُنزل الأمطار، وكاشف الأسرار، ومسلخ الليل من النهار... يا مُنجد كُلِّ مطرود، وراَدَ كُلِّ مفقود، وموسع كُلِّ مسدود، ومُحيي كُلِّ قلبٍ موؤد... أنزل عَلَيَّ الفيوض.

أنا الفقيرُ، النَّاسِي دَائماً لِفَضْلِ رَبِّهِ، المُتَذَكِّرُ بِفَضْلِهِ شَكَرَهُ... سناء الدين مُحَمَّد بن سليمان الأجهوري المصري، أعمل صَانِعاً في الطين، فأصنعُ مِنْهَا الأنية وأبيعها، بعدَ أَنْ جَاءَنِي فِي الحُلْمِ أَنِّي أرى نَفْسِي أمامَ مرآةٍ فأصنعُ مِنَ الفَخَّارِ طِيناً، فَطُنْتُ إِلَى رِسَالَةِ رَبِّي، وَعَزَمْتُ عَلَى تَغْيِيرِ دَرَبِي.

بعدَ أَنْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَأَلَيْتُ عَلَى نَفْسِي لِرُؤْمِ جَبَلِ المَقْطَمِ، عَابِداً مُتَبِتلاً إِلَى اللَّهِ، بدأتُ فِي كِتَابَةِ هَذَا الكِتَابِ وَفِيهِ أَخْطَأُ مَا رَأَيْتُهُ طَوَّلَ عُمُرِي مِنْ حِكَايَاتٍ وَأَقَاصِيصَ غَرِيبَةٍ.

وأغرب ما أبصرته وباشرته، ذَلِكَ الشابُّ المكلوم والقلبُ المصدوم «يونس بن سعيد السَّمَان»، وَهُوَ شابٌّ مِنْ صانِ الحجرِ فِي دلتا مصر، حاله غُلبٌ وهَيْئته كَرْبٌ، سألتُني إصيصاً مِنَ الفَخَّارِ كِي يَضَعُ فِيهِ طِيناً وَيُروِيهِ بِماءِ دَمْعِهِ، فَلَمَّا سَأَلْتُهُ عَنْ حِكَايَتِهِ وَأَصْلِ بَلُوتِهِ، حَكَى لِي حِكَايَةَ احْتَرَّتْ فِيهَا وَإِنْ أُعْجِبْتَ بِمَعَانِيهَا، فَأَرَدْتُ أَنْ أَثْبِتَهَا فِي دَفْتَرِي عَسَى أَنْ يَذْكَرَ أُولُو الأَلْبَابِ.

قَالَ الغلبان بن السَّمَان:

«... كُنْتُ أَجْلِسُ يَوْمًا مَعَ طِفْلَتِي بِنْتِ الخَمْسةِ، وَقَدْ غَمَرَنِي خَوْفٌ مَطْبِقٌ أَنْ تَمُوتَ. كَانَتْ الطِفْلةُ شَدِيدَةً الشُّحُوبِ، وَالعَيْنَانِ الصَّغْرَاوَانِ انْطَفَأَتَا. حِينَهَا سَمِعْتُ طَرَقًا خَبِيثًا عَلَى بابِ الدَّارِ؛ وَكانِ الطَّارِقُ عَجُوزًا مَغْبَرًا بِغبارِ الطَّرِيقِ الَّذِي خَلْتَهُ أَلْفَ عَامٍ أَوْ يَزِيدُونَ. سَأَلَنِي الرَّجُلُ شَرِبَةَ مَاءِ فَطَلَبْتُ مِنْ «هاجر» امْرَأَتِي أَنْ تَجْلِبَ لَهُ إِبْرِيقًا كِي يَشْرَبَ، فَأَخَذَ الإِبْرِيقَ وَشَرِبَ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَساقَطَتْ قَطْرَاتُ مَاءٍ فَوْقَ الأَسْمالِ الَّتِي كَانَتْ تَغْطِي جَسَدَهُ الضَّخْمَ. كَانَتْ هَيْئَتُهُ غَرِيبَةً وَنظَرَتُهُ مُرِيبَةً، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِي خَاطِرًا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ المَوتُ ذَاتَهُ، وَقَدْ أَتَى لِيأخِذَ ابْنَتِي. أَخْرَجْتُ خِرْقَةً مِنْ تَحْتِ بَساطِي كِي أَدَارِي بِهَا دَمْعِي، فَإِذَا بِالرَّجْلِ يَغافِلُنِي وَيأخِذُ الطِفْلةَ وَيُولِي الفِرارَ، هَرَعْتُ أَنَا وَزَوْجَتِي نَجْرِي وَرِاءَهُ. فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الدَّارِ وَجَدْنَا عَجُوزًا تَرْتَدِي السَّوَادَ وَتَقُولُ لَنَا: لَقَدْ خَطَفَ المَوتُ ابْنَتَكُمَا، لَقَدْ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يَرْكُضُ هارِبًا بِهَا، وَكانِ يَرْكُضُ أَسْرَعُ مِنْ بَساطِ الرِّيحِ، وَهُوَ لا يُعِيدُ مَا أَخَذَهُ أَبَدًا.

كُنْتُ أَرْكُضُ وَرِاءَهُ أَثَرَ رِيحِ ابْنَتِي، يَمِيلُ رِيحُها يَمِينًا فَأَمِيلُ يَمِينًا، وَيَمِيلُ رِيحُها شِمَالًا فَأَمِيلُ شِمَالًا، وَبَقِيْتُ أَجْرِي أَيامًا وَلِيالِي حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى مَفْتَرِقِ طَرِيقٍ وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ أَي دَرَبٍ أَسْلُكُ، فَرَأَيْتُ شَجْرَةَ صَبَّارٍ عَظِيمَةً الفُرُوعِ، ثَقِيلَةً الجُذُوعِ، حَادَةً الأَشْوَائِ، مُنْطَبِقَةً الأَفْكَائِ. كُنَّا فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ وَقَدْ عَلَقْتُ طَبَقَةَ ثَلْجٍ فَوْقَها. سَأَلْتُ شَجْرَةَ الصَّبَّارِ: أَلَمْ تَرَيِ المَوتَ يَمُرُّ عابِرًا بِطِفْلَتِي؟

أجابت شجرة الصبار: بلى... رأيتُه يَمُرُّ عابراً بطفلةٍ صغيرةٍ، ولكنني لن أدلكَ على الطريق إلا إذا سقيتني شيئاً من دَمِكَ؛ فأنا مصنوعةٌ من لحمٍ ودمٍ ولا يرويني إلا قطعةٌ منك. فسألتها كيف؟ فأجابت: ضمني إلى قلبك كي تنغرس أشواكي داخلَكَ فتقطُرُ دماً يسيلُ على أوراقِي فأرتوي، ولا تبتعد عني حتى أقولَ لك استكفيتُ وشبعتُ وارتويتُ. احتضنتُ شجرة الصبار بكل قوتي حتى اخترقَ أشواكها لحمَ صدري، وسال دمي بقطراتٍ كبيرةٍ وظللتُ هكذا سبع ساعاتٍ وأنا أتألمُ، لم أكن أفكرُ في الألمِ بقدرِ ما كنتُ أفكرُ في زهرتي أين مكانها وإلامَ آلَ مالها.

انداحَ الثلجُ من على شجرة الصبار وغدت «صبارة» خضراء تسرُّ الناظرين. فلَمَّا ارتوتُ دلتي على طريق ابنتي.

سرتُ مسافةً ميلين في شمس صحراء المماليك القاحلة حتى وصلتُ عند تلة كبيرة فوقها قبة فيروزية عالية، نظرتُ يميناً فوجدتُ رجلاً يحملُ كفنًا من الصوف الأخضر، فسألته ألم ترَ الموتِ يَمُرُّ حاملاً ابنتي معه؟ فقال: أنا «حفار قبور» أواري الأجسادَ الثرى، فصددته زاجراً وقلت: بل أنت ميتُ القلبِ من كثرةٍ من دفنتَ من الأموات. فابتسمَ وقال: بل أنت الذي لا تعرف... بل أنت الذي لا تبصِر... أنا أعملُ «حفار قبور» في الصباح، وبستاني في المساء... الكثير من الأزهار والأشجار ذبلت البارحة، وسيصل من يبعثها من جديد، كل زهرة هي حياة إنسان ويختلف الإنسان من إنسان إلى إنسان، واعلم أن الإنسان زهرة، إلا أن لديه نبض قلب... ادخل يا أخي إلى بستان الزهور المجاور للمدافن واسمه جنة الأغاني، فلعلك تجد ابنتك. فسألته: هل مرَّ الموت من هنا؟ فأجابني: الموت يفوت ولو التقمك الحوت.

فدخلنا مشتل الموت الكبير حيثُ الأزهار تنمو بشكل متداخلٍ غريب... كانت هناك زهور زنبق وزهور ياسمين وزهور بنفسج. أمَّا القسم الثاني فرأيت زهوراً مريضة يقبض السرطان الأسود على ساقها فينخر فيها ويأكلها. أعجبتني زهرة فيروزية في أقصى ركنٍ من المشتل. ذهبتُ إليها وأحنيتُ رأسي وأرهفتُ السمعَ، هممتُ بلمس الزهرة التي كانت تشبه ابنتي، فحذرتني «حفار القبور»: لا تلمس الزهرة كي لا تذوي، بل ارهف السمعَ لما تقوله لك. أنصت، ثم أبيض، فسمعتُ صوتاً ينادي بي:.... أبي... حين تعطي الله شيئاً... يعطيك الله شيئاً، وهذه حدائق الله، والموت «بستاني الله»؛ يقطفُ الزهور من حديقة، ويغرسها في أخرى. أمَّا كيف أنمو وكيف أعود إليك... فاصبر... فهذا سيرُ إلهي لا أجرؤ على إخبارك عنه وأمرُ رباني لا مهرب منه. ماذا لو عرفت أن الزهرة التي أخذها الموت هي الزهرة التي يحبها الله؟ لم يعدك الله شيئاً من الأزل كي تلومه كيف أخلف وعده وقطف زهرته، واسترد بضاعته؟

وكان الفراغ من تدوين هذه الحكاية في العشر الأوائل من شوال سنة عشرة وتسعمائة هجرية بخط أفقر عباده إليه سناء الدين علي محمد بن سليمان الأجهوري، المصري موطناً، الشافعي مذهباً، والبغدادي مولداً... وقد كتبها لنفسه أو لرجل يأتي من بعده فيرى فيها قدره ويشرخ الله بها صدره، ثم جعلت عليها خنمي... وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وعلى أصحابه الغر الميامين ومن والاهم إلى يوم الدين... كيبكج... كيبكج (كذا في المخطوط الأصلي).

انتهى

بعد أن وطّدتُ علاقتها بالأم الشابة، احترفتُ سارة قَصَّ الحكايات على ابنتي جارتنا. ذات ليلة، سمعنا صوت نحيبٍ صادرٍ من شقتها، كان صوتُ الطفلين غارقتين في نوبة بكاءٍ متواصلٍ لفقدان دمية. لم تدرِ الأم ماذا تفعل، فأسرعتُ سارة إلى الأم الحيرى. كنتُ أسمعُ من غرفتي كل شيء، بل كنتُ أشاطرُ الطفلين أحياناً الاستماع إلى حكايات سارة، قرّبتُ مقعداً من النافذة بعد أن أرخيتُ الستارة الغامقة، ورحتُ أستمعُ معهن:

«كان يا ما كان... التقتُ أمٌ وحيدة في إحدى الحدائق طفلةً تبكي بحرقة، فسألتها عمّا جرى: فأجابتها أنّها فقدتُ دميّتها القماش، فاخترعتُ الأم قصة لمواساتها وقالتُ لها إنَّ الدمية قد سافرت، فسألتها الطفلة: كيف عرفتِ ذلك؟ فقالتُ الأم: لقد كتبتُ إليّ رسالة. سألتها الفتاة: هل هي معكِ؟ فأجابتها: أسفة لبيستُ معي... لقد نسيتهما بالبيت، لكن غداً أريكِ إيّاهما، وفي ذلك المساء بدأتُ الأم في كتابة رسائل باسم الدمية وتوقيعها باسمها أيضاً، وتأتي في اليوم التالي وتقرأ على الفتاة الرسالة بعد أن تزيها ما كتبه الدمية، ثم تأخذها من يدها وتتجول معها في الحدائق وتشتري لها الحلوى لتسري عنها. وكانت تقولُ لها إنَّ الدمية قد سئمتُ الحياة مع الأسرة نفسها، صحيحٌ أنّها تحبُّ الطفلة صديقتها، ولكنّها تحتاجُ إلى تغيير جو وأن ترى العالم، وتتعرفُ إلى أصدقاء جدد. أخذتُ الأم تفكر كيف تنهي حكايتها. فكتبتُ رسالة إلى الطفلة بلسان الدمية أنّ الدمية قد تزوجتُ وودعتُ صديقتها بكلماتٍ لطيفة في رسالتها، وقد تركتُ هذه الخاتمة الفتاة راضية... وهكذا فرحتُ الطفلة لما عرفتُ أن دميّتها سعيدة».

عندما انتهت سارة من حكايتها، ساد صمتٌ. لم أطقُ الانتظار حتى تأتي سارة؛ فنهضتُ من مقعدي وتلصقتُ النظر من وراء ستارة النافذة، فرأيتُ الطفلتين قد خلدتا إلى النوم فوق حجر سارة التي كانت جالسة إلى جوار أمهما، بينما أسندتُ الأم الشابة رأسها إلى مسند الكنية وقد غطتُ مع البنين في نوم عميق.

تكررتُ الليالي وتكررتُ الحكايات، واكتشفتُ سارة يوماً بعد يوم أنّ خزانة الحكايات لديها عامرة لا تتضبُّ، وأنّها لم تعد تحتاجُ قراءة الحكايات من كتب. صارت الحكايات تتوالد داخلها وتعطرُ روحها وأيامها مثل شجر ليمونٍ مزهر.

سألتها:

- ربما انتقلتُ إليك نَفحةً من نفحات كتاب ابن السَّمان؟

- ومن ابن السَّمان؟ اتكلم جد يا يونس... لا أعرفُ من أين تأتي كلُّ هذه الحكايات؛ تزدهرُ كلُّ ليلةٍ حكايةً من حكايةٍ من حكاية؛ أصبحتُ أقصُّ على البنات كلَّ يوم حكايةً جديدة، وكانت كل حكاية

إجابة عن سؤال من سؤال البننتين... حكاية للخوف من المدرسة... وحكاية للخوف من النوم في الظلام... وحكاية في ضياع اللعبة، وهكذا...

- وحكايتنا يا سارة؟

- إن لم تثبت الزهور في حدائقنا، فقد تكون حكاياتي سبباً في أن تثبت في حدائق أخرى...

وفي ليلة أخرى، رأيت سارة تمسك كتاباً دفترًا وردياً، وتروح إلى جارتنا أم البنات وتجلس إلى جوارها وتقرأ من ذاكرتها وتريهم صوراً رسمتها داخل الدفتر، بينما مضيت في عادي وتلصقت عليهن من وراء ستارة النافذة. كانت سارة جالسة وسط البننتين فوق الكنية العريضة تحكي وهي مُندمجة لدرجة أنني أحسست أنها تحكي الحكاية لنفسها، بينما جلست أم الطفلتين إلى جوارهما تُنصت:

«... كان يا ما كان في قديم الزمان... كانت هناك امرأة تضع كل سنة طفلة، فلم تكن تعمّر أكثر من بضع سنوات، فكانت الأم تتوح: يا إلهي... أحمل تسعة أشهر ولا أفرح تسع سنوات؟ إن نعمتي لتزول مثل أوراق الخريف في مهب الريح. وهكذا أغلقت القبور على اثنتي عشر بنتاً، وفي يوم صيفي رأيت المرأة فيما يراه النائم نفسها في بستان واسع مليء بالزهور والأشجار، فلما دخلت البستان من باب عريض عرض السماوات والأرضين، حرت مغشياً عليها مثل الذي وقعت فوق رأسه صخرة، ولما أفاق رأيت وجه كل بنت من بناتها اللاتي رحلن مرسوماً فوق كل زهرة من زهور الحديقة، فهتف هاتف في قلبها: لقد ضعن منك، إلا أنهن لم يضمن من ملكوت الله... هل فهمت الرسالة؟ إن لب كل ثمرة أفضل من قشرها، فاعتبري الجسد قشرة ولبّه المحبوب... فأجابت الأم وهي تبكي من الفرح: إلهي... نعمتي أفضل من نعمتك... لأنك أنت نعمتي التي لا تزول... وأنا نعمتك التي تزول.

عندما عادت سارة من عند جارتنا، سألتها:

- سارة... هل استرحت الآن؟

- ليس هناك راحة يا يونس... لكنني كنت بطلة حكايتي...

- هذا كلام أمي...

- وأنت... ألم يعد يأتيك «هوجو» في الأحلام؟

- طرده... أصبحت أحلامي مركباً ضيقاً لا يتسع لأحد، ولا حتى نفسي...

- لكن هوجو القديم ما يزال يأتيني...

- وماذا طلب منك؟

- طلب مني أن أشتري أرجوحةً نضعها في الشرفة...

- لماذا؟ وهل اشتريتها؟

- طبعًا اشتريتها... قَالَ لي قَبْلَ أن ينصرفَ «لا تقلقي... سيحينُ أو أنها»...

بعد أن اختفت من منزلنا رائحةُ الزهور، اعتدتُ أنْ أخلوَ إلى نفسي بضع ساعاتٍ كُلَّ يومٍ سَبَّتُ، حَيْثُ تذهبُ سارةُ إلى والدتها لقضاءِ اليومِ معها، بينما أصطحبُ كتابًا وأذهبُ في نزهةٍ خلويةٍ إلى منطقةٍ جبليةٍ، ولم يكنْ ذَلِكَ يضايقُ سارةَ؛ كَانَتْ هِيَ مَن اقترحتُ عَلَيَّ هَذِهِ الفكرةَ؛ نوعٌ من الترويحِ عن النفسِ بعد شقاءِ الأسبوعِ.

في ذَلِكَ اليومِ، خرجتُ حوالي الساعةِ الثامنةِ والنصفِ صباحًا، وَقَدَّ قررتُ التوجهَ للتنزهِ في أرجاءِ قلعةِ Schlossberg... ولم أكنُ قَدَّ زرتها مِن قَبْلِ، ولكني نسييتُ مِظَلَّتِي. سِرتُ نحوَ خمسِ دقائقِ، وتذكرتُ فجأةً أنني قَدَّ نسييتُ مِظَلَّتِي، عدتُ إلى المنزلِ مِن جديدٍ وفتحتُ بابَ الشقةِ، تذكرتُ أنني قَدَّ وضعتها بالأمسِ حينَ رجعتُ فوقَ الطاولةِ الخشبيةِ المجاورةِ للثلاجةِ في المطبخِ.

دخلتُ إلى المطبخِ، وأخذتُ المِظَلَّةَ. أثناءَ خروجي لمحتُ شيئًا غريبًا... كلمةٌ جديدةٌ مكونةٌ من الحروفِ المعدنيةِ التي كنتُ قَدَّ اشتريتها لفيروزِ قَبْلِ رحيلها مرصوفةً عَلَيَّ بابَ الثلاجةِ. كانَ الجوُ غائمًا والمطبخُ شبهَ مظلمٍ، أوقدتُ نورَ المطبخِ لِأُتَبَيَّنَ جيدًا. كَانَتْ هُنَاكَ خمسةُ حروفٍ مرصوفةٍ إلى جوار بعضها لتشكلَ كلمةً... G E B E N... مَن كَتَبَ هَذَا؟ سارةُ؟ ربما... لَكِنَّهَا لم تتعودَ أنْ تكتبَ لي رسائلَ فوقَ الثلاجةِ، ثم إنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ رسالةً، بإمكانها مكالمتي عَلَيَّ المحمولِ. لَمْ يكنْ يصفُ الحروفَ هكذا سوى فيروزُ؟

أمسكتُ بالحروفِ المعدنيةِ وَصَفَفْتُهَا في رسالةٍ بنفسِ اللُّغَةِ:

خمسُ سنواتٍ فقط هِيَ عمركِ... ثمَّ جاءَ الموتُ ومضى بالملاكِ الَّذِي كانَ بَيْنَ أَيْدِينَا... لم يبتسمُ القدرُ لنا وَلَا بِسْمَةِ يَتِيمَةٍ وَهُوَ يَنْقُضُ عَلَيَّ فريستهِ الصغيرةِ.

كانَ حصنُ «Schlossberg» حصنًا تاريخيًا يعتلي أعلى هضبةٍ وسطِ جراتس. رحلتُ أرتقي درجاتَ السُّلَمِ الدائريِ المعبَّدِ بالحجارةِ. رأيتُ برجَ الساعةِ القديمِ، ومسطحاتِ خضراءٍ واسعةٍ،

وبعض المقاهي والمحلات لبيع التحف، وغرفة المدافع الأثرية، وبرجًا قديمًا للجرس، بالإضافة الى السور المتآكل الذي يحيط بهذه القلعة.

حين وصلت قمة القلعة، سرت قليلاً ناحية اليمين حيث وجدت مقعدًا خشبيًا، فجلست مستشرفًا صورة بانورامية لمقاطعة شتاير مارك.

لم أكد أبدأ في الاستغراق في «عولم نوفاليس»، حتى سمعت صوت خطوات تقترب نحوي. لم ألتفت، لكن صوت تهشم أوراق الأشجار اليابسة تحت خطوات الأقدام أخذ في الازدياد. التفت يمينًا، فوجدت د. فالتر يدنو مني وهو يضع كفيه في جيوب بنطلونه الصوفي الأسود. سألني عن سبب وجودي هنا في هذا الوقت المبكر، فأخبرته أن سارة اعتادت قضاء يوم السبت مع والديها وأني أحب المشي. فكرت في أنه كان يراقبني، إلا أن صمته الطويل وحركات يديه المرتعشة أزال تلك الفكرة من رأسي.

ابتسم حين لمح في يدي كتاب نوفاليس، وقال إنني على الطريق الصحيح، سألني وهو ينظر نحو الغيوم التي دنت من صفحة المدينة برفق كأنها تقبلها.

- هل تحلم يا يونس؟

- أحاول التوقف عن الحلم...

- حذار...

- وبم تفيدني الأحلام؟

- الموتى فقط هم الذين لا يحلمون؛ الحلم حياة أخرى...

أذابت كلماته شيئًا من طبقة اليأس المتكلسة داخل رأسي؛ فأخذت أخبره عن حلم غريب يلاجطني ويتكرر قبل استغراقي في النوم، أو بعد رؤيتي طيف ذكرى قديمة. أراني أمسك مدفعًا رشاشًا وأطلق منه رصاصًا ينهمر بلا انقطاع على مرايا مغيشة، فتسقط المرايا مهشمة، كان مجرد إطلاقي النار على هذه المرايا يريحني... لا أعرف لماذا، لم أضمر مشاعر ضغينة لأحد قط،... لا أفهم لماذا يتكرر هذا الحلم؟

- يونس... رأيت عبر سنوات عمري أناسًا أغلقوا الأبواب والنوافذ، واختاروا العزلة والانغماس في الحنين إلى ذكريات الماضي، لكنهم فقدوا عقولهم من وراء تلك العزلة... إطلاق النار على المرايا رؤيا شفاء...

- أرى ذلك بين الحلم والعلم... لا أدري إن كنت نائمًا أم مستيقظًا!!

- الحُلم ليس سوى جَفن يقيقك من القذى، أو طفلةٍ بريئةٍ تحررك ببهجة نقائها من مرارة الواقع...

كان يتحدثُ وَهُوَ شاخصٌ بيصره إلى المشهد البانورامي لمدينة «جراتس» التي بدتْ غائمةً وسط الضباب الكثيف، وموجات هواءٍ باردٍ يتسلل إلى أنوفنا.

أخفض رأسه إلى الأرض، وأخذ يتفحص صفاً من النمل الفارسي ظهر فجأة وسط كومةٍ من أوراق الشجر المصفرة المهشمة على الأرض. بقي لمدة ثوانٍ مراقباً حركة النمل. بدا لي الأمر لطيفاً، رحباً أتابع سيرب النمل الذي كان يسير بحركة غريبة في مسارات متقطعة، تارة دائرية، وتارة مستقيمة، وكأنه يسير فوق مسارات وهمية منقوشة داخل عقله.

- «نمل» في فصل الخريف... ربما كان النمل يحلم هو الآخر، قلتُ له...

- في «مثنوي» جلال الدين الرومي، وردتْ حكاية لطيفة عن جماعة من النمل سارت فوق سطح لوحة، فرأت كتابةً بالقلم، فأخذتْ في مدح القلم، فقالت نملة أخرى أهدتْ بصراً: بل امدحي الأصابع، فقالت نملة ثالثة: لا، بل امدحي اليد، فالأصابع جزء من اليد، وهكذا أخذت جماعة النمل تتحاور وتنتقل الفضل من صاحب فضلٍ إلى آخر، حتى وصلوا إلى ملكة النمل التي كانت أكثر فطنةً وحكمةً وقالت للنمل: جمال الصورة ليس في شكل الصورة وحدها، والتي تفقد زهوتها وحسها بالنوم والموت، بل بالروح التي شاءت وبنث الجمال الكامن فيما وراء الصورة، جمال البحث عن المعنى النهائي للمشهد الكلي، وليست مجرد صور الزهور والورود والريحان ومزرعة السوسن. كنتُ أرى تفسيراً مغايراً؛ صحيح أن النمل كان يسير فوق الرسم وهو لا يعلم أنه سائر على الطريق الصحيح، حتى وإن غابت عنه الملامح العامة، لكن الأهم أن ذلك الرسم لم يكن مصدره قلمٌ عابثٌ يرسم خطوطاً لا معنى لها، وإنما روحٌ خطت الرسم، وسار عليه النمل دون أن يعلم، ولأن النمل كان ملاصقاً للخط فوق سطح اللوحة، لم يدرك المراد، لم يدرك أنه سيصل يوماً إلى مراده.

استنشقتُ د. فالتر نفساً عميقاً، ثم دسّ يديه داخل فتحتي البلوفر الصوف، وفرّد قدميه للأمام كمن يريد النوم.

لُذنا بنصف ساعةٍ من الصمت. كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية عشر ظهراً. نهضتُ د. فالتر من جوارِي ونظر إلى السماء. قال إنه ينبغي له الانصراف الآن؛ لأنه يخشى على عظامه من التآكل بسبب البرد، كما أنه لم يجلب معه معطفاً ثقيلًا؛ فنهضتُ بسرعة مودعاً إيَّاه.

عُدتُ إلى المنزل في الواحدة بعد الظهر تقريباً، كانت رأسي ما تزال مثقلةً برغبةٍ في النوم كأنني مُخدر. أعددتُ دورقاً من الشاي وصببته في ترمس أصفر اشتريته سارة لتضعه إلى جوارها في المشغل. صببتُ الشاي وتركته يبرد، ثم تمددتُ فوق الفوتيه أقلب قنوات التليفزيون بالريموت. حتى توقفتُ عند أحد برامج الطبخ التي تقدّم يوم السبت.

ضغطتُ زرَّ «كاتم الصوت». كَانَتْ مقدمة البرنامجِ سيدهُ في منتصفِ الخمسينيات تقريباً، تَمَسِكُ إناءً زجاجياً وتقطعُ داخله جزراً وبطاطس، ويساعدها رجلٌ ملامحه في مكانٍ ما في ذاكرتي. نُقِلْتُ أجباني...

- رفقاً بنفسك بعدَ الجلسة... حرام... سوف أدبّرُ موضوعَ الأكلِ كُلِّ يوم...

- أفكرُ في الإقامة عند بابا طوال فترة الكيماوي ويونس حابب يقيم في شقة جدّه...

- لماذا؟ سوف أسهر على خدمتك... نُقِلْتُ إلى القاهرة في عملٍ إداري... بضع ساعات صباحاً وينتهي الموضوع... سوف أكون في البيت الساعة الثانية ظهراً... ما المشكلة؟

- بابا ما يزال بصحته... وجامعة يونس في العباسية... على بعد خطوات بالمترو... لا أريد تعذيبك معي يا سعيد...

- تعذبيبي! تعتبريني غريباً؟

- لا أقصد... أعرف أن المريض دائماً ثقيل على غيره، محتاجة لأن أكون قريبة من غرفة أمي...

- ثقيل على غيره؟ أنا سعيد؟

- أرحني... سوف أكون قريبة من المستشفى، نحن في الدقي يا سعيد، والجلسات ثلاث مرات أسبوعياً... المشوار يقتلني...

- أمرك، سأستأجر شقة في حدائق القبة... سأكون إلى جوارك كُلِّ يوم...

- يونس غارق في الكتب كُلِّ يوم... أنا خائفة على عينيهِ... قربه منك قليلاً... سافروا أي مكان... إسكندرية... البلد عند أخيك، أو أرسله إلى يحيى في أمريكا شهرين في إجازة الصيف...

- تعلمين أنه شبه مقاطع لأخيه منذُ رحيل يحيى لأمريكا، وانقطاع أخباره، حتّى بعد ما عرف بمرضك...

- الاتنين أو لادبي... ممكن يكون يحيى مشغول في دراسته وشغله... سوف أرسله إلى أخي «فريد» في هامبورج كل سنة في إجازة الصيف...

كان د. فالتر لا يزال يشرب قهوة الصباح عندما دخلتُ مكتبه، ألقىتُ التحية فبادلني الرد بترحيبٍ ودعاني للجلوس، فبادرته:

- علمتُ أنك طلبتَ رؤيتي، بروفييسور فالتر...

- عندي مشروع بحثي جديد، أنت تعلم أنني على تواصل بجامعة «طهران» وقد دعاني د. رضا يزدي أستاذ التاريخ الفارسي الوسيط، لزيارة الجامعة في زيارة علمية لمدة عشرة أيام، لانتقاء مجموعة من كُتُب التراث الإيراني الإسلامي وترجمتها إلى اللغة الألمانية بغرض تعريف الدول الناطقة بالألمانية بالتاريخ الفارسي الإسلامي في القرون الهجرية الخمسة الأولى...

- أولاً، أكيد هذا شرف، لكن لؤي يتقن الفارسية، وسنوات إقامته الطويلة بالنمسا، وإعداده للماجستير بالألمانية تجعله الاختيار الأوفق، فماذا أفعل هناك إذن؟

- يوناص... !! Haben Sie Ihren Kaffee noch nicht getrunken? تبسمتُ وقلتُ:

- لا بروفييسور... لم أشرب قهوة الصباح بعد...

- وهل التراث الإيراني مكتوب الفارسية وحدها؟ أظنك قد سمعتَ عن نجم الدين الكبرى، وشهاب الدين السهروردي وغيرهما... هؤلاء أضافوا كثيراً إلى التراث الأدبي الفارسي...

- تمام... لكنني تصورتُ أن أستاذاً إيرانياً لن ينصرف تفكيره إلا لمن كتب بالفارسية وحدها، على العموم هل ذكر شيئاً عن تمويل المشروع وخطة الترجمة؟ أفصد استراتيجية المشروع.

خلع د. فالتر نظارته الطبية، ووجه بصره إلى جهاز اللاب توب قائلاً:

- لا تقلق... سوف أبعثُ إليك برسائل البريد الإلكتروني المتبادلة، فيها كل التفاصيل، سوف تجد في المرفقات Arbeitspapier، تضم خطة المشروع الكاملة ومدة التنفيذ والمقابل المادي، أطلب منك قراءته الليلة والتفكير.

ندتُ دقة صغيرة من هاتف البلاك بيري، فوجدتُ أربع رسائل بريد إلكتروني، سارعتُ بفتح أولها وتأملتُها بسرعة باحثاً عن شيء محدد... لفت نظري المبلغ... ٤ آلاف يورو لكل كتاب مترجم بواقع ٢٥٠ صفحة كحد أدنى للكتاب الواحد.

هدأتُ حماستي قليلاً وبدأتُ التفكير في كلام د. فالتر. لم أقتنع بالسبب الحقيقي وراء قبوله التعاون مع جامعة «طهران» للبدء في هذا المشروع، فأني مقابل مادي ينتظره د. فالتر من وراء هذا البرنامج؟ وأي تراث يريد تقديمه لأوروبين؟ الرجل بلغ الثالثة والسبعين، وخبرتي تقول إنه لا يحفل كثيراً بالتوعية الروحية للشعب النمساوي!

اتصلتُ بلؤي وسألته عن رأيه في موضوع البرنامج العلمي في جامعة طهران. قال إنه لا يرى مانعاً ما دام المشروع مُخطط جيداً والمقابل المادي والأدبي سيكون مجزياً، وأخبرني أنه سيعود غداً

من فيينا بعد إتمام أوراق الحصول على الجنسية من وزارة الهجرة والأجانب، وأنه سوف يمر على في المنزل فور عودته لمناقشة الأمر قبل إخبار د. فالتر على تأكيدنا الرسمي بالمشاركة.

تبدل المشهد هذه المرة. حيث أُسديت ستائر سوداء على اللوحات والبُسط التي كانت تزيّن جدران الحجر، باستثناء صورة زيتية واحدة.

كان بورترية هائلاً معلقاً على الحائط المواجه للمكتبة مُذنباً بتوقيع Gustav Freiherr von der Holtz. كان البورترية لقائدٍ حربي في أواخر الخمسينيات تقريباً، ذي شاربٍ دقيقٍ منمقٍ، ونظارة طبية ذات إطار معدني مستدير، يرتدي بذته العسكرية الكاملة، ويحمل في يده اليمنى عصاً ذهبية أو معدنية أشبه بعصا المارشال في الحروب، بينما تستند يده اليسرى إلى قائم حديدي، على يسار الصورة رأيت كلمة Holtz Pasha.

كانت الصورة موضوعة في إطارٍ بدا من الذهب الخالص، فلمعة الإطار كانت براقاً وكأنها خرجت لتوها من ورشة طلاء.

«اجلسا... سوف أحدثكما اليوم عن جدّي الأكبر... البارون المارشال فون دير هولتس باشا». سألته:

- وقهوتك يا بروف؟

- أفضل البقاء مستيقظاً في الساعات الأخيرة... هذه هي اللوحة الأخيرة التي استلمتها «صوفي» من إسطنبول بعد مفاوضات استمرت عقوداً مع الأتراك، من تزونه في الصورة هو جدّي البارون والقائد العسكري الألماني فون دير هولتس باشا... قبل أن أحكي، أتعلمون أين توفي؟

- أكيد في ألمانيا - قلنا أنا ولؤي في صوت واحد.

- لا... جدّي مات في بغداد، ودُفن في إسطنبول...

وقف د. فالتر ودار حول مقعده نصف دورة، ثم أشعل «الغليون» الخشبي ذا المقبض الفضي الذي تلاً تحت ضوء الأباجورة الملاصقة لمكتبه، وبدأ في الكلام المباح.

قال إن جدّه من مواليد أغسطس سنة ١٨٥٦ في مدينة بون، وأنه بعد اجتياز دراسته كان يقوم بتدريس العلوم العسكرية ونظريات الاستراتيجيات العسكرية في الكلية البروسية العسكرية، وتم تكليفه عام ١٩٠٠ بإعادة بناء وتنظيم جيش الإمبراطورية العثمانية، ونجح في إحداث طفرة كبيرة داخل الجيش العثماني في التنظيم والإدارة والتسليح، حتى قام السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بمنحه لقب «باشا» تقديراً لجهوده في خدمة الجيش العثماني.

بينما كان الخواجة يحكي حكاية جدّه الباشا، سافرتُ ذاكرتي إلى مكان آخر؛ إلى جدّي العميد إسماعيل عبد الله الأنصاري، الضابط الطبيب الذي شارك في حربَي ١٩٥٦ وحرب اليمن، وقلده جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق تكريمًا لجهوده إبان فترة عمله ملحقًا طبيًا للبعثة العسكرية المصرية في اليمن، وأرسله إلى النمسا ملحقًا طبيًا بالقنصلية المصرية في أوائل السبعينيات قبل حرب أكتوبر.

أفقتُ من شرودي على صوت د. فالتر، وفوجئتُ به وقد اقترب من وجهي وقال:

- أكيد أنت شارذُ في مشروع د. رضا يزدي يا يونس... تريد رحلة شرقية بعيدًا عن أوروبا، لعلك تسأل نفسك الآن... وما علاقتي أنا بقصة جدّ فالتر؟

- لا على الإطلاق، بالعكس أنا متحمّس لسماع كل شيء، أنت تعرف ذائقتي الأدبية يا أستاذنا... وبداية سردك أوحى لي بقصة قصيرة قد تكون رائعة.

- أو قد تكون قصة طويلة... man weiss nicht... ربما تضيف أنت إلى أصل القصة شيئًا في المستقبل.

جلس بروفييسور فالتر على المقعد المقابل للأريكة التي كنا نجلس عليها:

«بالطبع لم أقابل جدّي المارشال فون دير هولتس باشا، فقد توفي سنة ١٩٢٥، وكان أبي يبلغ وقتها ستة عشر عامًا، لكنّه حكى الكثير عنه، خاصة بعد أن هاجرنا إلى النمسا في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي بعد وفاة عمتي «أنا ماري» بعد معاناة مع مرض سرطان الرئة، وبعد أن أتمّ أبي برنامج الماجستير في علوم النباتات من جامعة ميونيخ سنة ١٩٣٩، وانتدب للعمل في معهد دراسات البحوث الزراعية في جامعة فيينا الذي كان يعاني نقصًا في الباحثين بسبب ظروف الحرب آنذاك، كنتُ أبلغ حينها تسع سنوات؛ فسافرتُ بصحبة أمّي وأختي «حنّا»، وبدأنا حياة جديدة في النمسا... امتدت بي حتى اليوم.

لم يكن جدّي عسكريًا بالمعنى الحرفي للكلمة، بل كان أقرب إلى مثقف أو كاتبٍ منه إلى ضابطٍ روسيّ شديد الانضباط، حيثُ كان مُلمًا بشئون البلقان والإمبراطورية العثمانية بحكم منصبه، وقضى وقتًا كمستشارٍ عسكريٍّ للإمبراطور العثماني عبد الحميد الثاني الذي منحه لقب باشا.

شخّذتُ هذه المعلومات رغبتي في السؤال:

- وهل ترك المارشال فون دير هولتس شيئًا مكتوبًا... أقصدُ مذكراتٍ أو شذراتٍ حول سنوات إقامته في العراق وتركيا مثلًا؟

- معظم ما كتبه كان دراساتٍ علميةً، وترك كتابًا تعليميًا صغيرًا حول فن قيادة الحروب Kunst der Kriegsführung ونشره سنة ١٩١٧ كما نشر كتابًا حول «رحلات إلى الشرق» سنة ١٩١٩، وهو أقرب إلى أدب الرحلات... كان جدِّي أديبًا فنانًا بالرغم من طابعه البروسي الصارم.

- وماذا عن رحلاته إلى العراق وإيران ومصر؟

- عندي معلومات بسيطة حول إقامته القصيرة في بغداد، وصداقته العميقة مع الأب «أنستاس ماري الكرمللي»، وزيارته إلى مصر ولقائه مع الشيخ «نصر الدين الدباغ» المصري الحنفي شيخ الطريقة الشاذلية في مصر وقتها... لا أعلم... كل ما أعرفه أن أبي قال إنه يحتفظ بأقصوصات مكتوبة بخط يد جدِّي حول أسفاره في صحراء العراق وخراسان.

سأله لؤي:

- هل فكرت في نشرها؟

- أفكر في اختيار بعض المقاطع من هذه المذكرات وقراءتها على طلبة الماجستير، كان جدِّي مولعًا «بالخانقاوات»... مفرد «خانقاه»... ذلك المكان المعزول الوحيد في الصحراوات وأطراف المُدن... والذي كان يلجأ إليه المتصوفة والعارفون للتأمل...

أجاب لؤي:

- عندنا في الموصل بين كل حي وحي خانقاه...

- يُقال إن «الخانقاه» كانت من ابتكار المتصوفين الفُرس الذين أخذوا مراسيمها وشكلها من الديانة المانوية القديمة التي ظهرت في العراق في القرن الثالث الميلادي، لكنني عندما زرت مكتبة جامعة إسطنبول منذ سنوات، عثرتُ بالصدفة على مخطوط عتيق بعنوان «أيام النور الكامل»، كان مكتوبًا بالفارسية لمؤلف مجهول، ويعود لسنة ١٧٩ هجرية، يصف فيه المؤلف مدينة المدائن قرب «بابل» القديمة... وفيها خانقاه للمانويين والذي يسمونه باسم «نغوشاك».

- أكيد يا دكتور زرت خانقوات كثيرة من قبل؟

- الخانقاه... طبعا... سعدت بعض السلالم الحجرية فقط... لكنني لم أكمل باقي الطريق...

- لماذا؟

- كنت أستمتع بفعل الصعود... لا تشغل بالك... هل تعلم دلالة صعود السلالم في الأساطير الدينية لدى الشعوب القديمة؟

- يمكنني التخمين... الأمر قد يَكُون لَهُ علاقةٌ بالعروج إلى السماء... أو الرحلة الروحانية إلى المطلق... شيء من هذا القبيل...

- ليس هكذا بالضبط... السلم يمثل إشارةً واضحةً للعبور من وجودٍ إلى وجودٍ آخر... السلم الصاعد هوَ قطيعةٌ معَ عالمٍ مضى، بالمناسبة فكرة الصعود أو ارتقاء درجات السلم وردت في جميع الأديان السماوية وغيرها، مثلًا في التصوف الإسلامي ينكلم المرید أو «السائر» عن السير إلى الله، وفي اليهودية إلى «المركابا»، وهو الصعود إلى العرش أو الكرسي حيث يُبصر المرء نفسه، فيصير مثل «النبی موسى» الذي اتصل بالوحي فوق جبل الطور في سيناء، وفي التصوف المسيحي قصة الواعظ الإنجليزي جون بنیان الذي كَتَبَ «رحلة الحجيج»، وتحدَّث عن الصعود إلى جبل «الكرمل»، أو السفر إلى «مدينة القدس السماوية»، وفي الكثير من الأديان والمذاهب الروحانية، يجب على السائر أن يعرج إلى هدفه من خلال سبعة مدارج أو سبع درجات؛ ولِذَلِكَ يميل أهل التصوف في الشرق والغرب بوجهٍ عامٍّ إلى وصف الطريق بأنه صعودٌ ذو سبع مراحل، أمَّا الدرجة الثامنة فهِيَ جنة المأوى أو «سِدرة المنتهى» أو العرش الإلهي عند المسلمين، ويحملها أيضًا «ثمانية».

- لم أفهم عبارتك بخصوص درجات السلم في رحلتك إلى الخانقاه...

- حُكْم السن يا يونس... بالمناسبة... هُنَاكَ مؤتمر سوف يُعقد الأسبوع القادم في «جامعة إسطنبول» حول دور المستشرقين النمساويين في نقل التراث الإسلامي إلى اللغَة الألمانية... وصلنتي دعوةً منهم... ومطلوب اثنان مشاركان بأوراقٍ علمية... ما رأيكما؟

تطلّع إليّ لؤي، ثم تقدّم في جلسته على المقعد إلى الأمام:

- أولاً هَذَا شرف، لكنني للأسف مضطرٌّ للسفر معَ «كريمة» إلى «فيينا» الأسبوع القادم لمدة أسبوع، سيقوم حمّاي بعمليةٍ دقيقةٍ في الأمعاء، و«كريمة» تحتاجني معها، بالإضافة إلى رعاية الطفلين...

- وأنت يا يونس؟

- أشكرُك يا بروف... ليس عندي ارتباطات مهمة... معك

- تواصل معَ «سابينا كريمز»... سوف تقومُ بتدبير التذاكر والإقامة، وطبعًا مطلوب منك ورقة بحثية جديدة.

- لا تقلق يا دكتور... خزانة أوراقٍ كبيرة...

- الأوراق تملأ كلَّ مكان... المهم ما في الصدور...

المشهد السادس

بَيْنَ أَنْ تَحِي وَأَنْ تَحْلُمَ أَمْرٌ ثَالِثٌ ... حَمْنُهُ

(أنطونيو ماتشادو)

وصلتُ إسطنبول فجرًا.

كان د. فالتر قد سبقني إليها بيومين. أرسلتُ إدارة المكتبة المركزية بإسطنبول - حيثُ سيُعقدُ المؤتمر -، سيارةً أجرةً لِتَقْلِنِي إلى الفندق. انطلقتُ بي السيارة إلى كورنيش بحر مرمرية. كنتُ جالسًا إلى جوار السائق وقد فتحتُ النافذة... فكان نسيم الصباح الرائق. كانت الساعة السادسة صباحًا والشارع المؤدي إلى قلب إسطنبول على الكورنيش شبة خالٍ. أثناء سيرنا، لفت انتباهي بقايا عتيقة، لكنّها متهدمة لأسوار المدينة القديمة متنصبةً على رصيف الكورنيش. الزمن خيط مفروود لا تدري أوله من آخره، والعقد التي في منتصفه أسوار الماضي.

دُعِي د. فالتر ظهرَ اليوم الأول إلى حفلة استقبال عقدها المستشار الثقافي للقنصلية النمساوية؛ كانت الدعوة موجهةً للأساتذة الكبار وحدهم، فقضيتُ النهارَ متجولًا في شوارع إسطنبول القديمة ما بين زيارة ميدان «تقسيم» والتجول في شارع الاستقلال.

بدا لي أنني ما أزال أسير في شوارع جراتس القديمة... عمارة البيوت القديمة والطرق المرصوفة بالحجر البازلت، الترمي الأحمَر القديم يقطع وسط شارع الاستقلال، الشوارع الجانبية المرتفعة والمنحدرة، محلات الزهور، العازفين العجريين الذي يرتقون من العزف في شارع الاستقلال... رائحة «أبو فروة» المشوي الذي يتسلل إلى أنوفنا قبل أن يصل إلى الحلق.

في المساء، عدتُ إلى الفندق الواقع قرب ميدان تقسيم. فتحتُ شباك النافذة المُطل على الميدان. كان الطقس بالخارج لطيفًا وأصوات سيارات الأجرة وضجيج المارة والمحلات المفتوحة يتناهي إلى سمعي.

جلستُ على كرسي المكتب المواجه للسرير. أقصى يمين المكتب، لمحتُ كتابًا باللغة الإنجليزية فوق الطاولة المجاورة لسريري حول شاعر تركي اسمه «يونس إمره».

اتصلتُ بسارة كي أطمئن عليها، ثم فتحتُ الكتاب والتهمته.

في صباح اليوم التالي، وبعد عودتي للغرفة بعد تناول الفطور، رنَّ جرسُ التليفون؛ أخبرني د. فالتر أنه سوف ينتظرني بعد ساعة في ساحة ميدان تقسيم. ارتديت ملابسني محمّنًا خدعة الخواجة القادمة.

حين وصلتُ الميدانَ كان د. فالتر يحمل في يده حقيبته الجلدية الصغيرة، وفي يده الأخرى كوبٌ من القهوة. أشارَ إلى سيارة أجرة في انتظارنا، كان يتجنبُ النظرَ نحوي بشكل مباشر، ربما كي لا أسأله عن سبب الدعوة.

جلسَ في المقعدِ المجاور للسائق، مُوليًا وجهَه نحو نافذة السيارة نصف المفتوحة، متأملًا المساجدَ الأثرية القديمة التي كانت تَظهرُ وتختفي إلى جوارنا أثناء الرحلة، ففعلتُ مثله وأنا مُستغرقٌ فيما هو آتٍ.

توقفتُ السيارة بعد حوالي نصف ساعة أمام مبنى أبيض ضخم، محاطٍ بمجموعة من الأشجار الكثيفة. قال السائق بلهجة عراقية واضحة:

- وصلنا... «جالاتا مولوي خانه».

كانت التكية تسكنُ فوق هضبة متوسطة الارتفاع تُسمى هضبة «بيرا»؛ كانت في الأصل كنيسة بيزنطية تُعرف باسم «ثيودوس» أو هبة الله، وقد منحها العثمانيون للدراويش وأهل الطريق تقديرًا لجهودهم ووقوفهم إلى جانبهم أثناء الفتح العثماني للبلاد، ويبدو أن هذه المنطقة صادفت هوى الدراويش؛ لأنها تقع في بقعة مرتفعة عن الأرض قليلًا، وربما عن باقي البشر.

كانت التكية متربعةً قمة الهضبة، يفصلها عن الشارع الرئيسي الذي توقفت فيه سيارتنا، جدارٌ مرتفع. في البداية استقبلنا بابٌ ضخم عليه لوحة تحمل تاريخَ بناء التكية. ورأيت من بعيد نوافذَ صغيرة تَسمحُ للزوارِ بالنظرِ إلى المدافن التي تحمل رُفات أولياءِ الله المدفونين في ثرى هذه البقعة.

يبدو أنه كان يعرف المكانَ جيدًا أو ربما زاره من قبل؛ إذ كان يسيرُ بتهملٍ عبر الفناء الواسع للتكية، غيرَ أبه بتأملِ المكان. لمحت عددًا كبيرًا من الزوار منشغلين بالوضوء من صنابير نحاسية ضخمة تصبُّ في أحواضٍ تزيّن حوافها زخارف دقيقة ملوّنة بألوان زرقاء. فيما وقف قليلٌ من السواحٍ لالتقاطِ صورٍ تذكاريةٍ للتكية.

وضع د. فالتر يده فوق كتفي وقال بحروفٍ عربية واضحة:

- سوف ندخل الآن قاعة «السمعانة» بالقرب من بوابة التكية مقابل المدخل الرئيسي.

- السمعانة؟

- المكان الذي سوف ندخله الآن يُدعى «السمعانة»، هو المحور الأهم الذي تدور حوله أنشطة التكية بأسرها، وخاصةً أنشطة الموسيقى الصوفية.

دلّفنا إلى قلب التكية؛ كانت مكونة من منصة خشبية مستديرة تتوسطها دائرة بلون مغاير للون المنصة، ويحيط بها درابزين خشبي، وفي نهاية القاعة مجموعة من الأعمدة الرخامية المرممية التي كانت تشرق في ضوء القناديل المُدلاة. أما الطابق الثاني فكان عبارة عن سلمٍ خشبي يؤدي إلى مساحات غير منتظمة خصّصت لجلوس الجمهور والمشاهدين.

لم تكّد تمرّ ثوانٍ حتّى خرج من خلف الأعمدة مجموعة من راقصي المولوية يرتدون أردية من القماش الكحلي الغامق، وفوق رؤوسهم العمامة المولوية البنيّة، ثم ظهر من وسط الظلام الذي كان يخيم على الأعمدة الخلفية للقاعة شيخ يرتدي قميصاً أخضر وفوق رأسه عمامة بيضاء مخروطية، أشار إليه د. فالتر أن هذا هو شيخ الطريقة المولوية لهذه التكية.

نظر الشيخ إلى د. فالتر نظرة تتم عن سابق معرفة، فأطرق د. فالتر برأسه مبتسماً، ثم تقدّم خطوة إلى الأمام، ونطق كلمة «دستور» وأردفها باللغة العربية: هل تسمح لي بالدخول؟ فأجابه الشيخ بعربية لا تخلو من أعجمية وهو يرفع سبابة يده اليمنى نحو سقف القاعة قائلاً: «هو».

خلع د. فالتر نعليه ووضعها خارج دائرة كانت مرسومة على أرض الصالة، ثم وضع يده اليمنى فوق صدره حيث موضع القلب مباشرة ونطق باللغة العربية: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ الشيخ بيد د. فالتر وقاده إلى صدر القاعة التي كانت عبارة عن مصطبة خشبية مرتفعة عن الأرض. صدحت أنغام ناي من مكان لم أتبين مصدره. نظر د. فالتر نحوي وقال بصوت خافت: اقترب يا يونس.

اقتربتُ وفعلتُ مثله. خلعتُ نعليّ، وطلبتُ الإذن منه بكلمة «دستور»، فقال الشيخ بصوت جهوري رصين: «هو»، رافعاً سبابة كفه الأيمن نحو سقف القاعة، فخطوت خطوتين نحو صدر القاعة.

كان الشيخ العجوز الذي تقدّم إلينا وأعطانا الإذن للدخول إلى «الحضرة» هو شيخ الطريقة. عرفني إليه د. فالتر الذي تحدث بعربية رائعة قائلاً: «هذا هو الشيخ «نجدت إسماعيل حقاني»، شيخ الطريقة المولوية في هذه التكية، كما أن نسبه يمتد إلى المتصوف والشاعر التركي «يونس إمره».

سألني وهو يحدّق إليّ كأنما ينظر إلى مخلوق مختلفٍ عمّن زاروا التكية من قبل:

- يبدو أنك كثير السفر والترحال مثلما كان مولانا «يونس إمره»؟

- إلى حدّ ما، على حدّ علمي قضى المتصوف «إمره» حياته مسافراً رحالاً من مكانٍ لآخر...

- لقد عانى مولانا يونس كثيراً من آلام الغربية والسفر والبعاد، بينَ أذربيجان وفارس والأناضول، سافر كثيراً وقطع ودياناً وجبالاً حتّى وصل...

اكتفيتُ بابتسامةٍ خفيفةٍ ردًّا على كلامه. لم أطمئن كثيرًا للهدوء الذي لفَّ القاعة، لكنني واصلتُ اللعبة.

دعانا الشيخ «وجدت» للجلوسِ على الأرض. جلسنا وسطَ صالةٍ دائريةٍ أرضيتها مصنوعةٌ من خشبٍ مطلي باللون البني الفاتح. تربَّعَ د. فالتر وقد كَسَا وجهه هدوءً جبلي. نكَّسَ رأسه إلى أرض الصالة وعقدَ يديه إلى صدره، بعدَ أن خلَعَ نظارته الطيبة وثناها، ثم علَّقها في فتحة قميصه السماوي.

قعدَ الشيخُ أمانا. جلسنا د. فالتر وأنا على يمينه ويساره. سألته إن كان قبر «يونس إمره» يقع في هذه البقعة، فأجاب:

- للأسف... موضعُ قبرِ يونس إمره ما يزال مجهولاً، والمريدون من الأقطار المختلفة كانوا يرغبون أن يكون قبرُ العارف «إمره» في بلده طلباً للبركة؛ لكن أغلب الظن يا سيد يونس أن قبر «يونس إمره» يقع في تكيّة «عبد الرازق»، الكائنة في منطقة «شيلي» في مقاطعة بورصة...

- وأين يذهب مريدوه إذا أرادوا زيارة ضريحه؟

- نحن نؤمنُ أن روحَ يونس إمره في كلِّ مكان، بل إن حكايةَ يونس معَ شيخه الذي ارتحلَ إليه تتكررُ منذ الأزل؛ كان يبحثُ عن الحقِّ والمحبة، فوجدَ الله في كلِّ مكان... لذلك هو في كلِّ مكان.

راقَ الشيخُ «وجدت» أن اسمي «يونس»، وأني مصريٌّ، فأخذَ يحكي عن حُبِّ العارفين المصريين ليونس إمره. حدثني عن متصوفٍ مصري يُدعى «نيازي مُحَمَّد مصري»، وقالَ إنَّه مؤسسُ الطريقة الخلوتية في مصر، وتوفي في القرن السابع عشر الميلادي ودُفنَ في سفح جبل المقطم، وكان كثيرَ التعظيم لأشعار وأحوال وأقوال يونس إمره، وقد كتَبَ شرحًا رائعًا للأشعار الصوفية ليونس إمره. «الصوفية طريق لا ينتهي، لا تعرف إذا بدأت أين تنتهي، ولا تكاد تعرف ذاتك في آخر الرحلة».

سوفَ يبدأ العرضُ الآن.

وكأنهم كانوا ينتظرون كلمةً سريةً لم ينطقها. لَمَحْتُ الدراويش يدخلونَ واحدًا تلو الآخر إلى القاعة التي جلسُ وسطها. طلبَ منَّا الشيخُ «وجدت» النهوضَ، والرجوعَ إلى الخلفِ قليلًا لإتاحة الفرصة للدراويش لأداءِ رقصة المولوية.

كان الدراويش يرددونَ أوديةً سوداءَ طويلة، وفوق رؤوسهم «طواقي» بُنية مخروطية عالية. انحنى الدراويش على الأرض فقبلوها، ثم ولوا وجوههم شطر القبلة، وأيديهم مكتوفة على قلوبهم.

بعدها بدأ عازفو الناي وقارعو الدفوف في العزف. أحنى الدراويش الراقصون رؤوسهم بهدوء ناحية اليمين كأن الصوت يخدرهم. شرعوا في أداء الرقصة بأيادٍ مكتفة فوق الصدور. كانت التنورة التي يرتديها كل درويش تتفتح وتطوى فوق جسده مثل جناحي فراشة تلهو وحدها غير أبهة بهذا العالم.

بدأت الدفوف تنقر والمعازف تعزف، وسمعتُ صوت الجوقة يعني:

انظر الأزهار يا مَنْ قَدْ عشق تشبه المرأة موتاً يستبق

مثل مَنْ مِنْهُ حبيبٌ قَدْ نفر لاح قَالَتْ إلى أين السفر

زهرة تذوي بأمر ربها تصدح الطير بنجوى ربها

ومن الحزن عيون تدمع كان ما كان فماذا تصنع

وعرَفَتْ أَنَّهُ جاء وراح ذاك يدري مَنْ لَهُ في العشق راح

لَكَ يا يونس صمْتُ قَدْ وَجَبَ كُلُّ شَيْءٍ لَكَ رَبُّ قَدْ كَتَبَ

بدأ صوتُ نقرِ الدفوف وأنينِ الناي يأخذُ برأسي؛ ربما أَحَسَّ الشَّيْخُ «نجدت» بِذَلِكَ، فَصَفَّقَ بيديه، فَإِذَا بِطِفْلَةٍ لم تبلغ الخامسة من عمرها لها شعْرٌ أسود كالفحم، تخطو نحونا، حاملةً صينية ذهبية فوقها ثلاثة كؤوس قهوة. ناولني الشَّيْخُ كأساً فضيةً صغيرة، وقَدَّمَ مثلها للدكتور فالتر. كان للقهوة رائحة نفاذة لم أشم أزكى منها، تدفقتُ أرومتها إلى أنفي؛ فأحسست برجة تهزني.

قَالَ الشَّيْخُ نجدت وَهُوَ يشير إلى القهوة:

- يونس... مَنْ أَرَادَ ارتياد الطريق، فعليه أن يشرب من كُلِّ الكؤوس...

ارتشفتُ رشفتين. لم أَكْذُ أجزعُ الثالثة حَتَّى دارتُ رأسي.

نهضنا؛ فأمسكتُ بيد د. فالتر وبيد الشَّيْخِ، ورُحْنَا ندور عكس اتجاه عقارب الساعة، ثم أحسستُ بعيني تتأقلان في هدوء.

أخذتُ أطوفَ حولَ نفسي حَتَّى غمرني اتزانٌ نسبي، فجلستُ في مكاني على الأرض وسط القاعة، مُسنداً ظهري إلى أحد الأعمدة الرخامية التي تجاورنا. خفتت الإضاءة تدريجياً لتعود العتمة الزرقاء الشفافة التي انسل عبرها الدراويش، وكأنهم لم يحضروا بيننا أبداً، أو أنهم كطيفٍ مرق، أو حلم انقشع.

خَيْمٌ صَمْتُ قَوِي عَلَى الْمَكَانِ، وَاخْتَفَى كُلُّ مَنْ فِي الْقَاعَةِ.

كُنْتُ جَالِسًا فِي الزَّاوِيَةِ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ فِيهَا أُمِّي، مُتْرَبِّعًا فِي الرِّكْنِ الْمُنْزَوِيِّ بَيْنَ بَابِ الْحِجْرَةِ وَالذُّوْلَابِ الْأَبْنُوسِ الْمَلَّاصِقِ لِلْحَائِطِ.

شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ تَدْبُ إِلَى جَوَارِي. رَفَعْتُ بَصْرِي قَلِيلًا، فَرَأَيْتُ فَيْرُوزَ جَالِسَةً وَسَطَ الْغُرْفَةِ وَأَنَامِلَهَا الْمَرْمَرِيَّةَ تَدَاعِبُ طَائِرًا أَشْبَهَ بِهَدْدٍ أَزْرَقَ ذِي جَنَاحَيْنِ يَرْتَفِعَانِ وَيَنْخَفِضَانِ فِي إِيقَاعِ هَادِيٍّ مُنْتَظِمٍ، وَكَأَنَّمَا يَسْلُمُ عَلَيْهَا أَوْ يَرُدُّ مَدَاعِبَتَهَا.

مِنْ سَقْفِ الْغُرْفَةِ تَدَلَّى قَنْدِيلٌ زَيْتِي بِحَبْلِ لَمْ أَتَبَيَّنْ لَوْنَهُ، كَانَ يُضِيءُ الْمَكَانَ، فِيمَا قَارِبْتُ فَتَيْلَتُهُ عَلَى الْإِنْتِفَاءِ، إِلَّا أَنْ ضَوْءَ الْفَتِيلَةِ كَانَ قَدْ انْعَكَسَ فَوْقَ مِرَاةٍ ضَخْمَةٍ مَعْلُوقَةٍ عَلَى الْجِدَارِ الْمَقَابِلِ، فَبَدَتْ وَمُضَاتُ النُّورِ مِتْرَاقِصَةً مِثْلَ «رَاقِصَاتِ بَالِيهِ» مَبْتَدَأَاتٍ يُحَاوِلْنَ الْوُقُوفَ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ. نَهَضْتُ فَيْرُوزَ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَوَجَّهْتُ إِلَى الْمِرَاةِ، تَطَلَعْتُ إِلَيْهَا وَابْتَسَمْتُ. أَخَذْتُ تَنْظُرًا إِلَى مَكَانِ الْعُمُودِ الرَّخَامِيِّ حَيْثُ أُجْلِسُ.

لَمْ يَبْدُ عَلَيْهَا أَنَّهَا رَأَتْني. أَدَارْتُ ظَهْرَهَا لِلْمِرَاةِ، ثُمَّ مَشَتْ نَحْوَ مَكْتَبِ خَشَبِي صَغِيرِ وَسَطِ الْغُرْفَةِ، وَسَحَبَتْ وَرْقَةً بَيْضَاءَ كَبِيرَةً وَقَلَمًا، ثُمَّ عَادَتْ لِتَجْلِسَ ثَانِيَةً وَالْهَدْدُ فِي أَنْتِظَارِهَا. قُمْتُ مِنْ مَكَانِي، وَدَنَوْتُ مِنْهَا حَتَّى كِدْتُ أَفُفُّ أَمَامَهَا مَبَاشَرَةً.

لَمْ تَشْعُرْ بِوَجُودِي مِنْ جَدِيدٍ وَكَأَنَّيْ شَبَحَ مَرِيدٍ. رَاحَتْ تَرَسُّمُ دَائِرَةٍ كَبِيرَةٍ عَلَى سَطْحِ الْوَرْقَةِ، ثُمَّ بَدَأَتْ تُقَسِّمُ الدَّائِرَةَ سَبْعَةَ أَقْسَامٍ مُتَسَاوِيَةٍ، وَتَكْتُبُ كَلِمَةَ «وَادِي» عَلَى رَأْسِ كُلِّ قِسْمٍ بِالْتَّمَّاسِ مَعَ مَحِيطِ الدَّائِرَةِ.

هَمَسْتُ إِلَى الْهَدْدِ بِصَوْتِ دَافِيٍّ: صَدِيقِي... أَوْدِيَةِ الْعَشْقِ سَبْعَةٌ، وَسَنَوَاتِ الْفِرَاقِ سَبْعَةٌ. فَلَوْ أَرَادَ السَّائِرُ اللَّقَاءَ مِنْ جَدِيدٍ، فَلْيُعِدْنِي أَنْ يَسَافَرَ إِلَى حَيْثُ يَقُودُهُ قَلْبُهُ. أَخْبِرْهُ أَيُّهَا الْهَدْدُ، وَلَا تَخَفْ... لَنْ يَطْرُدَكَ... وَلَنْ يَزِيحَكَ.

طَارَ الْهَدْدُ حَتَّى وَقَفَ فَوْقَ شَعْرِهَا وَحَنَى رَأْسَهُ، وَهَمَسَ فِي أُذُنِهَا الْيَمْنَى فَضَحَكَتْ، ثُمَّ هَمَسَ فِي أُذُنِهَا الْيَسْرَى فَبَكَتْ. اقْتَرَبْتُ مُحَاوِلًا مَلَامَسَةَ شَعْرِهَا، فَتَلَّاشَى كُلَّ شَيْءٍ مِثْلَ صَفْحَةِ مَاءٍ جَرَحَهَا حَجْرٌ صَغِيرٌ.

دَنَوْتُ مِنَ الْبِسَاطِ الَّذِي كَانَتْ تَجْلِسُ فَوْقَهُ. شَيْءٌ مَا دَفَعَنِي إِلَّا أَطَأَهُ بِقَدَمِي، فَانْحَنَيْتُ مُسْنِدًا رِكْبَتِي عَلَى الْأَرْضِ، وَقَرَّبْتُ كَفِي الْأَيْمَنِ مِنْ سَطْحِ الْبِسَاطِ فَوَجَدْتُهُ دَافِنًا كَأَنَّمَا فَارَقَهُ جَسْدٌ حَيٌّ. لَكِنْ الْجَسَدُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ، بَلِ الْوَرْقَةُ وَحْدَهَا.

كَانَتْ الورقة التي رسمتها «فيروز» بخطها الدقيق لا تزال مُسجاةً فوق البساط، أراها جيداً وأرى الكلام المدوّن فوقها، حاولت الإمساك بالورقة فلم أفليح، وكأني أطاردُ ظلاً على الحائط.

سمعتُ صوتَ الباب يُغلق من ورائي؛ فزعتُ، وهرعتُ إلى باب الغرفة لأفتحه. لم أجد مقبضاً. حاولتُ إزاحة الباب فلم يتزحزح، فطرقته بقوة عسى أن يسمعي مجيباً من ورائه فلم يُجيني أحد. خفتُ الوطء قليلاً كيلاً أزججها، فلعلها نائمة هنا أو هناك. عدت وأنا يائسٌ، ركعتُ على الأرض من جديد متأملاً الورقة فوجدت عبارة مسطورة بنفس الخط الدقيق «لفيروز»: مَنْ قَالَ لَكَ ابْتَيْسُ؟ فَمَا دُمْتَ تعرف الباب فامضِ إليه، وقل له: لتظل مُغلقاً، فإن تكثر الجلوس أمام الباب المغلق، كُن على يقين أن شخصاً ما سيأتي ويفتحه».

لم أشعرُ بنفسي إلا ونحن نجتاز بوابة قاعة «السمعانة» إلى خارج مبنى التكية؛ أعطاني الشيخ «نجدت» برطماناً زجاجياً ذا غطاءٍ أخضرٍ مُحكمٍ. أخبرني أنه يُهدي قهوةً تركي مخصوصة لأي شخصٍ يحمل اسم العارف «يونس إمره». خمنت أنها القهوة نفسها التي شربنا منها، فسألته:

- هل كانت هذه قهوة أم خمرًا؟

كان د. فالتر قد تأخر عنا وقد شغل بالتقاط عدة صورٍ للمكان وكأنه يزوره للمرة الأولى. أثناء سيرنا في ساحة التكية المؤدية إلى بوابة الخروج، همس الشيخ «نجدت» وكأنه يقول سرًا:

- القهوة خمرُ الصابرين...

- مستحيل تكون قهوة... لقد أطاحت قهوتك بعقلي يا شيخ نجدت!

- مَنْ لَمْ يَذُقْ لَمْ يَعْرِفْ، بالمناسبة... القهوة في معجم «الفيروز أبادي» اسمٌ من أسماء الخمر... هل تعلم أن شجرة اللبّ تستغرق خمس سنوات كي تبلغ سنّ العطاء، وتظل تمنح القهوة للبشرية حتى تجاوز السبعين؟

انتهى المؤتمر في عصر اليوم الثالث. بعدها اختفى د. فالتر تمامًا. علمت فيما بعد أنه أراد زيارة قصر «طوبقا باي» وحده.

وفي صباح اليوم الرابع والأخير، أقلتنا أول طائرة من «إسطنبول» إلى مطار «فيينا».

أثناء الرحلة في الطائرة، وفي طريقي إلى المنزل، لم يبرح ذهني موضوع وفاة «بياتريس».

كان الفضول زناً مثل ذبابة في غرفة حارة. لم أطق الانتظار، فاتصلت بحماي بكر الطولاني في يوم وصولي وطلبت رؤيته.

قابلته في مقهى قريبٍ من المنزل بعد أن هاتفته تليفونيًّا وأخبرته أنني قريب من المستشفى، وأنَّه يمكننا أن نتناول الغداء معًا في هذا اليوم، دخلتُ المقهى فوجدته جالسًا يتصفح جريدة ويشرب فنجانًا من الشاي الأخضر، صافحني ودعاني للجلوس.

- هذه مفاجأة يا يونس... ما الذي حدثَ لتتذكرَ حماك العجوز؟

- كنت مضطرًّا يا عمي والله... الجامعة والعمل... الوقت ضيق...

- وأنت... كيف أحوالك؟... فيم أنت مشغولٌ عن حماك؟

- أعيش يا عمي، وهذا في حد ذاته انشغالٌ متواصل... أودُ سؤالك عن شيء... أعلمُ أنك كنتَ جاريًا لبروفيسور فالتر فون دير هولتس في منزله القديم منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، فكرَ ثوانٍ وقالَ:

- نعم... نعم... أذكره... هذا الأستاذ الجامعي الذي حدثتكَ عنه «كيرستين» ذات يوم... كان متحفظًا بعض الشيء في علاقاته الاجتماعية، لكنَّه كان ودودًا... ماذا عنه؟

- هل ما تزال تذكر شيئًا عن قصة ابنته «بياتريس» التي توفيت وهي طفلة؟

- حدثَ هذا منذُ زمن طويل... منذ ثلاثين سنة وربما أكثر، نعم أذكرها... لم تسأل؟

- مجرد فضول... لقد ذكرها اليوم أمامي بشكلٍ غامض... أنتَ تعرفُ أنه مشرفٌ على رسالتي للدكتوراه، هل يمكنُ أن تحكي لي عن موضوع الوفاة؟

- كنتُ أعملُ وقتها طبيبَ استقبال في مستشفى جامعة جراتس التي توفيتُ بها، لكن لأكون صادقًا معك سأحكي ما تسعفني به الذاكرة... أتذكرُ أنها توفيتُ وهي في سن الخامسة أو السادسة تقريبًا من فيروس نادر أصابها في المخ، وكان المباشِرُ لحالتها طبيبُ أورام مخ إيراني يدعي «بيوزيف كاراني»، توفيتُ الطفلة بعد دخولها المستشفى ببضعة أيام، أذكرُ أن د. فالتر بقي إلى جوارها خمسة أيام متواصلًا في المستشفى، كان ينام في الاستقبال ويرفض الذهابَ إلى منزله، قالوا إنَّه ما طعمَ لقمة واحدة في جوفه طوال هذه المدة، وعندما ماتتُ وخرج د. «كاراني» يخبره، ظلَّ على الكرسي دون حراكٍ يحدِّق في السقف لمدة نصف ساعة... والله انقهرتُ لحالته يا بني.

- وماذا فعلَ بعدها؟

- كانت حماتك «كيرستين» صديقةً لزوجته «بياتي فون دير هولتس» مثلما حكَّتْ لك من قبل، كانوا يذهبون إلى الكنيسة الإنجيلية هنا، ثم توطدت العلاقة تدريجيًّا إلى أن رحلَ د. فالتر عن الحي، يمكنُ أخبرتك حماتك أنه كان يترددُ كثيرًا على شركة السياحة التي تعملُ فيها لحجز تذاكر طيران وفنادق وغير ذلك... وعلمنا أنه دفنَ الصغيرة في مقابر «آل فون دير هولتس» المجاورة لكنيسة «ماريا

تروست» القريبة من جراتس، وبعدها بفترةٍ سافرَ د. فالتر لمدة شهرين كاملين؛ لا يعرف أحدٌ أين سافرَ وَلَا ماذا حدثَ لَهُ، وَلَا حتَّى زوجته عرفتُ شيئاً، رجَع بعدها كأنَّما قدَّ مُحيبٌ ذاكرته لدرجة أنهم قالوا إنَّه اشترى ذاكرةً جديدة... ثمَّ واصلَ حياته بشكلٍ طبيعي... الجامعة والكتب والأبحاث، واشترى بيتاً جديداً...

- يونس... ماذا تبغي من هذا الموضوع؟

- أبداً... مجرد فضول...

- ولماذا لم تسأله هُوَ شخصياً؟

- لم أشأ أن أنكأ جرحاً في قلبه، هُوَ من أثارَ الموضوعَ بشكلٍ عابرٍ وغامضٍ أثارَ فضولي، ولكن غريب موضوع السفر هذا يا عمي... هل أنت متأكد أن أحداً لا يعرف أين سافرَ وَلَا ماذا فعل؟

- والله يا يونس... أنا ما كنت معه... زوجته حكّت لنا مثل ما رويتُ لك... وهُو بطبعه قليل الكلام، أنت تعرفه أكثر مني.

- أعرفه أكثر منك... والله أنا ما أعرف شيئاً يا عمي!

- فقط هذا الموضوع الذي كنت تريدني أحكي فيه؟ ما وحشك حماك يا دكتور؟

- أكيد، إن شاء الله نتناولُ عشاءنا معاً يوم الأحد... قبلاتي لكيرستين.

نهضتُ من الكرسي بعد أن شكرتُ حماتي على وقته وودَّعته، وخرجتُ من المقهى أكثرَ حيرةً مما دخلتُ... النتيجة صفر.

كنتُ ألتقي حناً في الاجتماعات أو في ردهة المعهد. دائماً ما كان يبدو عليها الشرود والوجوم، كأنها توبَّخ نفسها أو على الأقل تُعاتب نفسها على شيء ما. أحياناً كنتُ أراها في محطة المترو وكانت تقول لي: يجب أن نتكلم... يجب أن نتكلم. كأنت عيناها على الدوام محمرتين كأنها لم تنم منذُ فترة. وكانت تحكي كلما رأيتها بالصدفة في مكتبة الجامعة الرئيسة أو في أروقة المعهد عن دار أطفال ملحقة بكنيسة ماريا تروست القريبة من الجامعة.

لم أفطنُ في البداية إلى سبب حديثها عن هذه الدار، فكرتُ أنَّها ربما تفضضُ معي، من باب تعويض مشاعر الوحدة. كأنت تهربُ من المدينة والجامعة كلما استطاعت، محاولةً ألا تقضي وقتها كله محبوسةً في مكتبة الجامعة. قالت لي يوماً إنَّها بحاجة إلى أن تتكلم بدون انقطاع وأن تنتنس في الهواء الطلق حتَّى يفرغَ من الأكسجين.

ذات يوم، أخبرتني أَنَّهَا تترددُ عَلَى الدَّارِ بصفةٍ شبيهةٍ منتظمةٍ؛ في أوقات الأعياد: عيد الميلاد و عيد الفصح وتحمل الـ Osterhasen المصنوعة من الشيكولاته، وفي أوقات العطلة الصيفية تجلس إلى الأطفال وتلهو معهم.

كنتُ قد انتهيتُ ذَلِكَ اليوم في الواحدة ظهراً. رأيتها تقفُ إلى جوار «سابينا» سكرتيرة القسم، يتحدثان. عندما وصلتُ حجرة «سابينا» ألقىتُ التحية، فأسرعتُ حناً بوداعِ صديقتها وَقَالَتْ إِنَّهَا تريد أن تُريني شيئاً جديداً.

اقتَرَحْتُ تركَ الدراجات في بارك الجامعة والسيرَ إلى المكان، فوافقتها. قطعنا الطريق في نحو ربع ساعة تقريباً، توقفتُ ثم أشارت إلى مبنى أبيضٍ شاهق، ضغطت زر الـ intercome، فسرعان ما فُتِحَ البابُ كما لو أنَّ أحداً يَنتظرُنَا. صعَدنا إلى الدور الثاني من المبنى، حيثُ مقر الدار. كان باب الفصل مفتوحاً، مما سمحَ بتسلل صوتِ تحضيراتٍ وهمهماتٍ متقطعةٍ لآلاتِ موسيقيةٍ متنوعةٍ إلى أذني. دلفنا الحجرة، فاستقبلتنا أصوات الأطفال وهم يتبادلون ضحكاتٍ متقطعةٍ معَ مدرسة الفصل التي عرَفتني إليها حناً. كانت الحجرة أشبه بقاعة أفراح صغيرة تغطُّ بالملائكة، وقد اصطفت فيها المقاعد صفاً دائرياً، وكانت مساحتها لا تزيد عن عشرين متراً مربعاً تقريباً. أعلى الحائط الأمامي للفصل صليبٌ فضي كبير تجاوره صورة للسيدة العذراء تحملُ المسيح. راقني لَوْنُ النوافذ الخشبية البرتقالية الفاتحة، وأسكرتني شذا رائحة الياسمين المتصاعد بقوةٍ من إصيصٍ معلق خارج النافذة.

تَحَلَّقُ الأطفال حول طاولةٍ بيضاءٍ عريضة. كان كُلُّ طفلٍ يحملُ آلةَ موسيقيةٍ وهو جالسٌ على كرسي أبيض مرتفع الظهر؛ واحدٌ يحملُ جيتاراً، وآخر يحملُ آلةَ فيولين، وطفلةٌ ثالثة بشعرٍ ذهبي قصير تقبضُ بجناحيها الصغيرين على آلة أبوا سوداء طويلة، تنفخ فيها وهي تكافح كي لا تسقط الآلة من فرطِ ثقلها.

وسطَ الحجرة جلسَتُ ملاكٌ لا تكاد تبلغ الأربع سنوات لا تحمل شيئاً في يدها.

قائدة الأوركسترا؟

تطلعتُ إلى وجوه الأطفال الذين غرقوا في عزفِ اللحن المتفق عليه؛ كانت عيونهم الغائبة تحقُّ بتركيزٍ شديدٍ إلى سقف الغرفة، كما لو أنَّ كُلَّ طفلٍ منهم يناجي كياناً ما. لمحتُ حناً واقفةً سائدةً بظهرها إلى باب الحجرة، وقد ابتلتُ وجنتاها بالدموعِ وهي تتأملُ الأطفال بشغفٍ ونصف ابتسامة. أخذتُ تبعثُ بينَ الحين والآخر بقبلةٍ في الهواء إلى كل طفل. وكلما بعثتُ بقبلةٍ إلى أحدهم، كان يتوقفُ ثانية، ويلتفتُ بوجهه إلى مصدرِ القبلة ليتلقطها، ثم يعاود العزف من جديد دون انقطاع في مسار اللحن.

فوجئتُ باقترابها حتى شعرتُ أَنَّهَا تقفُ فوق أنفي، ثم همستُ:

- لا ألمح عليك أي تأثر... ألم تُثر فيك رؤيتهم أية مشاعر؟

- وكيف عرفت أنني لم أتأثر؟

- وجهك مثل لوح تلج...

أطرقت برأسها نحو الأرض، فلمحتُ دموعًا سوداءً تخط خديها الأبيضين، خمّنتُ أن ذلك من فعل اختلاط الدموع بالكحل.

ولكن أي امرأةٍ تكتحل قبل أن تأتي إلى مثل هذا المكان؟ ربما وضعت الكحل وهي لا تخطط للقدوم إلى الملجأ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، كيف عرفت بموعد الحفلة الموسيقية لهؤلاء الأطفال؟

- اسمحي لي أسألك هل أتيت بي إلى هنا كي تختبري قدرتي على التأثر بروية أطفال، أنت لا تفهمين... أنا مت بالفعل...

- وماذا لو ملكت نجمة كانت تضيء حياتك، ثم انطفأت لتضيء في أماكن أخرى من الكون؟ ثم نادى النجمة عليك من بعيد... «اصعد»... هل تصدقها؟

- ولكن نجمتي انطفأت...

- لم تجب سؤالي... هل تصدقها؟

- لست في حاجة لأصدقها... صار قلبي مبتورًا... ومن يكلمك بقايا إنسان، حنا... هل انتهينا الآن؟

- لا أفهم...

- أقصد... هل انتهى ما أردت أن تُريني إياه؟

- نعم... يمكننا الانصراف إذا أردت...

تنبّهت إلى توتر حنا من طريقي الجافة في الحديث، فدعوته كنوع من الاعتذار، إلى تناول القهوة في Barista Coffeshop الواقع في شارع هاينريش القريب، فلم تُرفض.

كانت درجة الحرارة قد أخذت في الاعتدال النسبي مع اقتراب الساعة من الواحدة بعد الظهر. لم يكن أحدٌ سوانا يسير في الشارع. كنت أرى ملامح التأثر على قسماات وجهها بعد هذه الزيارة، وكنت أفكر فيم وراء ذلك، لماذا جاءت بي إلى هنا؟ فضلت حنا الجلوس في الخارج حيث المقاعد الرمادية المرصوة في ال open area؛ طلبت قهوة اسبريسو، وطلبت شايًا أخضر.

تحللت من الكوفية الحمراء التي كانت تطوق عنقها، وعلقتها من منتصفها على ظهر المقعد:

- عندي سؤال، أريد عنه إجابة صريحة...

- أكيد.

- هل لك قريبة في هذا المكان...؟ أقصد دار الأيتام التي قمنا بزيارتها منذُ قليل؟

- هل هذا سؤال أم تخمين؟

- لو كنتُ أخصن لسألت السؤال بطريقة أخرى...

كان السؤال مثل الفتيلة التي كَرَّت باقي الخيط.

«يونس... كُلُّ الملائكة التي رأيتها في الدار جزء مني أداريه، ويداريه الزمان عني. حين جئت مع والدي إلى النمسا منذُ عشرين سنة بعد وفاة أمي، استقرَّ أبي على شراء شقة في جراتس. كان يعمل مهندس كهرباء في شركة إنشاءات تقوم بأعمال توسعات مترو الأنفاق في مدينة «جراتس». في هذه الأيام كانت القراءة هي كل حياتي. بدأت بنهم في قراءة ريلكه، وباول تسيلان، وروبرت موزيل وأعجبت كثيراً برحلات رلكه إلى الشرق وخاصة إلى مصر ووقعه في غرام امرأة مصرية تدعى «نعمت علوي»، وطالما فكرت كثيراً في حكاية راينر ماريا ريلكه الذي أصيب بالمرض الذي أودى بحياته بسبب «زهرة»، قطفها ليعطيها لحبيبتة المصرية، فجرحت أشواك الزهرة يده حتى سألت دماؤه وانتقل إليه فيروس ما... جذبتني هذه الحكاية الغريبة إلى عالم الشرق، فالتحقت بكلية الدراسات الشرقية في جامعة فيينا، وقضيت أربع سنوات وحدي للدراسة، وأثناء الدراسة تعرفت هناك على شاب يدرس الأدب العربي في الجامعة.

كان يأتي أحياناً ويقوم أسابيع في شقتي الصغيرة في «فيينا» التي تكفل أبي بسداد إيجارها، وكنت أحياناً أمكث عنده في شفته. في العام الدراسي الثالث، وفي أواخر العام تحديداً، اكتشفت أنني حامل. كنا سعيدين بذلك، لكنني كنت أخشى ألا أستطيع مواصلة الدراسة، فوعدني أن يسافر ليخطبني من أبي بشكل رسمي.

في البداية، أخفيت موضوع الحمل عن الجميع، عن أصدقائي وأبي حتى بدأت ملامح الجنين تتجسد منكورة في أحشائي، فطلبت منه الإسراع بالسفر إلى أبي وإخباره، وقررت تأجيل دراستي حتى أضع طفلي.

- كانت بنتاً؟

- نعم... كانت رغبته أن يسميها «بياتريس»، إلا أن القدر لم يمهلها...

- لا أفهم؟

في يوم، فوجئتُ بأختيه تطرُقُ بابِ شقتي وتخبرني أن «ماتياس» قد صدمته سيارة نقل يقودها مخمورٌ في طريق السيارات السريع، وأنه في حالة حرجة ويريد رؤيتي للمرة الأخيرة، هرعتُ ببطني المنتفخة إلى المستشفى، إلا أنه كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة. لم أدر ماذا أفعل وأنا على وشك الولادة، كنت في بداية الشهر التاسع، وكان «ماتياس» قد وعدني بتدبير كل شيء... مصاريف الولادة، تجهيز شقتي للانتقال للإقامة معي.

- مسكينة؟

- أنا؟

اضطربتُ لحظةً، فاستدركتُ قائلاً:

- آه طبعاً... والطفلة أيضاً؛ وُلدتُ يتيمة...

- لكنّها لم ولن تعرف شيئاً عن ذلك؟

- صحيح... ما تكلمتِ عنها قط؟

- تركتها في مركز لرعاية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. حين وضعتُ طفلي، علمت أنّها فاقدة البصر وأنّها مصابةٌ بمرض تكسّر العظام الزجاجية، وهو من الأمراض التي تصيب واحداً من كل مليون طفل في العالم، وهو مرض يؤدي إلى نقص في كتلة العظام وتشوه عظام الجنين، قال لي الأطباء إن الأعراض ظهرت أثناء تكون الجنين، مما سبّب تشوهات عظمية تعوق التطور الحركي الطبيعي للطفلة... أنا السبب!!

- كيف؟

- إدمان الكحول وأشياء أخرى في الفترة السابقة على ولادتي...

- عفواً... هل لا تزال حية؟

- نعم... تركتها في مستشفى تخصصي في رعاية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، أخبرني والد «ماتياس» وكان يعمل مستشاراً ضربياً للمستشفى، أنه سيتكفل بكل شيء ولن يدع حفيدته تغادر «فينا» ما دام على قيد الحياة، حتى ولو كانت «كومة عظام هشّة» في زجاجة؛ فهِيَ آخر عبق من رائحة ابنه.

اقتربَ الجرسون وسألنا إن كنا نريد طلبَ شيءٍ آخر. كنتُ أشعرُ بإرهاقٍ وبحاجتي إلى تناول حلوى، فطلبتُ كيكًا قرفةً بالزبيب، كانتَ تطلبها سارة دائماً حين نخرج، وطلبتُ حناً قهوةً أمريكيةً، وواصلتُ حكايتها: «... بعد أن أتمت «بياتريس» عامًا كنتُ قد أنهيتُ الفصل الدراسي الأخير في جامعة فيينا، وكان يُدرّس لنا مادة «تاريخ الآداب الشرقية القديمة»، د. فالتر فون دير هولتس كأستاذ زائر لمدة فصل دراسي واحد، كنتُ غارقةً في الكتب والأبحاث كي أتتاسى فقدان الحبيب وفقدان طفلي. يبدو أنه أعجب بالأوراق التي كنتُ أقدمها حول «جنود الأساطير العربية والتركية والفارسية» وتأثيرها على الآداب الأوروبية، فتوطدت علاقتي معه بالتدريج، حتّى أنني حكيتُ له عن حكايتي كما أحكي لك الآن.

لأول مرةٍ أشعر أن ثمة شخصًا يهتمُّ بي اهتمامًا حقيقيًا بعد أبي الذي تعرّف إلى صديقةٍ شغلته عني، وأصبح يتصل بي كل أسبوع، وبعدها كل أسبوعين، ثم في أول أحدٍ من كل شهر.

عرّض عليّ د. فالتر وظيفةً مساعدٍ جامعي في قسم اللغات الشرقية بجامعة جراتس، فقبلتُ الوظيفة على الفور، كانتَ له علاقاتٌ واسعةٌ بإدارة الجامعة والأساتذة، فاستطاع تدبير الوظيفة بمقابل مادي جيد وبدأ يقربني منه.

- جميل... وهل حكى لك شيئاً عن حياته الشخصية؟

- القليل... كنتُ أزوره وزوجته في منزلهما، وعرفتُ أن له طفلةً ماتت منذُ زمن بعيد.

- هل قال لك اسمها؟

- لم أعرف منه شخصياً... عرفتُ من الأب «مارتن هيل»، راعي الكنيسة التي كنتُ أذهبُ إليها، وكانتُ تذهبُ إليها زوجته «بياتي»، أن ابنته كان اسمها «بياتريس» أيضاً؛ هو الذي أسماني «حنًا» مثل اسم أخته المتوفاة، اسمي الحقيقي «ميلاني».

بدأ المقهى في الازدحام تدريجياً مع اقتراب الساعة من الخامسة عصرًا وانتهاء أوقات العمل. دفعتُ الحسابَ وغادرنا. ونحن سائران نحو محطة المترو، لم نتوقف حنًا عن الكلام والحكايات، بينما كنتُ بالكاد أصغي إليها؛ أهرُ رأسي وذهني في عالمٍ آخر.

كانتُ سارة منهكةً في القراءة على كرسيها الخشبي الهزاز حين وصلتُ المنزل، قبلتُ رأسها من الخلف، فتركتُ الكتابَ وأمسكتُ ذراعي. دُرتُ حول المقعد ناحيتها وأنا أقبضُ على يدها برفق. تركتها وتوجهتُ إلى حجرة «فيروز». فتحتُ البابَ وأوقدتُ المصباح، وقفتُ أمام ركنها الصغير الذي كانتُ تلعب فيه مع عرائسها، أخذتُ أبحثُ عن فرشاة شعرها ذات المقبض الوردى الرقيق،

الذِي كَانَتْ تَقْبِضُ عَلَيْهِ تِلْكَ الْكَفَ الْخَمْرِيَةَ الرَّقِيقَةَ، فَلَمَحَتْ الْفَرِشَاءَ قَابِعَةً، وَحَدَّهَا فَوْقَ خَزَانَةِ الْمَلَابِسِ الْخَشْبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ، كَيْفَ لَمْ أَرَهَا مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ؟

صَدَمَ مَلْمُسُهَا الْبَارِدَ أَنْمَالِي، قَرَّبَتْهَا مِنْ أَنْفِي... شَمَمْتُهَا... قَبَّلْتُهَا... أَعَدْتُهَا إِلَى مَكَانِهَا فَوْقَ خَزَانَةِ الْمَلَابِسِ، ثُمَّ خَرَجْتُ. حِينَمَا عَدْتُ إِلَى الصَّالَةِ لَمْ أَجِدْ سَارَةَ، فَذَهَبْتُ إِلَى غُرْفَةِ الْمَشْغَلِ، فَتَحْتُ الْبَابَ يَهْدُوهُ فَالتَقَنْتُ سَارَةَ نَحْوِي وَكَأَنَّهَا كَانَتْ تَنْتَظِرُنِي، وَسَأَلْتَنِي:

- أَكَيْدَ تَتَاوَلْتَ عِشَاءَكَ مَعَ لُؤْيٍ...

- أَكَلْنَا شَيْئًا خَفِيفًا فِي مَحَلِّ شَاوَرْمَا تَرْكِي.

خَلَعْتُ مَعْطَفِي الْجَدِيدَ وَأَلْقَيْتُ بِهِ عَلَى طَرَفِ الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ جَثَوْتُ وَرَكِبْتَايَ يَقَابِلَانِ رَكْبَتَيْهَا، أَمْسَكْتُ بِيَدَيْهَا وَقَلْتُ:

- وَبَعْدَيْنِ؟

- مَاذَا؟

- لَوْلَاكِ لَكُنْتُ فِي مَسْتَشْفَى الْمَجَانِينِ...

- مَنْ لَيْسَ لَهُ دَلِيلٌ فِي قَلْبِ حَبِيبِهِ، فَأَنْىَ لَهُ الدَّلِيلُ؟

- أَوَّلَ مَرَّةٍ أَعْرِفُ أَنَّكَ تَقْرَأُ الشُّعْرَ الْعَرَبِيَّ؟

- وَلَا شَعْرَ عَرَبِيٍّ وَلَا شَيْءٍ... هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ مُؤَلِّفَ هَذَا الْبَيْتِ الشُّعْرِيِّ لَيْسَ عَرَبِيًّا مِنَ الْأَسَاسِ، خَوَاجَةٌ صِرْفًا...

- مَنْ؟

- د. فَاالْتَر، أَسْتَاذُكَ... بِسُرْعَةٍ نَسِيتُ... أَنْتَ الَّذِي ذَكَرْتَ هَذَا الْبَيْتَ أَمَامِي يَوْمَ أَنْ تَزَوَّجْنَا، وَقَلْتِ لِي إِنَّ د. فَاالْتَر هُوَ مَنْ أَلْفَهُ وَأَهْدَاهُ لَزَوْجَتِهِ فِي قَصِيدَةٍ كَتَبَهَا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّرْكِيَّةِ وَالفَارْسِيَّةِ وَالأَلْمَانِيَّةِ، وَوَضَعَ الْقَصِيدَةَ فِي إِطَارِ فِضِي، وَعَلَقَهَا فِي غُرْفَةِ نَوْمِهَا... أَنْتِ حَكِيمَةٌ لِي.

بَدَّلْتُ مَلَابِسِي وَعَدْتُ، فَوَجَدْتُهَا شَارِدَةً يَبْصُرُهَا نَحْوَ نَافِذَةِ الصَّالَةِ. جَلَسْتُ أَمَامَهَا وَضَمَمْتُهَا إِلَى صَدْرِي؛ كُنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الضَّمَّةِ. أَسَدَدْتُ رَأْسَهَا فَوْقَ كَتْفِي؛ فَأَحْسَسْتُ بِتَزَايِدِ بَخْفَقَاتِ قَلْبِهَا، رَفَعْتُ رَأْسَهَا وَقَبَّلْتُ جَبِينَهَا.

- حَصَلْتُ عَلَى فِيلْمٍ صَامِتٍ جَدِيدٍ، أَحَبُّ مَشَاهِدَتِهِ مَعَكَ؟

- من أين حصلتِ عليه؟ الفيلم شكله جديد... هل توجد أفلام صامتة هذه الأيام؟

- من «ميرا»... جارتنا العصبية أم الطفلتين... بالصدفة هي أيضًا تحبُّ الأفلام الصامتة... حكيتُ قليلاً عن حكايتنا، وعن حُبنا للأفلام الصامتة فأعطتني الفيلم...

- وما أخبارها الآن؟

- لن تعرفها؛ وكأنَّما وُلِدَتْ من جديد، يبدو أنَّ نصيحة المرحومة والدتك مُجَرَّبَةٌ، صارت عطوفة وهادئةً، وأصبحت تخرُجُ مع بناتها كلَّ يوم بعد المدرسة لتناول الغداء في الهواء، طَلَّتْ جدران غرفة الطفلتين بألوان زاهية... صارت تشتري ملابس جديدة... هل عدتْ تَسْمَعُ صراخها؟

- صحيح... لم أنتبه إلى ذلك الصمت البوذي الذي أصبح يلفُّ شقَّتْها...

- هل تعرفُ أنَّ الطفلتين صارتا تطرقان بابي كلَّ يوم بعد عودتهما من الحضانة؟ كلَّ يوم ترسمُ بنتٍ منهما صورةً جديدةً على الورقة وتسالني عن رأيي في الرسومات؟ اتفقنا نذهب باكراً للمسيح الكبير الذي في جراتس.

جَذَبَتْ سارة الغطاء فوقها لتغطَّ في نوم عميق، بينما بقيتُ ساهراً في فراشي. أخرجتُ جهاز الآي بود ووضعتُ السماعات. كانت أغنية أمي المفضلة؛ فريد الأطرش وهو يُغني يا زهرة في خيالي.

ثمَّتْ ثلاثمائة زهرة حمراء على خدي حبيبتي

لأنهض وأقطفها فعملي هو قطف الزهور

قابلتُ لؤي صباح اليوم التالي في مكتبتنا بالجامعة، كان الحلم الذي روادني أمس ما زال محفوراً فوق جلد عيني مثل النقش، كان الحلم يُطارِدني مثل ظلي.

طلبَ لؤي قهوةً مركزة وسألني:

- قهوة؟

- فيما بعد... أريد البقاء مستيقظاً، على الأقل حالما أنتهي من حكي ما رأيته أمس.

- لعله خير يا صديقي...

كنتُ أروي له الحلم كأنني أراه متجسداً أمامي بتفاصيله ورائحته:

«... كنتُ أقفُ أمامَ بنايةٍ بيضاءٍ... أشبهَ بمستشفىٍ كبيرٍ، تشرفَ على بستانٍ واسعٍ يحيطُ بأسوارِ المبنى، وكنتُ أقفُ وحيدًا في هذا البستانِ، أبحثُ عن شيءٍ لا أذكره، فأذُبُ بِمِ الشَّابَةِ رقيقةً الجسدِ، تحملُ طفلةً لا تتجاوزُ السبعَ سنواتٍ، كانتُ الطفلةُ تستندُ برأسها الملائكي الصغيرِ بوهنٍ على كتفِ أمِّها، كانتُ الطفلةُ ذابلةً... يغيضُ في وجهها ماءُ الحياة... كانتُ أشبهُ بمنَ أشرفَ على الرحيلِ وعيناها غائرتانِ في محجريهما. أخذتُ الأمُ تجري ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ؛ لتبحثَ عن شخصٍ يساعدها. تروحُ وتجيءُ وتتطلَّعُ إلى السماءِ، ثم تنظرُ إلى طفلتها.

مَا أَنْ رَأْتِي الْأُمَّ، حَتَّى تَهَلَّلْتُ أُسَارِيرُ وَجْهَهَا وَاقْتَرَبْتُ وَسَأَلْتَنِي مُتَضَرِّعَةً بِصَوْتٍ لَا يَكَادُ يَظْهَرُ مِنْ خَنْفَةِ الدَّمُوعِ:

- أَلَا تَعْطِينِي شَيْئًا... فِيمَنْ اللهُ عَلَيْكَ بِالرِّضَا؟

- تَحْتَاجِينَ الْمُسَاعَدَةَ يَا سَيِّدَتِي... وَلَكِنْ مَاذَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْدِمَ لَكَ؟

- أَنْتِ تَمْلِكُ مَا أُرِيدُ، وَسَوْفَ يَسْتَرِدُّ اللهُ بَضَاعَتَهُ قَرِيبًا... «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا».

- زَهْرَةُ عَمْرِي الْوَحِيدَةُ... كَيْفَ لِي أَنْ أَقْطِفَهَا فِي غَيْرِ أَوَانِهَا؟

- سَيِّدِي... «حِينَ تَعْطِي اللهُ شَيْئًا... يَعْطِيكَ اللهُ شَيْئًا».

أَطْرَقْتُ قَلِيلًا، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ وَضَرَبْتُ عَلَى صَدْرِي ضَرْبَةً قَوِيَةً؛ ضَرْبَةً مَنْ يَشْكُو قَلْبَهُ إِلَى عَقْلِهِ. وَضَعْتُ كَفِّي الْيَمَنِي فَوْقَ قَلْبِي فَاخْتَرَقَتْ عِظَامَ صَدْرِي، ثُمَّ أَخْرَجْتُ مِنْهُ زَهْرَةً، لَمْ أَرَ مِثْلَهَا فِي حَيَاتِي، كَانَتْ تَشْرَفُ عَلَى الذَّبُولِ، أَعْطَيْتُهَا لِلْأُمِّ الْمَسْكِينَةِ، فَأَخَذَتْهَا وَوَضَعَتْهَا عَلَى صَدْرِ طِفْلَتِهَا، فَإِذَا بِزَهْرَتِهَا شَبِهَ الذَّابِلَةَ تَدُبُّ فِيهَا الْحَيَاةُ مَرَّةً أُخْرَى، رَأَيْتُ الْأُمَّ تَحْنِي عَلَى الْأَرْضِ تَرِيدُ تَقْبِيلَهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمِي، انْحَنَيْتُ إِلَيْهَا وَأَخَذْتُ بِيَدِهَا. جَرَّتْ الْأُمُّ بِسَعَادَةٍ بَالِغَةٍ حَامِلَةً طِفْلَتَهَا إِلَى ذَلِكَ الْمَبْنِيِّ وَاخْتَفَتْ.

نَظَرَ إِلَيَّ لُؤْيٌ وَقَدَّ كَسَا الْوَجُوهُ وَجْهَهُ، ثُمَّ رَبَّتْ عَلَى كَتْفِي وَقَالَ: لِنَذْهَبْ إِلَى الْخُرُوجِ قَلِيلًا.

- وَلَكِنَّكَ لَمْ تَفْسِرْ لِي الْحُلْمَ يَا لُؤْيُ؟

يَبْدُو أَنَّ لُؤْيَ كَانَ مَفْسِّرَ أَحْلَامٍ جَيِّدٍ. قَالَ إِنَّ أَحْلَامَنَا إِمَّا أَنْ تَتَحَقَّقَ أَوْ تَهْرَبَ مِثْلَ ضَفْدَعٍ مَذْعُورٍ إِلَى قَاعِ الْبَيْرِ لِتَخْتَبِي، ثُمَّ تَقْفُزُ خَارِجَ الْبَيْرِ حِينَ يَأْذُنُ الْوَقْتُ.

وَحَكَى حِكَايَةَ الرَّجُلِ الَّذِي نَامَ وَحَلَّمَ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ فَوَجَدَ نَفْسَهُ وَحِيدًا أَمَامَ بَسْتَانٍ، فَقَطَفَ مِنَ الْبُسْتَانِ زَهْرَةً جَمِيلَةً وَغَرِيبَةً، وَحِينَ اسْتَبْقِظَ وَجَدَ الزَّهْرَةَ فِي يَدِهِ، فَحَارَ فِي تَفْسِيرِ مَا

رأى، فلَمَّا سألَ صديقه، أخبرَه أنَّ حياةَ كُلِّ إنسانٍ تحوي أشياء لا يُمكنُ فهمُها إلا بعد مرور وقتٍ على حدوثها.

قبلَ وفاته بتسعة أشهر، أصيبَ د. فالتر بالعمى، كنت قد أنهيت رسالة الماجستير على يديه، وشرعت بالفعل في رسالة الدكتوراه.

كان يكرُرُ عبارة أبي بكر الشبلي «مَا ظنك بشمسٍ... الشموس كلها فيها ظلمة»، وَلَكِنَّهُ كان يحدِّقُ إلى الشمسِ رغم ظلمتها.

في البداية، تطوَعْتُ حنًا بالذهابِ إِلَيْهِ كُلِّ سَبْتٍ وأحدٍ، كي تقرأَ لَهُ عناوين الكتب الجديدة، وتحدثُ إِلَيْهِ وتتنقلُ إليه أخبارَ الجامعة والطلبة؛ نوعٌ مِنَ التواصلِ النفسي مَعَ روح طيبة أخرى في هَذَا العالم.

ذات يوم اتصلتُ حنًا وطلبتُ مِنِّي لقاءها عندَ منزل د. فالتر؛ فالرجُلُ في حالة نفسية سيئة، وَهِيَ تظُنُّ أَنَّهُ محتاجٌ إلى مَنْ يتحدثُ إِلَيْهِ بعد انصرافِ النَّاسِ كلها مِنْ حوله.

لم أترددُ. توجهتُ يومها على الفور إلى المنزل، وَكَانَتْ «حنًا» هِيَ مَنْ فتحتُ بنفسها، فدُهَشْتُ لعدم وجود الخادمة.

قَالَتْ إن د. فالتر في غرفته بالطابق الأعلى يكمل ارتداء ملابسه وحده، وَإِنَّهَا سوف تصعد لتصعبه.

- معذرة يا يونس... أنا مضطرة للانصراف لأمرٍ عاجل.

جلستُ في غرفة المكتب التي كانت موصدة النوافذ تمامًا إلا من شُبَّاكٍ صغيرٍ أمام مكتبه يسمح بدخول تيارٍ هواءٍ يجددُ سواكن الغرفة.

كَانَتْ جميعُ الصور والبُسط التي تزيّنُ الجدران قد أُزيلت، وتعرَّتْ جدرانُ «فالتر» من البُسطِ مثل مولودٍ يتيم يأنُّ بصمتٍ على ناصية شارع مظلم.

تنبهتُ إلى وقع صوت عكازه الخشبي فوق باركيه الردهة المؤدية إلى غرفة المكتب. وقفتُ، فرأيتُ حنًا تدخل متأبطة ذراعَه. كان د. فالتر يسيرُ بخطواتٍ وثيدةٍ مستتدًا إلى عكازه بيده، واستمرَّ يهمسُ في أذنيها بكلمات هائمة لم أستطعُ القبضَ على واحدةٍ مِنْهَا. جلسَ على مقعد مكتبه وأومأ بيده إلى حنًا أَنَّهُ يعرف الطريق. كان يرتدي بذة رمادية وربطة عنق صفراء. أَجْلَسْتُهُ على مقعده، ثم انصرفت.

بعد انصرافها، تمللُ في مقعده. نهضَ وخرجَ مِنْ وراء الكرسي، متقدمًا نحوِي. أخذني مِنْ يدي وراحَ يتجول مُبْصِرًا بما يكفي ليعرفَ كل كتاب أين مَوْقعُه في متاهته المتشعبة. كان يَمُرُّ أمام

صفوف الكتب المرصوفة أمامه وكأنه يبعث إليها برسالة خفية أو يهمسُ بوصية. كان يجُرني خلفه، بينما كنتُ أحاولُ ملاحقته، خائفاً أن أتعثّر كالأعمى.

كان يلهث؛ فالتقطَ أنفاسه وأخذَ يتحدثُ بتأنٍ مكتوم، وكأنه ينزِعُ الكلمات حرقاً حرقاً من بين أسنانه:

- ها هوَ الخواجة يدنو من الانسحاب...

- اعتبرها استراحة محارب... لا تقلق... سوف أمرُّ عليك كلَّ يوم، أقرأ لك ما تريد...

- وفيه قَدْ يطمع عجوزٌ يملك المتاهة التي وراءك...

- كلنا راحلون، ويبقى من يرحلُ بجسده، ويترك أثراً في قلوب من يحبهم ويحبونه...

- من يمرُّ لا يعود أبداً، ولكنني قَدْ أعود في حكايةٍ أخرى...

- كيف؟

- عندما نقترُب من النهاية، نتمنى أن نبدأ الرحلة من جديد؛ تعلّمتُ أن معظم الناس هم أناس آخرون، أفكارهم وحياتهم... أتعرفُ أكثر ما أفقده الآن؟

- «بياتريس»؟

- لا... فنجان قهوة من يد الشيخ «نجدت».

- يبدو أن وراء هذه القهوة سرّاً يا بروف، حين شربتُ منها عندما كنا معاً، أحسستُ أنني أحلم...

- هل سمعتَ عن تعبير الشراب الإلهي... والخمرة الإلهية عند الصوفية والعارفين؟

- أكيد.... لكنني أحسستُ أنني مثل السكران! وتوهمتُ أنني رأيتُ ابنتي...

- لقاء المحبوب سُكراً لا صحو فيه... والمحبة تمحو أثركَ حتّى لا يبقى إلا محبوبك يا يونس... القهوة خمرُ العارفين...

- وأنت يا دكتور؟

- أن أوأن ركوب السفينة للرحيل... لقد بحثتُ عن زهرة عمري في كل مكان على أمل «رؤيا» طيفها يوماً، ورأيتها في بقعة تتوسط الحلم والعلم، رأيتها ولمستها، وأريد أن أساعدك...

- تساعديني في ماذا؟

- في رؤية زهرة عمرك مرةً أخرى

- تقصدُ في الأحلام؟

- شيء ما من المنطقة الفاصلة بين الحلم وبين العلم لم يفارقني قط، ذلك ما كان يحميني...

- وهل تُسفي الحكايات؟

- من لا يملأ حياته بالحكايات، يبقى وحيداً...

كأنت الكلمات تخرجُ منه بصعوبة كما لو أن لسانه مخدر، فسألته:

- ألم يأن أن يحنَّ قلبك لتحكي حكايتك؟

- حكايتي فيلم يتكررُ باستمرار...

- ولكنني لم أرَ إلا مشاهدَ قليلة... مُتناثرة لا تقول شيئاً...

- هذا طبيعي، لو أخبرتك بالقصة كلها لفقدتُ كمالها... هناك أمورٌ مُخبأة في مكانٍ ما...

- وما الفائدة؟

- أن تستعيدَ زهرتك المفقودة...

- ولكن ما ذهبَ لا يعودُ...

- هل قرأتَ البودا؟ كان يقول إن الطالب الحكيم سيجدُ طريقَ الحق، كما يجدُ العارفُ الزهرة...

رفع الرجلُ كفيه أمام صدره وعقدَهما وهو يمطُّ شفثيه؛ بدا أنه مترددٌ في أن يقولَ لي شيئاً.

- لكل رجلٍ منا على ظهره حملٌ ثقيل، وفي داخل قلبه حملٌ أثقل... وأنا محظوظٌ لأنَّ هناك من بقي

إلى جوارِي ليساعديني على تنفيذِ وصيتي، انتهى وقت القراءة وحانَ وقت النشر...

- نشر ماذا؟

- أريدك أن تضعَ في تابوتِ دفني «ديواناً» لذلك العارف الذي زرته منذُ زمن...

- ديوانَ شعريٍّ؟ وهل الشعرُ سيوصلُكَ إلى طفلتِكَ؟

- «بياتريس» لم تَغِب يوماً، سأخبرُكَ بحكايةٍ، ربما تُكون الأخيرة؛ أتعلّمُ أنني سافرتُ إلى سويسرا في أكتوبر ١٩٧٩ محاولاً لقاء بورخيس بعد علمي بوجوده في إجازة في جنيف، وصادفني الحظ وقابلته بعد جهد؛ سألتُه مثل سؤالكَ، فأخبرني أنّ الشعر والحكايات مجازٌ من مجازٍ إلى مجازٍ، وأنّ دانتي—مثلاً—ألفَ الكوميديا الإلهية و اخترعَ المطهر والجحيم والفردوس ليستحضرَ لمحةً من حبيبته «بياتريس» أيضاً، ويُعيدُها إلى الحياة، وبفضل الخيال والحكايات تتمكن بياتريس من الوجود مرة أخرى... حاولتُ تقليده... حاولتُ استعادة ابنتي داخل حكاية...

من عينيه اللتين ذبلَ بريقهما، تأكدتُ أن د. فالتر كان يُعاني تَعَبًا من الصعبِ عليه تحمُّله، وشعرتُ في هذه اللحظة بشفقةٍ تجاهه، وتجاه جسده الناحلِ الذي حولته الأيام إلى رداءٍ بالٍ.

رأيتُ أنّ هذه الفرصة السانحة كي أنيشَ في هذا الركام الغامض، فسألته:

- بالمناسبة... سمعتُ أنّك سافرتَ بعد وفاة «بياتريس» لمدة شهرين في رحلة طويلة، عُدتَ بعدها رائقَ الذهن والبال، ثمّ واصلتَ حياتك بشكلٍ طبيعيٍّ وكأن شيئاً لم يكن...

- لن أسألكَ من حكي لك ذلكَ يا يونس... الغريب أنّ الناس يتحدثون عن أمر لم يطلُعَ على حقيقته أحد، وأي إنسان يحكي عن هذه الرحلة أو هذا اللقاء سيكون كلامه صادراً عن أوهام من صنع خياله، لقد رفعَ عني هذا اللقاء جميع الحُجُب، وزرعَ في نفسي حالةً من «السكينة والرضا» لا يفهم كُنْهها غيري.

غشانا صمّتُ صحراوي. كان يُحدّقُ إليّ سطح المكتبِ، ثمّ أخذَ يتحسّسُ السطحَ برفقٍ حتّى لامستُ يده الكأسَ الذي سببتُ له فيها زجاجة الماء البيرييه.

- السفر لازمٌ لزوم الأعمى لمن يدلّه على الطريق.

- لكلّ طريقته، لا أحتاج السفر؛ أسلّي نفسي بالحكايات والكتب...

- الحكايات تفتحُ بواباتِ الأمل، وتسليكَ حتّى ترى محبوبتك بعد الموت، لكنّها تطيلُ فترة التفكير واجترار الذكريات.

- هل تريدني أن أتجولَ في الدنيا من جديد وأتّيه؟

- ليس كلُّ جوالٍ نائهاً؟

نادى د. فالتر عليّ، وهو يبحثُ بعينيه الغائبتين عن شيء.

- يونس... هل ترى علبة الشيكولاتة «Godiva» الضخمة فوق الشانون الخشبي الذي أمامك؟

- نعم يا دكتور... هل تريد شيكولاته؟

- ممكن تحضرها لي؟

نهضت وجلبت العلبة؛ كانت فخمة مثل علبة مجوهرات، وثقيلة بشكل لا يتناسب مع محتوى طبيعي لعلبة شيكولاتة، فتح الغطاء ثم رفع ورقة كرتون سميكة تحمل الصف الأول من قطع الشيكولاتة، وأخرج من أسفلها سلسلة مفاتيح أعطاني إيّاها وقال لي:

- لا بد أن تأتي وتأخذ ما تبحث عنه بنفسك...

- ما الذي أخذه بنفسه؟ وماذا فعل بهذه المفاتيح؟

- لم أتخيل المفاتيح طوال حياتي إلا درجات سلم نحو الطريق...

- وأين هو؟

- دفنته...

- وكيف أعرف مكانه؟ وماذا يحوي؟

- السر ليس بمحتواه، بل بمهارة إخفائه... يجب أن تكتشفه بنفسك... هل تستطيع أن تنقل قبلة عن طريق مرسال؟

- وماذا قد تمنحني الأوراق، كانت حياتي أوراقاً، وأعتقد أن ما ستعطيني إيّاه سيظل جبراً...

- الأنوار من القلوب إلى الأوراق... وليست من الأوراق إلى القلوب؛ ينكشف لكل من يكتشفه بنفسه...

- ولكن الأوراق والحكايات لا تُعيد الموتى...

- خذها... ربما تحيي بها أرضاً ميتة...

تمايلت ستائر النافذة المقابلة لمكتبه قليلاً، ثم انزاحت لتتساقب نسمة خفيفة صافحت وجهه؛ فاستقبلها بابتسامة وأخذ نفساً عميقاً.

أدارَ كرسيه ناحية النافذة كمن يريدُ المزيدَ، فأضاءَ وجهه بنور القمر الذي كان وضاحاً بقوة هذه الليلة، وانعكس ضياؤه على وجهه د. فالتر، فهبي لي أن القمر قد ترحزح ليقي بكل ضوءه ناحية المنزل.

تخفف الرجل من هم ثقيل كان ينوء بحمله طوال حياته، أدى مهمته على أكمل وجه، وقضي الأمر. لا مزيد يُقال. سألني سؤالاً واحداً: هل تمطر السماء بالخارج؟

نظرتُ عبر النافذة المفتوحة. كانت هناك قطيرات مطرٍ صيفي خفيف تتناثر برقة فوق إفريز الزجاج.

- نعم؟ هل تريدُ الخروجَ الآن؟

- لا... سقوطُ المطر وقتٌ مناسبٌ للوداع...

هممتُ بالانصراف وبداخلي رغبةٌ في الانحناء لأقبل رأسه كما كنتُ أفعل مع جدّي؛ ترددتُ، وبينما لم أكن قد حسمتُ أمري كان د. فالتر مُستغرقاً في تنسّم الهواء المنساب بلا انقطاع من نافذة حجرة المكتب ويده تداعبُ أثرَ المطر الخفيف فوق إفريز الزجاج. لم أودعه ولم يودعني.

كان قد ولى وجهه تماماً ناحية النافذة وقد أسندَ عنقه إلى الحافة الرخامية للنافذة، ثم راح يتلو بصوت ثابت ومختلفٍ عن الصوت المتهدج الذي بدأ به حديثه معي:

«وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ تَبِعَهُ تَلَامِيذُهُ: وَإِذَا اضْطَرَّابٌ عَظِيمٌ قَدْ حَدَثَ فِي الْبَحْرِ حَتَّى غَطَّتِ الْأَمْوَاجُ السَّفِينَةَ، وَكَانَ هُوَ نَائِمًا. فَتَقَدَّمَ تَلَامِيذُهُ وَأَيَّقَطُوهُ قَائِلِينَ: «يَا سَيِّدُ، نَجِّنَا فَإِنَّا نَهْلِكُ، فَقَالَ لَهُمْ مَا بِالْكُمْ خَائِفِينَ يَا قَلِيلِي الْإِيمَانِ؟» ثُمَّ قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَّاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ: «أَيُّ إِنْسَانٍ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّيَّاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعًا تُطِيعُهُ.»»

كان يكررها مثل تلميذٍ يستظهر آية من الكتاب المقدس، أو صبيّ كُتَّابٍ يُكرِّرُ القرآن وراء شيخه. لم أسأله إن كان يحتاج شيئاً، أو يريدني إيصاله إلى غرفته، لم أنطق بكلمة واحدة. بدت لي كل الأشياء تافهة بعد ما سمعت، وبقي صدى العبارة يتردد بجلالٍ حتى ظننت أنها انطبعت فوق جدران الغرفة.

بعد مغادرتي المنزل مساء ذلك اليوم، تمشيتُ في شوارع جراتس. نفص الطقس عن نفسه تلك النسمات التي رأيتها تهدد ستائر نافذة مكتبه، وانقطعت قطيرات المطر الصيفي، كان الليل قد هبط على شوارع المدينة، والمحلات موصدة الأبواب، باستثناء بعض المقاهي والبارات التي كانت مُضاءةً بأنوار خضراء وبفسجية تنيرُ طريقي. سرتُ مسافةً طويلةً حتى وجدت نفسي أمام الكنيسة الإنجيلية. لمحتُ شاباً يقفُ أمام بوابة الكنيسة التي كانت موصدةً، وهو يتحدث في تليفونه المحمول،

وإلى جواره شابة سميئة تتحنى أمام عربة أطفالٍ تهدهدُ رضيعًا؛ كان صديقي القديم «فيليب مارتن» وقد ازداد وزنه قليلاً. أغلقَ تليفونه المحمول ما أن رأني واحتضنني. أخبرني أن والده قد توفي منذ خمسة شهور إثر أزمةٍ قلبية؛ توفي يوم ميلاد ابنه الأول.

عرّفتني إلى زوجته «نورا»؛ لم أصدق أن هذه هي نورا التي كان يتحدثُ عنها. أشارَ إلى رضيعٍ نائمٍ داخلَ العربة؛ وأخبرني أن اسمه «مارتن» على اسم أبيه، تجنّبُ الحديث عن نفسي، قبلتُ كفَّ الطفلِ وودعتُ الزوجين على وعدٍ بقاء.

عدتُ إلى المنزل وكل الأشياء تدور من حولي مثل ألعاب السيرك.

في صباح الأحد التالي، استيقظتُ على صوت طرقاتٍ متوالية على باب الشقة، كانت السماء تمطر مطراً صيفياً خفيفاً في هذا الوقت، تميزتُ غيظاً من متطفلٍ يزجني أنا وسارة يوم الأحد، قفزتُ من الفراش متوجهاً إلى الباب، كان لؤي يقطرُ من البلب:

- لؤي؟ خير؟

- صباح الخير يا يونس... لا أعرف كيف أعذر لك... سامحني، ولكن د. فالتر مات منذ نصف ساعة في منزله...

- مات؟

- أمرُ الله... أنا لا أعرف ماذا أصنع، كنتُ معه منذ ساعة في منزله، وكان يحدثني، وكنت أصبُ الشاي، وإذا به يقع ميتاً على الأرض، اتصلتُ بالإسعاف كي تتولى الباقي، أردتُ أن أخبرك بنفسي كي تأتي معي للمستشفى...

- طبعاً... انتظرنى دقائق... سوف أخبر سارة وأرتدي ملابسني وأتي معك.

حين وصلنا المستشفى الجامعي، طلبنا من الإدارة إلقاء نظرةٍ أخيرة على جسده. وافق مدير المستشفى بعد وساطة حمادي د. بكر، وبعدها علم من حنا بالتليفون أننا من تلامذته المقربين، وأن لا أقارب له في النمسا.

حين دخلنا، كان راقداً وقد غطتُ وجهه ملاءة بيضاء. علمتُ فيما بعد أن طفلة الوحيدة «بياتريس» توفيت في المستشفى نفسها، وفي الطابق ذاته قبل ثلاثين عاماً من اليوم.

أحسّ لؤي بسبب الخرس الذي أصابني في طريق العودة إلى المنزل. أثناء العودة، دقَّ هاتفني البلاك بيرري بصوت جرس. فتحتُ رسائل البريد الإلكتروني، فوجدتُ رسالةً من إدارة الجامعة تشيرُ إلى

أنَّ موعد قداس جنازة بروفييسور فالتر سيكون صباح غدٍ. كان لؤي يتحدث في هاتفه، بينما كنتُ شارِدًا أثناء السير.

قَالَ إِنَّهُ أَغْلَقَ لِلتَّوَمَعِ أَمَانَةَ الْجَامِعَةِ وَأَخْبَرُوهُ أَنَّ ابْنَةَ أُخْتِ د. فالتر، كارمن ماركوس، الَّتِي تَعِيشُ فِي سويسرا قَدْ أَخْطَرَتْ إِدَارَةَ الْجَامِعَةِ بِشَكْلِ رَسْمِيٍّ بَعْدَ دَفْنِ الْجَثْمَانِ إِلَّا بَعْدَ حُضُورِهَا مِنْ زِيُورِيخِ بِاعْتِبَارِهَا الْوَرِثِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الْوَحِيدَةَ لَهُ، وَأَنَّ مَرَامِ الدَّفْنِ سَتُجْرَى غَدًا.

«عَلِمْتُ يَا لُؤْيِ... انظُرْ لِرَسَائِلِكَ عَلَى الْبَلَاكِ بِيْرِي».

وَصَلْتُ الْمَنْزَلَ عَصْرًا، ارْتَمَيْتُ عَلَى السَّرِيرِ دُونَ تَبْدِيلِ الْمَلَابِسِ وَقَدْ تَزَاخَمَتْ فِي رَأْسِي الْأَفْكَارُ وَتَجَمَّدَتْ بَلِيدَةً مِثْلَ مَكْعَبِ نَلْجِ.

نِمْتُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مُضْطَرِبَةً، أَرَقَّتَنِي خِلَالَهَا فِكْرَةٌ وَاحِدَةٌ؛ الذَّهَابُ إِلَى مَنْزَلِ د. فالتر، وَالتَّقْتِيشُ فِي أَوْرَاقِهِ. الْمَفَاتِيحُ فِي جِيبِي وَهُوَ مِنْ أُعْطَانِي إِيَّاهَا. لَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يُعْطِيَنِي مَفَاتِيحَ مَنْزِلِهِ كِي أُوْصَلَهَا إِلَى ابْنَةِ أُخْتِهِ الَّتِي لَمْ يَرَهَا مُنْذُ سِنَوَاتٍ، عَلَى الْأَقْلِ مُنْذُ عَرَفْتَهُ.

خَشِيتُ مِنْ إِضَاعَةِ الْوَقْتِ فِي أَفْكَارِ بَرِيئَةٍ لَنْ تَجْلِبَ سِوَى نَدَمًا؛ فَالْجِنَازَةُ غَدًا وَاللَّيْلَةُ هِيَ فِرْصَتِي الْآخِرَةُ إِنْ كُنْتُ أُرِيدُ اكْتِشَافَ اللَّعْبَةِ، كُلُّ مَا فَاتَ فِي كِفَّةِ وَخَطُوتِي التَّالِيَةِ فِي كِفَّةٍ أُخْرَى.

كَانَ الْأَمْرُ اخْتِبَارًا لِمَصْدَاقِيَةِ كُلِّ مَا تَعَلَّمْتَهُ مِنَ الْخَوَاجَةِ، فَإِذَا صَدَّقْتُ كَلَامَهُ، وَسِرْتُ وَرَاءَ رَسُومِهِ، فَكُلُّ مَا رَأَيْتُهُ وَسَمِعْتُهُ مِنْهُ كَانَ إِشَارَاتٍ حَقِيقَةٍ. أَمَا إِذَا خَلَدْتُ لِلنُّوْمِ، فَالْنَدَمُ لَا يَحْظِي بِفِرْصِ جَدِيدَةٍ؛ فَقَدْ تَأْتِي وَزَارَةُ الْعَدْلِ وَتَقْرُضُ حِرَاسَةَ إِدَارِيَّةَ عَلَى الْمَكَانِ وَتَعْلُقُ الْمَنْزَلَ لِحِينِ النَّبْتِ فِي قِصَّةِ الْمِيرَاثِ. قَدْ يَحْدُثُ كُلُّ ذَلِكَ وَتَسِيرُ الْحَيَاةَ عَلَى نَحْوِ عَادِي، لَكِنِّي سَأَحْرُمُ نَفْسِي مِنْ كَشْفِ لُغَةِ الْمَحَارِ. كَانَتْ السَّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ السَّادِسَةِ، أَخْبَرْتُ سَارَةَ أَنَّي سَأُخْرِجُ لِلتَّمَشِّيَةِ قَلِيلًا. ابْتَسَمَتْ، فَطُنْتُ إِلَى أَنَّهَا تَفْهَمُ مَشَاعِرَ حُزْنِي عَلَى أَسْتَاذِي، وَلَوْ أَنَّي لَمْ أَخْبِرْهَا شَيْئًا.

وَصَلْتُ مَنْزَلَهُ فِي حَوَالِي الثَّامِنَةِ مَسَاءً. كَانَتْ الْبُؤَابَةُ الْحَدِيدِيَّةُ مَا تَزَالُ مَفْتُوحَةً. التَّقَمَّ قَفْلُ الْبَابِ الْمَفْتَاخَ مِثْلَ رَضِيْعٍ جَائِعٍ. دَلَفْتُ بِسُرْعَةٍ، لَمْ يَكُنِ الظَّلَامُ دَامِسًا بِالْداخِلِ. أَنْارَتْ جِزْمَةً مِنْ خِيُوطِ الْمَغْرِبِ الْبِرْتَقَالِيَّةِ بَقْعَةً ضَوْءٍ هَادِيٍّ فِي صَدْرِ الْمَنْزَلِ، أَمَكَنْتَنِي مِنْ تَلْمُسِ خَطُوتِي فِي الصَّالَةِ الْوَاسِعَةِ. كُنْتُ أَتَحَرَّكُ فِي صَالَةِ الْمَنْزَلِ مِثْلَ شَبِيحٍ فِي الضَّوْءِ الشَّاحِبِ الْمَتَسَلِّلِ مِنْ خَلْفِ سَنَائِرِ النُّوَافِذِ الْمَسْدَلَةِ.

كَانَتْ حِجْرَةُ الْمَكْتَبِ مَفْتُوحَةً؛ رَجَّحْتُ أَنَّ رِجَالَ الْإِسْعَافِ تَرَكَوْا كُلَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ حِينَ نَقْلُوهُ إِلَى الْمَسْتَشْفَى. مِنْ أَيْنَ أَبْدَأُ؟ تَوَقَّفْتُ لِحِظَةً مُثَبَّتًا بِصُرِي نَاحِيَةِ الْجِدْرَانِ الْعَارِيَّةِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ يَوْمًا كَذَلِكَ.

قَفَزْتُ إِلَى ذَهْنِي خَدْعَةً جَدِّي وَهُوَ يَسْحَبُ صَنْدُوقَهُ الْأَسْوَدَ مِنْ بَيْنِ ثَلَاثَةِ صَنْدُوقِ كَانَتْ قَابِعَةً دَاخِلِ الدُّوَالِبِ الْإِيدِيَالِ الْمَعْدَنِ فِي قَبْوِ الْأَقْزَامِ، وَيُخْرِجُ لِفَائِفَ بِسَاطِهِ الْأَحْمَدِي، فَتَذَكَّرْتُ عِبَارَتَهُ: «السِّرُّ

ليس بمحتواه، بل بطريقة إخفائه».

أومضَ في عيني بريقُ فوسفوري ينبعثُ من ساعة حائط رقمية معلقةً على يسار المكتبة؛ ألهذا أصلحتها حناً؟

كدتُ أصطدمُ بطقطوقة خشبية أرابيسك مقلوبةٍ أمامي، غير أنني لم أشأ إشعال مصباح الغرفة، فأخرجتُ هاتفي لأضيء بنوره. اقتربتُ من المكتبة، كان تاريخ اليوم مُدَوَّنًا في مربع بلاستيكي أزرق على يمين إطار الساعة: السبت ٢١ أغسطس... أين الدفتر؟

توجهتُ نحوَ الدولابِ الخشبي لتفحص جدول الشيكولاته، إلى جواره شمعةٌ واحدة تضيء الركنَ الشرقي للمكتبة، وقد قاربت شعلتها على الانطفاء.

«لا تقلق يا يونس... سوف أبقى على شمعةٍ مشتعلةٍ داخل القبو».

خلف الشمعة لمحتُ علبة شيكولاته La Madeline كبيرة. اقتربتُ وفتحتُ الغطاء؛ كانت العلبة فارغة. جذبتُ الغطاء الكرتوني فوجدتُ مجموعة من الخطابات المطوية بعناية تحت الغطاء الكرتون البني الثخين، أخرجتُ الرسائل من الصندوق وفتحتها. كانت الرسائل غير مهترئة بالرغم من ملامح القدم البادية على حوافها. على ضوء لهب الشمعة التي وعدني أن تبقى مشتعلة، تنقلتُ عيني بسرعة بينَ سطور الرسائل. وكان دفتره يرقدُ في سلام تحت الرسائل.

المشهد السابع

الأسهمُ المُشيرةُ إلى أمكنة... تُوصِلُ إلى أمكنةٍ أخرى

(وديع سعادة)

أُقيمَ قداسُ الوفاةِ عَلَى روح د. فالتر في كنيسة بازيليك ماريا تروست. كَانَتْ تَبْعُدُ حِوَالِي سبعة كيلو مترات عن جراتس، كَانَتْ الكَنيسة تَقَعُ عَلَى الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ لمدينة جراتس فوق تَلٍ مرتفع ارتفاعًا ملحوظًا عن الأَرْضِ.

في البداية، شكَّكَ زملاء د. فالتر القَدَامَى في صحَّةِ إقامَةِ الشعائر المسيحية. استغربَ د. توماس فيونسكي من سذاجة النَّاسِ وَقَالَ إن مقابر المسلمين هِيَ مكانه الطبيعي؛ فهو يعرفه جيدًا ويعرف ماذا كان يدور برأسه، بينما قَالَ العميد د. ماير إنَّهُ يرجح نقل الجثمان إلى «أبراج الصمت» في الهند. وفي النهاية، استقرَّ الأمرُ عَلَى الصلاة عَلَى جثمانه بالكنيسة بناءً عَلَى طلب رسمي من ابنة أخته الوحيدة «كارمين»، ودُفِنَ الجثمانُ في مقابر آل فون دير هولتس، إلى جوار ابنته «بياتريس» وزوجته.

عبرنا البوابة الضخمة المؤدية إلى مدخل الكنيسة. كان الدربُ المؤدي نحوها عبارةً عن طريق صاعدٍ من السلالم الحجرية القديمة؛ عَلَى جانبي الطريق الحجرية غُرِسَتْ أشجار مشدبة بعناية فائقة؛ توقفتُ عند إحداها متأملًا شكلَ الشجرة فوجدتها لا تختلف عن مثيلاتها المجاورة عَلَى الصف نفسه، بل والصف المقابل. بدأتُ في ارتقاء درجات السلم الحجرية القديمة التي بدت وَأَنَّهَا لا نهائية. مددتُ بصرى إلى الأعلى، فرأيتُ عددًا من السلالم تَعْرُجُ إلى عنان السماء؛ كلما ارتقيتُ درجةً، امتدت أمامي، ووجدت بشرًا يصعدون.

دَلَفْنَا إلى بوابة الكنيسة. حضرَ جميع أساتذة القسمِ القُداس وكلمة الوعظ الأخيرة؛ العميد د. ماير، د. توماس فيونسكي ومعه شابةٌ صغيرة خَمْنَتْ أَنَّهَا زوجته الجديدة، وميلاني لايتجب (أَوْ حَنَّا كَمَا كان يحبُ أن يدعوها) وبعض تلامذة المرحوم وجيرانه؛ كان عددهم لا يتجاوز العشرين.

جلسنا أنا ولؤي في الصف الأول نستمعُ إلى كلمة الوعظ، ولم ننسَ أن ننفذَ وصية المرحوم، ففعلناها أمام الجميع، ولم يُبَدِّ أَحَدٌ اعتراضًا؛ حَتَّى كارمين ابنة أخته كَانَتْ مشغولة مَعَ زوجها في حوارٍ طويلٍ واضحة ساقًا فوق الأخرى.

دسنا «ديوان نور العلوم» طبقًا للوصية في تابوت الدفن، ثمَّ صاحَبْنَا تابوتَ الدفن إلى مقابر عائلة «آل فون دير هولتس» المجاورة للكنيسة. وُضِعَ الجثمانُ داخلَ التابوتِ وَعَلَى رأسه طاقية خضراء كَمَا أوصى.

في نحو الحادية عشرة، أنزلَ جثمان د. فالتر إلى حفرة التي أحاط بها خمسة أشخاص بمن فيهم أنا ولؤي. تبخّر الجميع. وبمجرد الانتهاء من الصلاة القصيرة، اختفوا جميعاً مع القسّ الذي يبدو أنه أدى مهمته على مضض.

أثناء خروجنا من بوابة المقابر، ذهبَ لؤي لإحضار قهوة من Kiosk صغير بالقرب من مدخل الكنيسة، فتوجهتُ إلى ساحة الكنيسة الخارجية، وجلستُ على أحد الكراسي المرصوفة تحت مظلة خشبية كبيرة.

لحظات حتى لمحتُ حناً قادمةً نحوي، كانت ترتدي نظارة شمسية سوداء تحجب وجهها بالكامل، وفي يدها منديل أبيض.

- الأمر مأساة بالنسبة لي... لا أعرف كيف ستسير الأمور بعد ذلك، د. فالتر لم يكن مشرفاً على رسالتي ولا أستاذًا فقط... د. فالتر كان نقطة نور، انطفأت فجأة.

لم تعلق على عبارتي، إلا أن وجهها كان ينطق بلسان حالها، فسألتني بصوت مخنوق:

- هل نفذت وصيته؟

- أية وصية؟

- الديوان؟

- ديوان؟ لقد فهمتُ منه أنه لم يخبر أحدًا بالأمر؟

- كان د. فالتر بمنزلة أبٍ حقيقي... أنا مشاركة في الموضوع من أوله لآخره... لقد اعتبرني د. فالتر بمثابة ابنته التي فقدتها... أنا في مثل عمرها تقريبًا لو كان العمر قد طال بها... كنت قريبة منه، ثم عندما ماتت Frau Beate منذ بضعة أشهر، كفّ بصره... كنت أتولى شئونه، أزوره وأقرأ له... أرتب كتبه الجديدة... كل شيء تقريبًا...

- وهذا ما دفعه لأن يرسلك إلي لتقومي باختباري؟

- لا تفسر الأمور هكذا... د. فالتر كان يقدرك ويحبك أكثر مما تتخيل أنت شخصيًا، وازداد الأمر بعد ما مرّ بك في الفترة الأخيرة...

لم أخبر حنا بموضوع الرسائل ولا الدفتر الذي أخذته.

استدرتُ لأنظر إلى الوراء باحثًا عن لؤي الذي تأخر، لمحتُ حنا في وجهي ملامح غضب مكتوم. أشحتُ بوجهي ففهمتُ رسالتي. استدارت هي أيضًا ولوحت مودعة. قيل أن تمشي قالت كلمة واحدة:

«فَكَرَّ قَلِيلًا فِي كَلَامِنَا وَفِي كُلِّ مَا جَرَى».

ابتسمتُ رُبْعَ ابْتِسَامَةٍ بِفَمٍ مَغْلَقٍ، وَنَظَرْتُ إِلَى أَوْرَاقِ الْعُشْبِ الَّتِي تَحِيطُ بِي. شَعَرْتُ أَنَّ الْخَوَاجَةَ كَانَتْ يَعْقُدُ لِي اخْتِبَارًا، عَاوَنَهُ فِيهِ تَلَامِذَتُهُ... حِنًا، وَلَعَلَّ لُؤْيَ كَانَتْ مَعَهُمْ أَيْضًا.

هل كانوا يختبرون ذكائي ويدرسون إمكانية تحويلي إلى فأر تجارب؟ لَوْلَا أَنَّنِي لَمَحْتُ وَجَهَ لُؤْيَ، وَلَمَحَنِي هُوَ أَيْضًا وَهُوَ يَرْفَعُ كُوبِي الْقَهْوَةَ مِنْ بَعِيدٍ، لَتَرَكْتُ الْمَكَانَ وَهَرَبْتُ.

كَانَتْ حِنًا قَدْ سَارَتْ بَضْعَ خَطَوَاتٍ حِينَمَا وَصَلَ لُؤْيَ حَامِلًا الْقَهْوَةَ، فَأَخَذْتُ مِنْهُ الْكُوبَيْنِ وَهَمَسْتُ فِي أُذُنِهِ بِكَلِمَةٍ، وَأَعْطَيْتُهُ مِفْتَاحَ السَّيَّارَةِ كَيْ يَذْهَبَ وَنَلْتَقِيَ آخِرَ الْمَسَاءِ.

- هل ستشرب الكوبين وحدك يا يونس؟

- سأشرب واحدًا... وأستثمر الكوب الآخر... تجارة مع الله...

انصرفت لُؤْيَ بَعْدَ غَمَزَةٍ مِنْ عَيْنِي، نَادَيْتُ حِنًا فَلَمْ تَسْمَعْنِي، فَاسْرَعْتُ الْخُطَى بِحَرِيصٍ وَأَنَا مُمَسِكٌ بِالْكَرْتُونَةِ الَّتِي تَحْمِلُ كُوبِي الْقَهْوَةَ، فَالْتَقَيْتُ إِلَيْهِ حِينَمَا أَحْسَسْتُ بَوَاقِعَ خَطَوَاتِي وَأَنَا أَهْبِطُ وَرَاءَهَا عَلَى دَرَجَاتِ السَّلْمِ الْحَجْرِيِّ الْمُوْدِيِّ إِلَى مَدْخَلِ الْكَنِيسَةِ.

نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ مَنْدَهَشَةً، فَأَعْطَيْتُهَا الْقَهْوَةَ مَبْتَسِمًا وَقُلْتُ:

- ممكن نتكلم قليلاً؟

- أين؟

أَخَذْتُ أَطُوفَ بَبْصَرِي فِي الْمَكَانِ حَتَّى وَجَدْتُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمَقَاعِدِ عَلَى شَكْلِ جَذُوعٍ تَحْتَ أَحْدِ شَجَارِ الْبَلُوطِ الْكَبِيرَةِ، أَقَامَتِهَا الْكَنِيسَةُ كَأَسْتِرَاحَةٍ لِمَسَافِرِ اللَّزْوَارِ وَهُمْ يَوَاصِلُونَ ارْتِقَاءَ دَرَجَاتِ السَّلْمِ.

أَشْرْتُ إِلَى هُنَاكَ فَهَبَطْنَا بَضْعَ دَرَجَاتٍ بِالسَّلْمِ حَتَّى وَصَلْنَا.

- حِنًا... أَرْجُو أَلَّا تَكُونِي قَدْ غَضِبْتِ مِنْ كَلَامِي مُنْذُ دَقَائِقٍ... أَرْجُوكَ تَفْهَمِي مَشَاعِرِي...

- أتمنى أن تكون قد فهمت أنت...

- طيب... ممكن تحكي لي الآن بالتفصيل... أعتقد أن الحرج قد زال... ود. فالتر في بيت آخر... أريد معرفة كل شيء...

انتهت حِنًا مِنْ شُرْبِ كُوبِ الْقَهْوَةِ كَامِلًا فِي هَذِهِ الدَّقَائِقِ، وَقَالَتْ:

- لم يكن الأمر مُدبرًا، جاءَ بصدفةٍ أو بقدر، لا أعلم... لكنني كنت شاهدة على كل شيء منذ البداية... من حَقك أن تعرف... لكن الموضوع ليس مُعقدًا إلى هذه الدرجة... في السنوات العشر الأخيرة كان يشعرُ بوحشةٍ شديدة وبفقدان كل أملٍ في الحياة، وخاصة بعد انصراف زوجته إلى الكنيسة بشكلٍ متصل و«دروشتها» واستغراقها في وساوسٍ دينيةٍ وانشغالها عنه في زيارة أديرة قديمة في ألمانيا وفرنسا.

أما هو فكان يبحثُ عن شيءٍ ما أو ربما عن شخصٍ ما، وبمرور الوقت وبعد معرفته بمأساتي مع طفلي، بدأ يُكنُّ لي بما في قلبه ويُطلعني تدريجيًا على سرِّه.

بعد وفاة طفله الوحيدة «بياتريس» مُنذُ أكثر من ثلاثين عامًا، عانىَ آلامًا نفسية عيفة، زوجته بسبب تدينها أمكنها أن تتخفف من ذلك الألم، إلا أن أوجاعه هو ظلت دون علاج فترةٍ حتَّى وقع على أمرٍ هذاه إلى ضرورة القيام برحلة يتعرى فيها من كل أودية الماضي، إلا أنه كان متحفظًا بشدة في كل ما يخص تلك الرحلة.

بعدها عاد ودون كل ما رأى في «دفتر» خاص لم يطلع عليه أحدًا، إلا أن قلقه لم يتوقف بعد سفره. كان يشعرُ بهاجسٍ قوي يلحُّ عليه في إرسال شخصٍ ليقوم بالرحلة نفسها ليؤكد إن كان ما رآه كان صدقًا أم أن أحلامه هيأت له ذلك. كان يبحثُ وسط تلاميذه عن «مريد» أو شخص ينقل إليه كل تجاربه وخبراته، بل وأحلامه، شخص يحل مكانه عندما يحين وأن انسحابه من الحياة.

وعندما ظهرت أنت في حياته في وقتٍ متأخر، اعتبرك كذلك. كنت تُشبه د. فالتر في كل شيء... طبعه الحذر، بساطته، إيمانه بالحكايات، حكاياتك عن جدك، الإخلاص الشديد للمعلم، صفات عديدة لم يجدها في جميع من رآهم طوال حياته... ثم جاء موضوع «كتاب الزهور» الذي عثرت عليه منذ خمس سنوات بمحض الصدفة أو بمحض التدبير وأهديته إياه، كان ذلك إشارة إلى أن «السماء» استجابت لدعواته، وأنت «المريد» أو «السالك» الذي سيواصل الطريق من بعده.

وبعد وفاة طفلك، كان السيناريو نفسه يتكرر من جديد... مشهدًا بمشهد، وخطوةً بخطوة، وكأن دورة الحياة تنهياً لجولة جديدة... المرض الخبيث الذي أصاب ابنته «بياتريس» أصاب طفلك، بل وفاة «طفلك» في سن ابنته. كل التفاصيل المريرة القاسية كانت تتكرر، كان د. فالتر يراقبك وأنت تتطور روحياً، ويعتبرك هدية القدر إليه، قال لي إنه يرى فيك «صفحات بيضاء نقية» داخل دفتره، تستعد لأن تدون فيها القصة الموازية، التي لم يتمكن يوماً من إكمالها. بل حتَّى اختيار رواية «روبرت موزيل» رجل بلا صفات، كان يقرأها على تلاميذ كل حلقة دراسية منذ عشرات السنوات، وينتظر أن يمسك خيطاً، وأن يجد بديلاً.

- أنت موليد سنة ١٩٨٠...؟

- صحيح...

- «بياتريس» أيضًا كَانَتْ مِنْ مواليد ١٩٨٠ هل فهمتَ الآن؟

لم تُعْطِنِي فرسَةً للحديث وواصلتُ كلامَها وَهِيَ تحدِّقُ إلى وجهي وعينُها تخفي دموعًا مكتومةً من وراء النظارة الشمسية السوداء:

«... تحدَّثنا طويلاً حولك؛ هُنَاكَ بعضُ الأشياءِ الَّتِي لَمْ أفهمها، ربما لأنه لم يُصرِّح لي بشكلٍ مباشرٍ وخاصةً حول موضوع السفر الَّذِي قام به، كَمَا أَنَّهُ أَحْسَبُ بِالْمِ عميقٍ حينما توفيت «طفلتك» مُنذُ ثمانية شهور، كان يريد مساعدتك بأي شكل».

- ولماذا لم يصارحني بشكلٍ مباشرٍ؟

- كان يخشى من ردِّ فعلك على كلامه، وخاف أن تعتبره عجوزًا تداعبه تخاريف الشيخوخة... فأراد أن يصرِّح بالتلميح والإشارات... خاف أن يفقدك.

حينَ عدتُ إلى المنزل كَانَتْ عقارب الساعة تشير إلى الواحدة ظهرًا، فتحتُ بابَ المنزل وناديتُ سارة، فلم ترد؛ تذكرتُ أَنَّهَا سافرتُ إلى «فينا» لحضور معرض فني هُنَاكَ، وَأَنَّهَا ستمكث ليلةً واحدةً عند خالتها وستعود غدًا، أعددتُ فنجان قهوة، وبدلتُ ملابسِي ثم توجهتُ إلى غرفة مكنتي.

كنتُ قد واريْتُ دفترَ الخواجة ورسائله إلى جوار البساط في حقيبة سفري القديمة. أطفأتُ أنوار الشقة، وأضأتُ شمعةً على شكل مَرَكب تقوح برائحة زهورٍ، وضعتها إلى جوارِي على المكتب. وبدأتُ في قراءة الرسائل.

الرسالة الأولى... ١ أكتوبر ١٩٧٩

«كان قرارُ تكريس نفسي لدراسة الآداب واللغات الشرقية في سن الخامسة عشر نهائيًا وحاسمًا بعد الأحاديث المطولة الَّتِي سمعتها من أبي هاينريش حول أسفار جَدِّي المارشال فون دير هولتس إلى بغداد وإسطنبول والقاهرة ودمشق، وبعد قراءة ألف ليلة وليلة واطلاعي على متنوي جلال الدين الرومي مترجمًا إلى الألمانية، سُحرتُ بهذا العالم العجيب الأخاذ. بعدها عكفتُ على قراءة التراث العرفاني والصوفي العالمي عند المسلمين والبوذيين والغنوصيين المسيحيين. وطوال حياتي، علقتُ عبارتان في ذاكرتي، ولم يفارقا مخيلتي قط؛ العبارة الأولى كَانَتْ لمتصوفٍ بغدادِي اسمه «أبو القاسم الجنيد»: «قد مشى رجال باليقين على الماء، مات على العطش أفضل منهم يقينًا، وبقيتُ أستحضرها في كل موقفٍ عصيبٍ ينزل بي. والعبارة الثانية وردت في إنجيل توماس؛ ذلك الإنجيل المفقود الَّذِي عثر عليه الفلاح المصري مُحَمَّد علي السَّمان في نجع حمادي في مصر سنة ١٩٤٥: «كونوا عابري سبيل.» كتبتُ هاتين المقولتين وجعلتهما شعارًا لحياتي.

الرسالة الثانية... إلى بياتريس... التاريخ: ٢٥ أبريل ١٩٨٥

«انقطعْتُ أسبوعًا في غرفتي أقرأ كُلَّ مَا كُتِبَ عن العقائد الشامانية القديمة، لكنني لم أجدُ فيها جوابًا شافيًا أو نورًا يطمئن إِلَيَّ قلبي. قررتُ أن أغير شيئًا مما أقرأ، فتشّطُ في مكتبتي فوجدتُ كتابًا بالفرنسية ظهرَ فجأةً وسط ركام الكتب، يحمل عنوان:

Le Dissident... Biographie De Nikos Kazantaki by Eleni N.Kazantaki, Polen
1968

كَانَتْ مذكرات «كازانتاكيس» بقلم أرمته إيليني؛ بدأتُ في قراءة الكتاب حتّى وصلت إلى عبارة غريبة كتبها «كازانتاكيس» حول صوفي مسلم اسمه الخرقاني يقولُ فيها: «عندما كان الزاهد المسلم الكبير أبو الحسن الخرقاني راكعًا يُصلي إلى الله، سمعَ صوتًا يقول: يا أبا الحسن... لو كشفتُ لِلنَّاسِ كُلَّ مَا أعرفه عنكَ، لرجموكَ حتّى القتل بالحجارة، فأجاب أبو الحسن: «إلهي ومولاي... لو كشفتُ لِلنَّاسِ كُلَّ مَا أعرفه عنكَ من رحمة ولطف وكرم، ما عبدك أحد؛ عندها سمع أبو الحسن صوتًا يهتف به... احتفظ بسرّك أوليء وسوف أحتفظ بسرّي».

استبدت بعقلي العبارة، فأخذت أبحث عن مصادر تتحدث عن هَذَا العارف باللغة الألمانية أو الإنجليزية، إلى أن عثرتُ على إشاراتٍ متفرقة في كتابات «د. آنا ماري شيميل» و«رينولد نيكلسون» عن هَذَا الصوفي المظموس، لم يلفتُ اسمه نظري من قبل. بعد قراءة بعض من أقوال وأحوال هَذَا العارف أصابني ذهول؛ لم أكن أتصور يومًا خروجَ جميع أفكارِ الإنسانية من ينبوع واحد، لتسيرَ مُندفعة كماءٍ يتدفق من نهر منحدر، وتتفرق بها السبل وتسيرُ كل فكرة في مسارها فتلاقي ما تلاقي من الحصى والأحجار؛ فمنها القوي الذي لا يستسلم لمقاومة الأحجار والحصى فيصل إلى مصبه في قلوب الناس فيرويه، ومنها ما يستسلم للأحجار فتخور قواه.

الرسالة الثالثة إلى بياتريس...

التاريخ: ٣١ يناير ١٩٨٦

«... بياتريس... قلبي الضعيف يَبِضُ مرارةً بعد أن وارينك الثرى بيدي، كأنه طيرٌ محبوس يريد ترك قفصه الحديد، ويهرب ولو إلى المجهول. أعلم أنك رحلت يا ملاكي الصغير... يا زهرة العمر القصير، يا زهرتي التي قطفتها السماء، ألا تسألين «اللطف» أن ينثرَ على جنبات روعي شيئًا من ماء السكينة والرضا... قطراتٍ أصطبر بها على فراقك؟ فأنا عاجزٌ أن أدعوه؛ فالدعاء يطلب روحًا حية، وقد دُفِنَتْ روعي وهي حية، لا أنا بالحي ولا أنا بالميت.

عامٌ انقضى على فراقك... وروحي معذبة في الجحيم... أين أذهبُ يا ابنتي؟ أتظنين أن الأحلام مهربٌ وملاذ من الواقع؟ لا يا حبة قلبي... لا تعلمين أنني عندما أدخل إلى فراشي كل ليلة فكأنما أدخل إلى قبرٍ موحش وقد وُضِعَتْ فوق قلبي صخرة ثقيلة ثقل السموات والأرضين؛ فلا أستطيع

التنفس إلا كمن تصعدُ روحه إلى السماء؟ ثم هل ألقاك هناك؟ أنت في «الجنة»... وأنا لا أعلم إلى أين يقودني قدرتي... ابنتي... في سلام ارقدي... ارقدي في نوم هادئ، في سلام نامي، في سلام الرب ارقدي. صافية أراك يا حبيبتي كأنما نضجت خارج الزمن... كنت أريد أن أدس في يدك هذه الرسالة لتقرأها بنفسك، أنت الآن كبرت يا حبيبتي وتستطيعين القراءة... لكنني لا أعرف أي عنوان تسكنينه كي أرسل رسالتي... كلمة أخيرة... بياتريس... هل أراك هناك؟ هل أزرر الجنة يوماً؟ وإن لم أزرها هل أصل يوماً إلى... garodemana... بيت الأغاني... حيثُ أسمع صوتك وأنت تُغنين أغنيته الأثيرة... أبي... ها أنا اختبأت منك... كيف تصل إلي؟

كانت الرؤية غائمة تماماً على سطح الزجاج، والشحُب متراسة أمامي مثل جُزر قطنٍ بيضاء فوق سرير واسع، تراجعُ برأسي للوراء وخلعت النظارة، ووضعتها فوق المقعد الفارغ إلى جوارِي.

قطعتُ الطريق إلى مقبرته سيراً على الأقدام بالرغم من برودة الطقس. المقابر خالية، والبوابة الخارجية مفتوحة، اجتزتها بسرعة ناحية اليمين. كانت المقابر عبارة عن مساحاتٍ مستطيلة، وعلى كل قبر شاهدٌ من الرخام الأسود يزينه صليبٌ يتوسط الشاهد، وقد نُقِشتْ أعلاه عبارة من الكتاب المقدس، وأسفلها اسم المتوفى ويوم ميلاده ووفاته. وصلتُ إلى شاهد قبر د. فالتر الذي خلا من صليب أو حتى إشارة، قرأتُ جملةً واحدةً منقوشةً باللغة العربية: النَّاسُ نِيَامُ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا. أحسستُ بلمسة هواء بارد تلمحُ جهي، وانتابني حنينٌ قديم؛ ربما ذكرى الخواجة الذي رجل، وربما ذكرى ابنته التي ماتت طفلةً لا تتجاوز الخمس سنوات. وبينما أغالبُ تلك الأطياف؛ إذ بي أسمع صوتاً يصدر من جانب القبر يصيح: «ها أنا أدعوك كي تسعى إلي... هيا تعال سريعاً نحو هذا الصوت، وإن كان العالم كله قد صار أسود، فلا تُشِح بوجهك عني، وتذكر نصيحتي إليك، وقرأ دفترتي الذي تركته لك من جديد... لا تيأس... ستجد زهرتك من جديد».

- أية زهرة؟

- الطالب الحكيم... سيجد طريق الحق، كما يجدُ امرؤٌ عارفُ الزهرة...

- ولكنها زهرة مقطوفة...

- بينَ الزهرة المقطوفة والزهرة المُهداة يا يونس يكمن السرُّ؛ حكايته هي حكايتك

- كيف؟

- أنا الجانب الأعمق فيك، أنا بطن الحوت؛ لذلك أنا شيخك...

أفقتُ من غفوتي على صوت مضيئة الطائرة، وهي توقظني لتسألني إن كنت مصرياً أم أحمل جنسيةً أخرى كي أملأ بطاقة الوصول، ثم نبهتني لأفتح شباك النافذة استعداداً للهبوط. بحثتُ عن نظرتي فلمحتها راقدةً إلى جوارى فوق المقعد الخالي، فشكرتُ حماتي في سرِّي على تذكرة البيزنيس، تنبهتُ إلى أن الليل قد هبط على السماء، وأنوار القاهرة تتلألأ من وراء شباك نافذة الطائرة.

منذ سبع سنوات رحلتُ إلى النمسا، وها هو الطائر يحطُّ في عُشه ثانية.

المشهد الثامن

الذاكرة ميناء انطلاق

(إدواردو جاليانو-كلمات متجولة)

بعد إتمام إجراءات الوصول، استلمتُ أمتعتي الشخصية. لم تزد عن حقيبة ملابس واحدة، وحقيبة لاب توب فوق كتفي. بعد الخروج من بوابة المطار، أشرتُ إلى سيارة ليموزين تترقبُ اقتناص زبون جديد. أعطيتُ السائق ورقة مدون فوقها العنوان؛ كتبتها في الطائرة تنفيذًا لقرار اتخذته مسبقًا. كانت رسالة لطيفة للسائق أن ألقني إلى العنوان المطلوب دون حواذيت... ١٥١ شارع أمين فخري، منزل جدِّي.

كنت قد علمتُ في آخر مكالمة مع أبي بسفره لأداء العمرة برفقة عمتي «نادية» التي لم تتزوج، تعدتُ عدم الذهاب إلى منزل أبي وهو مسافرٌ، كي لا يُفسر الموضوع على نحوٍ خاطئ. استمررتُ وقوفي على باب العمارة خمس دقائق، اتأملها وكأنني أراها للمرة الأولى؛ عمارة قديمة أمام شريط القطار القديم، الذي استبدل بمترو الأنفاق في أواسط الثمانينيات. كانت هناك قطتان تتبشان الأرض أمام باب العمارة؛ نظرتنا نحوي وبعيون مرحبة، فشكرتُهما.

لا أعلم ما الذي قدنف بكرة الذاكرة إلى يدي... ربما تباشير فصل الخريف وطقس بداية الدراسة الذي عبث المكان. استرجعتُ صوت القطار قاطعًا طريقه أمام المنزل، لتتحرك الشقة كلها في هدير مكبوت، وترتفع كتلة من دخان القطار أمام النافذة حاجبة العمارات المقابلة، ثم تتلاشى بهدوء كالزمن.

كيف استطاعت عائلة أمي تحمل دوي المروق الهادر طوال أربعين عامًا، خمس أو ست مرات في اليوم؟

كانت أبواب دكان الحلوي الصغير الأشبه بجحر غائر مفتوحة، مُحفظة بلون الطلاء الأخضر الباهت. واجهة زجاجية صغيرة، يعرض فيها «عم مكاي» الحلوى والمشروبات، يعيش وينام داخل قبوه، صديقه الوحيد راديو ترانزستور موجه على إذاعة أم كلثوم. لم يفارق دكانه بعد وفاة زوجته، وتركته بنائه بعد زواجهن. سياريو طبيعي لأرمل تتركه امرأته. صورة أنور السادات في بذته العسكرية معلقة أعلى الجدار، يليها بورتريهان لمحمد عبد الوهاب في مراحل المختلفة، منذ «يا مسافر وحدك» إلى «من غير ليه».

عند مدخل العمارة، لمحتُ قبو الأفرام الحجري، وبينما أصدع السلم مستروحًا عقب السلام الحجرية، اكتشفتُ أن كل شيء قد تغير؛ استبدلوا درجات السلم المرهقة بدرجات رخامية صفراء

مجلوة، استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لا تزال اليافاطة الخشبية في مكانها، محفوراً داخلها اسمه باللون الأسود: عميد طبيب إسماعيل عبد الله الأنصاري.

طرقتُ البابَ طرقاتٍ خفيفة، مَعَ عِلْمِي أَنَّ الشقَّةَ مغلقةٌ مُنذُ مَا يزيد عن سبعِ سنوات، وَلَا تُفْتَحُ إِلَّا مرةً كُلَّ شهرٍ بمعرفة «الست أم بهاء» ابنة بوابِ العمارة لتنظيفها. طرقاتٌ تستأذنُ الدخولَ. طلبُ الإذنِ واجبٌ محتومٌ؛ هكذا تُكونُ معاملةُ المحاربينِ القدماءِ.

أولجتُ المفتاحَ داخلَ البابِ، فلم يعانديني واستقبلتني الشقَّةُ بترابٍ خفيفٍ لم آنفِ مِنْهُ. كنتُ أعلمُ مكانَ مفتاحِ الكهرباء فمددتُ يدي يمينَ البابِ وأوقدتُ مصباحَ الصالةِ.

دخلتُ حجرةَ جدّتي، فوجدتُ سريرَها النحاسي الأركانَ مَا يزال قابلاً أقصَى يسارِ الغرفة، تعلوه ساعةٌ حائطٌ كلاسيكية قديمة، وَعَلَى يمينِ الغرفةِ بابُ الشرفةِ المطلَّةِ عَلَى الشارعِ الرئيسيِّ. غرفةٌ أخرى لم أكن أتُردُّ عليها كثيراً، بالرغمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ مفتوحةً عَلَى الدوامِ؛ غرفةٌ مكتبهٍ لم يكن مكتبه حراً مقدساً، بل كان مفتوحاً الأبوابِ. حجرةٌ عاديةٌ متوسطة الحجم، لا تزيدُ مساحتها عن أربعة أمتارٍ في خمسة أمتارٍ، وتضمُ عددًا مِنَ الكراسي الأسيوطي العتيقة، وكان اسمها غرفة «المسافرين».

كان ضوءُ الحجرةِ ضعيفاً، ربما لعدم تغييرِ لمبةِ المصباحِ مُنذُ شهورٍ أو سنواتٍ... لا أعرفُ؛ فقد رحلَ خالي الأصغرُ مَعَ حبيبتهِ أو زوجتهِ إلى الإسكندريةِ وألقى بالماضي وراء ظهره. أسرعْتُ بفتحِ شباكِ الغرفةِ المُطلِّ عَلَى الشارعِ الرئيسيِّ، ولم تكذب أشعةُ الشمسِ المتجددةِ الفتيةِ خيراً، فهِرَعْتُ مسرعةً إلى الغرفةِ.

استغرقتني الأمرُ نصف ساعةٍ وأنا أتأملُ العناوين: «الرسالة القشيرية»... «رشحات عين الحياة»... «الحدائق الوردية في مناقب أجلاء السادة النقشبندية»، «مثنوي مولانا الرومي»، «ديوان يونس إمره»، «المواقف والمخاطبات للنفري»، «الفارس النبيل دون كيخوته دي لا مانتشا» لسيرفانتس بترجمة عبد الرحمن بدوي وترجمة الديوان الشرقي الغربي ليوهان فولفجانج جوته. جعلتُ أتأملُ مندهشاً العناوين التي تقفزُ تباغاً أمام عيني، متسائلاً بصوتٍ أقرب إلى الصياح... العميد إسماعيل الأنصاري... الناصري العتيدي... «نقشبندي»؟

فوق رفِّ المكتبة، أطلَّ بروازٌ خشبيٌ يجمُلُ ورقةً مدوّنةً عليها بيتٌ شعريٌّ لشوقي بخطِّ منمَّقٍ:

سَأَلْتُ القَلْبَ عَن تِلْكَ اللَّيَالِي

أَكُنُّ لِيَالِيًا أَمْ كُنُّ سَاعًا

فَقَالَ الْقَلْبُ بَلْ مَرَّتْ عَجَالًا

كَدَقَاتِي لِذِكْرَاهَا سِرَاعًا

أحمد شوقي كان لجدي، أما أنا فلي صلاح عبد الصبور: «لا تجر في ذاكرتك قط». هبطت درجات السلم نحو «قبو الأقرام الحجري»، القبو الذي كنت أخشاه طوال عمري ولم أقترِب منه يوماً بعد أن دخلته مع جدي. حان أوان التفتيش في الأوراق القديمة، من المؤكد أن الحقيبة التي خبأها ذلك اليوم تحوي شيئاً. انزلق المفتاح في قفل باب القبو وكأنه ينتظر الفرج مثل جني في قارورة.

أضأت المكان بكشاف هاتفي المحمول. فوق الدولاب الإيديال المعدني لمحت حقيبة يد جلدية سوداء متآكلة الحواف مزودة بإيزيم معدني من المنتصف. جذبت كرسياً خشبياً من الكراسي المرصوفة ورائي، ناحية الدولاب المعدني وصعدت فوقه، فوجدت حقيبته السوداء. جذبت الحقيبة وفتحتها، ثم ثبيت الغطاء إلى الخلف، فاستقبلتني دفعة من غبار الزمن القديم، فعطست بشدة محاولاً الاحتفاظ بتوازني فوق الكرسي.

برز كتابان متلاصقان ومصفوفان على نحو رأسي؛ ليس الرائع الوصول إلى القمة، بل الأروع أن يكون نزولك للأسفل أكثر أماناً من صعودك. كيف صمد هذا الكرسي المتهالك وأنا واقف عليه؟ هبطت من الكرسي ويدي اليمنى تحمل الحقيبة. أخرجت منديلاً ورقياً من جيبي، محاولاً التخفف من آثار غزوة الغبار.

صعدت إلى الشقة، وارتيمت على الكنبه المقابلة لطاولة الطعام في الصالة. بدأت حل إيزيم الحقيبة فوجدت كتاباً قديماً؛ كان الترجمة العربية لـ «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار النيسابوري. ناهيك عن كم التراب الذي أصبحت ترفل فيه يداي، تسلفت إلى أنفي رائحة غريبة فأزكمتها. كأن التاريخ يفتح ذراعيه متمطعاً بعد غفوة طويلة. رفعت بصري فرأيت صورة جدي المعلقة على الحائط المقابل ببذته العسكرية وعلى شفته ابتسامة هادئة. حدسي يقول إن العين المجردة لا ترى كل خفايا الابتسامات. هل كانت الابتسامة قبل كتابة دفتر المذكرات هذا أم بعده؟

واصلت تصفح الكتاب حتى عثرت على زهرة ذابلة فوق إحدى الصفحات، وقرأت: ذكر «أبو الحسن علي بن جعفر الخرقاني». قلبت الصفحة الثانية فوجدت مجموعة رسائل مطوية بعناية. نفخت فيها برفق لإزالة التراب المتراكم، فبدأت أتبين ملامح الكلام المكتوب:

إسطنبول في ٩ أكتوبر ١٩٧١

«لم أسلك يوماً طريق النقشبندية، لكن دلني على هذا المتصوف والزاهد العظيم، صديقي المستشار الثقافي بالسفارة د. عبد العال الفيشاوي، الذي كان يعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي في كلية الآداب،

جامعة القاهرة، وانتدبَ بمعرفة د. عبد القادر حاتم مستشارًا ثقافيًا. أخبرني أن في أقواله وأحواله الأعاجيب، وهو رجلٌ يجب أن ترحلَ إليه بنفسك... كثيرون ارتحلوا إليه.

كنت ساعتها منتدبًا من فرع المُلحقين العسكريين بوزارة الحربية للعمل مستشارًا طبيًا للبعثة المصرية الدبلوماسية في فيينا، وانتهزتُ فرصة سفري لأسطنبول قبل الحرب سنة ١٩٧١ في مهمة رسمية بتكليف من القنصل العام المصري في فيينا، حيثُ مررتُ يوم عطلة القنصلية على قصر طوبقا باي في إسطنبول، وبدأتُ البحثُ عن أي سهم يدل عليه، على بحر الحزن الأرسخ من الجبل كما وصفه د. عبد العال. كنا في أوائل أكتوبر ١٩٧١، لم أشأ إطلاع أحدٍ من أعضاء البعثة الدبلوماسية في إسطنبول على ما أودُ فعله، سوى صديقي د. عبد العال، وهو رجلٌ فاضلٌ من طنطا كتبتُ إلي خطابًا توصيةً لإبرازه عند الحاجة.

أقلتني سيارة أجرة من الفندق إلى نحو قصر طوبقا باي، حيثُ المكتبة. وسارتُ السيارة نصفَ ساعة وسط برودةٍ قارصة، ولم تكنُ مرحلة الثلوج قد بدأتُ بعد.

أخبرني السائق حين وصلتُ، أنه لا يستطيعُ المضي أكثر من ذلك، لأن الطريقَ الصاعدَ مخصصٌ لحافلات النقل السياحي التي تُقل أفواج السواح، وقال إن المسافة ليست بعيدة؛ مائة وخمسين مترًا فقط... علي أن أمشيها بقدمي، فاستسلمتُ.

كان الطريق صاعدًا لأعلى على نحو مرهقٍ لرجلٍ تجاوزَ الخمسين مثلي، فتحاملتُ على قدمي ومضيتُ في السير. جلستُ دقائق على مقعدٍ خشبي كان على بُعد خطواتٍ لمحتُ عجزًا تقفُ أمام أحد متاجر الهدايا التذكارية، لم يكن أحدٌ سواها أمام المتجر، ولم أدر ماذا تفعلُ في هذا الوقت المبكر من الصباح! نهضتُ من مقعدي وتوجهتُ إليها. كانت ترتدي إيشاربا أزرق وبيجامة كستور قديمة تحت معطفٍ من الصوف الأسود، حيثُني بابتسامة، فسألتهَا:

- I need a crutch to walk... do you sell crutches?

- أنت عربي؟

- مصري...

- الطريق صعب وطويل...

- أعرف... ولكنهُ القدرُ يا سيدتي...

غابتُ دقيقةً داخل المحل، ثم أحضرتُ عصا خشبية ذات مقبضٍ أسودٍ مغطى بجلد الماعز، سألتها:

- أهذا يخصك؟

- إيفيت ... يمكنك استخدامه ... أعد لي العكاز من جديد عندما تهبط... أنت مُريد أم مطلوب؟

تطلعتُ إلى وجهها الأحمر المشقق بأوجاع الحياة:

- عفوا... سيدتي؟ من يطلبني؟

- آثار العارفين وبركاتهم تطلبك كي تساعدك... هل تظن أن هذا المكان لا يحوي بركة ما من السماء...

- كيف؟

- هذا القصر مسكون، نعم... مسكون ببركاتٍ طيباتٍ مصدرها آثار رَسُولِ الله، وكنوز المخطوطات الراقدة هناك... فوق... و آثار العارفين هذه تركت بركة على هذه البقعة؛ لقد ورثت الإمبراطورية العثمانية نصف العالم يوماً، وهذه آثار من الجنة... تلك الرقوق والأوراق التي لامست أكف الصالحين والتابعين والأولياء... أنت زائر للجنة.... والزائر لا بد له من المرور من هنا دائماً... اذهب في طلبك وادع الرحيم في كل خطوة... أنا هنا منذ ستين عاماً... أكاد أعرف كل زائر من مظهره... من ملامح وجهه ونظرات عينيه... سائح، باحث، متجول، شارد، أم عارف «مطلوب»... أعرف كل رجلٍ لماذا أتى... سيدي... لقد اشتعل رأسي شيئاً في خدمة هذا المكان... لا أحد يزور «طوبقا باي» في هذا البرد القارس إلا إذا كان مطلوباً... امض في طريقك يا سيدي...

تسمرتُ في مكاني لحظاتٍ، تبسمت العجوز الطيبة في وجهي، واستأذنت في الدخول إلى متجرها بعد أن بدأ تيار الهواء البارد يصعق وجوهنا. مضيت نحو القصر، حتى واجهتني بوابة خشبية ضخمة ذات حلقات معدنية كبيرة، أخبرني موظف الأمن أن عليّ شراء تذكرة من الشباك المجاور، فأبرزت جواز سفري الدبلوماسي، وأني مصرح لي الدخول للأماكن السياحية مجاناً، تركني دقيقة بعد أن أخذ جواز السفر، وتوجه إلى رئيسه ليسأله، وعاد إليّ... أعطاني جواز السفر وسمح لي بالدخول.

على جانبي الممر، غرست أشجارُ سرو مشدبةٌ بعناية؛ توقفت عند إحداها متأملاً شكل الشجرة، فوجدتها لا تختلف عن مثيلاتها المجاورة على الصف نفسه، بل والصف المجاور... لفحات الهواء البارد لم تكن مزعجة، كانت لطيفة منعشة، تتسلل إلى أنفي بوقارٍ وهدوء، فتجدد كل الخلايا الميتة.

فكرت في «فيروز»... هل كان يردُّ النسيم البارد إليها شيئاً من النار التي تشتعل في جسدها؟ هل كنت تزورين الجنة معي يا ابنتي كما قالت هذه العجوز الطيبة؟ المكان هنا أشبه بجنة حقيقية على الأرض... أنا ولا أحد... أشجار السرو ولا أحد... الطقس البارد ولا أحد.

هل تسمعيني يا حبة قلبي...؟ أجسُ بتلك الآلام التي تعمل في جسدك مثل منشار ناري لا يعرف الرحمة، أجسُ بكل وخزة ألم، وكل خفقة قلب.

علمتُ من د. الفيشاوي بوجود نسخةٍ لمخطوطٍ لشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي الحنبلي في إسطنبول... وبعدَ بحثٍ استمرَّ ساعاتٍ في أرشيفِ المكتبةِ عثرتُ على مخطوطةٍ تحملُ اسمَ (مُرَاد مُلا ١٨٢٥، ورقة ٣٣٧: ٣٥٢)، كانتِ المخطوطةُ أشبهَ بكراسةٍ ذاتِ غلافٍ بُنيٍّ من الكرتونِ المقوّى، فَتَحْتُ الصفحةَ الأولى فوجدتُ بطاقةً بيضاءً تتوسطُ الصفحةَ كُتِبَ عليها «ذكرُ أبي الحسنِ الخرقاني في المناقب»، ثم لمحتُ أعلى الصفحةِ على اليمينِ ما يشبهُ «طابعَ بريدٍ» ملصوقاً على نحوٍ أفقي يحملُ رقمَ ١٧٩٦، بدأتُ البحثُ عن الصفحةِ المنشودة... ٣٣٧... فوجدتُ عبارةً مكتوبةً باللغةِ العربية تقول:

«سلطان سلاطين المشايخ... سيد أهل الطريقة والحقيقة... الشَّمْسُ الإلهية... خاتم الأولياء... القطب الصمداني... الفاني الرباني... إمام مكانه وشرف أهل زمانه... بحر الحزن... الأرسخ من الجبل... الشَّيْخُ أبو الحسن علي بن أحمد بن جعفر الخرقاني الشافعي».

فاستأذنتُ أمينَ المكتبةِ في تصويرها، فرفض، فأخرجتُ جوازَ سفري الدبلوماسي وخطابِ التوصية، فنظر إليها وهز رأسه عليّ نحوٍ لم أفهمه... يئستُ؛ فجلستُ إلى أحد الأركان وبدأتُ في نسخِ المكتوبِ بخطِ يدي في دفترتي الذي كنتُ أحمله معي...».

إسماعيل عبد الله الأنصاري... إسطنبول في ٩ أكتوبر ١٩٧١

شردَ بصري تجاه نافذة الغرفة. كان الوقت يزحف ببطءٍ نحو الغروب، وَقَدَ التحفَّتُ السماءُ بغيومٍ هائمةٍ. تفحصتُ الخطابَ الثاني؛ كان الكلامُ مكتوباً بخطٍ دقيقٍ ومنمَّقٍ، بينما بدتُ حوافَ الورقةِ متآكلةً.

القاهرة، في ٣١ يناير ١٩٨٥

«... ومثلٌ وجعي لا يحتويه بحرٌ ولا تسعُه صحراءُ،... مثلٌ وجعي لا يسعه إلا قلبه الحر، لكن قلبي الحر لم يستطع الصمود... هوى في أسر شيخ الشيوخ... المرشد الكامل... الذي ولج هذا القلبِ من بابٍ مفتوحٍ منه إليّ، لا مني إليه، بابٌ لم أسعِ إلي فتحة، ولا أعرف كيف أعلقه. كانت كلمات الشيخ: حين تعطي الله شيئاً... يعطيك الله شيئاً» مثل عينٍ سحريةٍ جذبتني إليها كالمغناطيس، فاندفعتُ وراء قوة المغناطيس وأنا مغمضُ العينين، مسلوبُ الإرادة. لكنني كنتُ أعلم أنني سأسقط... وسقطتُ بالفعل في بئرٍ عميقة، بئرٌ ماؤها غور كبئر يوسف... يغصُّ بضجرٍ كضجر يونس... مملوءٍ برجاءٍ كرجاء يعقوب... ناضحٌ بعزيمةٍ كعزيمة إبراهيم... ينشدُ صبراً كصبر أيوب... بئرٌ خفت من الآلام التي تأكل أطرافها... آلام ابنتي «فيروز» التي ورثت ذلك المرض الخبيث عن أمها.

أتموت «فيروز» وأنا عاجزٌ عن إنقاذها؟ أم أراني أفعل مثلما فعل... العارف الواصل... الذي وضع على قلبه حجراً ثقيلاً ثقل الجبال الأوتاد... عندما قُطعت رأس ولده أحمد ووضعت عند عتبة داره...؟ أه يا شخي... لبتك تزورني وتدعو الله لي أن يفرغ علي قلبي الصبر وأنا أرى ابنتي يأكلها الوجع الأصفر ولا أستطيع أن أمدَّ إليها يدَ العون... شخي... أنصت إلى نصيحتك... أعطيتُ الله

شيئي وقرّة عيني وحبّة قلبي «فيروز»... إلهي... أعطني شيئاً أصطبر به إلى أن ألقاك.... أو لأصمت كي ألقاك. يؤنس... إذا كتب الله لك أن تقرأ هذه الرسائل، فلتسافر... ولتكمل رحلة لم أتمكن من إكمالها، رحلة إلى «بيت الأغاني».

تمثلت صورة جدّي جالساً فوق المصطبة الطينية المرتفعة بالقرب من المدفن، صامتاً، وهم يوارون جسد أمّي التراب، يراقب الرائحين والغادين بهدوءٍ وكأن الأمر لا يعنيه. وسرت كالطيف في أذني كلمات د. فالتر وإشاراته على مدار سنوات طويلة أستمع إليه، وهو يحاول أن يرسل إشارته وتنبهاته إليّ، وأنا أصم سمعي وقلبي. باعنتي ليل اليوم التالي، اكتشفت أنني بقيت هكذا منذ يوم، ليله ونهاره... نسيت الطعام والشراب، اللهم إلا فنجاناً أو اثنين من القهوة من برطمان القهوة الذي أهداني إيّاه الشيخ نجدت. عدت إلى دفتر د. فالتر. كانت الصفحات الأولى تضم ترجمة لأحوال وأقوال أبي الحسن الخرقاني:

«الغريب من ليس له شعرة في السماء والأرضين، وأنا أقول أنا لست غريباً، بل أداري الزمان... والزمان يداريني».

«من يعزم على السفر في الأرض ستجرح قدماه، ومن يقصد السفر في السماء سيجرح قلبه».

«سأل الناس الشيخ كيف نعلم أن في الداخل واحداً متشابهاً أيضاً؟... قال: «حين يكون اللسان واحداً أيضاً، ومن له لسان متناقض فهذا دليل على تناقض قلبه أيضاً؛ إذ قال الكبار: القلب هو الوعاء واللسان الملعقة، وكل ما هو موجود في الوعاء يدخل الملعقة. القلب بحر واللسان شاطئ؛ فحين تتشكل الأمواج في البحر، سترمي ما هو موجود في البحر إلى الشاطئ أيضاً».

اتصلت بالست «أم بهاء» كي تصعد لتنظيف الشقة، وأكدت لها أنني سأترك المنزل لنتحرك بحرية. ارتديت قميصاً قطنياً خفيفاً وبنطلون جينز، خرجت من الشقة، وفي خطوة واحدة وجدنتي في الشارع الذي مشيت فيه يوم ماتت أمّي. اقتربت الأرض من السماء... اقتربت واتسعت.

سافر لؤي إلى مصر لزيارة أسرة زوجته «كريمة» وقضاء أسبوع في الإسكندرية في منزل عائلتها في «كفر عبده». وكنت قد اتفقت معه قبل السفر، أن نلتقي مساء الخميس الأخير لزيارته لمصر.

ضرب لؤي موعداً في مقهى «خواجاتي مشهور» في شارع «الصالح أيوب». حين وصلت، وجدت المقهى مزدحماً عن آخره، دخان السجائر والأحاديث الصاخبة تعبق المكان الضيق. اخترنا مكاناً في آخر المقهى إلى جوار نافذة خلفية تطل على فيلا قديمة مهجورة.

- رفيقي... قلت لي كلامًا غريبًا في التليفون... شنو بدك تسافر علشان تزور مرقد شيخ صوفي؟
- لؤي... لولا أنني أعلم قدر حُبي ومعزتي لَكَ مَا كُنْتُ صَدَقْتُ أَنَّكَ قَدْ تَقُولُ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ؟ لَعَلَّ
النَّدَاهَةَ نَدَهْتَنِي؟

- نداهة؟ صاحبي... أنا أخاف عليك والله يا يونس كثيرًا... أخاف تصبح مثل المرحوم د. فالتر.

- من فضلك لا تغلط في الدون النبيل... الدون لامانشا كان هُوَ الحق... ولكن لا تخش عليّ، لم تظهر
لي النداهة بعد... يعني لم أَجَنَ حَتَّى الْآنَ... لَعَلِّي فِي الطَّرِيقِ... لَكِنْ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةَ لَا أَعْتَقِدُ أَنَّي
مَجْنُونٌ... أَنَا أَمْتَلِكُ بَوْصَلَةَ دَاخِلِيَّةَ مَوْجَّهَةً نَحْوَ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ... وَكُنْتُ أَوْدُ أَخْذَ رَأْيِكَ مِنْ بَابِ
الدَّعْمِ الْمَعْنَوِيِّ.

اقترب لؤي من الطاولة وخلع نظارته الطبية وَقَالَ لِي:

- لا أقصد يا يونس تثبيط هِمَّتِكَ... أَعْلَمُ أَنَّ كَلَامِي صَادِمٌ وَجَافٌ، لَكِنْ صَدِيقٌ عَمْرِي... وَالصَّدِيقُ
مَنْ صَدَقَكَ كَمَا يَقُولُونَ، أَمْرُ السَّفَرِ لَا يَزَالُ مَعْلَقًا وَأَنَا لَمْ أَحَاوِلِ التَّوَاصُلَ مَعَ د. رِضَا يَزْدِي لِاسْتِكْنَاهِ
نِيَّتِهِ فِي اسْتِكْمَالِ الْمَشْرُوعِ.

- أنت طيب يا صاحبي، لقد اتصلتُ شخصيًا بالدكتور رضا يزدي، واستعدتُ لهذه القنبلة... لا يوجد
مشروع ولم يحدث أن تواصلَ د. فالتر مَعَ رِضَا يَزْدِي وَلَا مَعَ أَيِّ أَسْتَاذٍ فِي جَامِعَةِ طَهْرَانَ عَلَيَّ
الإِطْلَاقِ... الْمَوْضُوعُ كُلُّهُ كَانَ خَدْعَةً وَاسْتِدْرَاجًا... خَدْعَةُ الْمَحَارِ.

- شنو هالحكي؟ كيف بيصير هذي؟ د. فالتر أرسل إِلَيْنَا رِسَائِلَ الْبَرِيدِ الْإِلِكْتْرُونِيِّ الْمَتَبَادَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْجَامِعَةِ... كَيْفَ بَتَحْكِي يَا رَفِيجِي؟

- كُلُّ ذَلِكَ كَانَ خَدْعَةً، مَجْرَدُ حَسَابِ الْكِتْرُونِيِّ وَهَمِي، جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ حَنَّا هِيَ مَنْ أَرْسَلْتَهُ... لَا
أَعْلَمُ... لَقَدْ أَرَادَ د. فَالْتَرُ السَّفَرَ مَعَهُ...

- هل هَذَا قَرَارٌ يَا يُونَسُ؟ أَمْ مَجْرَدُ أَفْكَارٍ تَرَاوَدَ خِيَالَكَ؟

- سَمَهَا حِمَاقَةً...

- لَسْتُ أَحْمَقَ يَا يُونَسُ...

- كَانَ جَدِّي يَقُولُ لِي يُقَاسُ نِكَاةُ الْمَرْءِ بِمَقْدَارِ حِمَاقَتِهِ...

- شنو لهذه الدرجة الموضوع مآثر فيك يا خي... أنا مقدر لحالتك بعد وفاة المرحومة...

- لؤي... أتذكرُ عبارةَ مُحييِ الدين بن عربي التي جرنا في ترجمتها يوماً «العارفون إلى ذهاب، لكن ذهابهم إلى غاية»؟ أتذكرُ كم عانينا ونحن نحاول تأويل كلمة «الذهاب»... أنا ذاهبٌ وحدي...

- صديقي... أنتَ طلبتَ رأيي وأنا قلتهُ بصراحة، على العموم أنتَ بالطبع على صوابٍ فيما تراه صواباً...

- صاحبي... لا تشغل بالك بالصواب، أريدك فيما هو أهم... أعلم أنك ما تزال تملك رصيذاً طيباً من العلاقات في إيران، أريد مترجماً أثناء الرحلة... يتحدث اللغة العربية والفارسية ويرافقني أثناء السفر إلى بسطام، وهذا ما يمكن أن يساعدني...

- أكيد... أبغي يومين فقط... سيكون أدير المترجم، أعرف اثنين... دعني أجري بعض الاتصالات وأخبرك...

- وأنت... متى تعود إلى جراتس؟

- الإجازة تنتهي الأحد القادم، وزوجتي والولدان سيعودان من عند حماي بالإسكندرية غداً، وسوف نسافر الجمعة القادمة إن شاء الله، أمامنا ثلاثة أيام... وأنت متى تنتوي العودة من بسطام؟

- يوم على الأكثر... لا أعلم... ولكنني سوف أعود إلى فيينا مباشرة، يمكن يوم السبت بعد القادم...

- طيب... اتصل بي... سوف آتي لآخذك من المطار... على فكرة يا يونس، أحضرتُ لك بعض الخطابات التي وردت إلى صندوقك البريدي في الجامعة، وطلبت منهم أن أخذها لأوصلها إليك...

- لا يهم... لدي متسع من الوقت أثناء السفر، سوف أفتحها في الطائرة أو في الفندق.

المشهد التاسع

إِنْ لَمْ تَجِدْنِي، أَوْلَا، فَلَا تَيْأَسْ

إِنْ افْتَقَدْتَنِي فِي مَكَانٍ، فابْحَثْ فِي مَكَانٍ آخَرَ

وَلتَجِدْنِي أَنْتَظِرُكَ فِي مَكَانٍ مَا

(والث ویتمان-أوراق العشب)

مَنْ يَسْبِقُ الْجَمِيعَ، يَبْلُغُ الصَّحْرَاءَ.

بلوغ الصحراء هُوَ هَدْفٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، وَالاسْتِمَاعُ إِلَى أَصْوَاتِ الصَّحْرَاءِ الْمَتَسَلِّلَةِ إِلَى الرُّوحِ قَبْلَ الْأَذْنِ هُوَ هَدْفٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، وَالنَّظْرُ إِلَى قَمَرِ الصَّحْرَاءِ وَنَجْمِهَا هُوَ هَدْفٌ فِي حَدِّ ذَاتِهِ. بَلَّغْتُ صَحْرَاءَ «خَرْقَانَ» فِي «بِسْطَامٍ». يَقُولُونَ إِنَّ خَلْقًا كَثِيرِينَ مِنَ الْعَارِفِينَ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ مَدْفُونُونَ فِيهَا، وَيُقَالُ إِنَّ مَاءَهَا دَوَاءٌ مِنْ عِلَّةِ الْهُوَى؛ فَمَنْ شَرِبَ مِنْ مَائِهَا زَالَ عَنْهُ الْهُوَى وَذَهَبَ الْهَمُّ وَالْحَزَنُ مِنْ قَلْبِهِ. ارْتَحَلَ الْعَارِفُونَ إِلَى هُنَا بِأَجْثِينَ عَنْ حَجَرِ الْفَيْرُوزِ الَّذِي تَحَدَّثَ عَنْهُ «أَرْسَطُو» فِي كِتَابِ الْأَحْجَارِ وَقَالَ عَنْهُ: «إِنَّهُ حَجَرٌ يُجْلِبُ مِنْ جَبَلِ نَيْسَابُورِ، وَأَنْ مِنْ سَمَاتِهِ أَنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ»، وَجَبَلِ نَيْسَابُورِ قَرِيبٌ مِنَّا.

انْحَنَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ لِالْتِقَاطِ حَقِيبَةِ اللَّابِ تَوْبَ، فَتَحْتَهُ وَبَدَأْتُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَلْفِ «كُتُبِ التَّرَاثِ التَّارِيخِيَّةِ»، كَانَ أَوْلَاهَا كِتَابُ «بِقَاوَتِ الْحَمُويِّ مَعْجَمِ الْبِلْدَانِ»، وَ«أَثَارِ الْبِلَادِ وَأَخْبَارِ الْعِبَادِ» لِلْقُرُوبِيِّ، فَتَحْتُ مَعْجَمَ الْبِلْدَانِ، وَبَحْتْتُ عَنْ بَلَدَةِ بَسْطَامِ، وَقَرَأْتُ:

«وَبِسْطَامَ بِهَا خَاصِيَّتَانِ عَجِيبَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنَّهُ لَمْ يُرَ بِهَا عَاشِقٌ مِنْ أَهْلِهَا قَطُّ، وَمَتَى دَخَلَهَا إِنْسَانٌ فِي قَلْبِهِ هَوَى وَشَرِبَ مِنْ مَائِهَا زَالَ الْعَشْقُ عَنْهُ، وَالْآخَرَى أَنَّهُ لَمْ يُرَ بِهَا رَمْدٌ قَطُّ، وَلِهَا مَاءٌ مَرٌّ يَنْفَعُ إِذَا شُرِبَ مِنْهُ عَلَى الرَّيْقِ مِنَ الْبَحْرِ... وَتَنْقَطِعُ بِهَا رَائِحَةُ الْعُودِ وَلَوْ أَنَّهُ مِنْ أَجُودِ الْهِنْدِيِّ، وَتَذَكُّو بِهَا رَائِحَةَ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ الطَّيِّبِ إِلَّا الْعُودَ: وَقَدْ رَأَيْتُ بَسْطَامَ هَذِهِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ ذَاتُ أَسْوَاقٍ إِلَّا أَنَّ أَبْنِيَّتَهَا مَقْتَصِدَةٌ لَيْسَتْ مِنْ أَبْنِيَّةِ الْأَغْنِيَاءِ، وَهِيَ فِي فِضَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا جِبَالٌ عَظَامٌ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهَا، وَلِهَا نَهْرٌ كَبِيرٌ جَارٍ، وَرَأَيْتُ قَبْرَ أَبِي يَزِيدِ الْبِسْطَامِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي وَسْطِ الْبَلَدِ فِي طَرَفِ السُّوقِ».

أَخَذْتُ أَنْتَلُبُ فِي فِرَاشِي دَاخِلَ غُرْفَتِي فِي الْمُوْتَيْلِ؛ مُوْتَيْلِ «خَانَهُ كُلُّ» فِي مَحَافِظَةِ «سَمْنَانَ». كَانَ قَدِيمًا مُتَوَاضِعًا، وَلَكِنَّهُ نَظِيفٌ، وَكَانَ مُكَوَّنًا مِنْ عَشْرِ حِجْرَاتٍ مُوزَعَةٍ عَلَى طَابِقَيْنِ، تَقْصِلُ بَيْنَ

الحجرة والأخرى بضعة سنتيمترات، بينما حُصص الطابق الأرضي كصالَة للظور واستقبال النزلاء، أو عابري السبيل من أمثالي.

مظهر الجميع بسيط ومتواضع؛ معظمهم من العُمال الذين يحترفون صناعة «المنسوجات» و«البسط» الفارسية المميزة التي تشتهر بها هذه المحافظة. أغرتني النسماة المتسللة من فتحة النافذة الصغيرة بالخروج والتنزه حول الموتيل. حملتُ مفتاح الغرفة الذي كان مُعلقًا في ميدالية نحاسية ضخمة وثقيلة للغاية تخيلتها «كردان أحمر» من النوع العتيق الذي كنت أراه أحيانًا مُعلقًا في صدور نساء قرية جدِّي، خلعتُ المفتاح من الميدالية لتسهيل وضعه داخل جيب البنطلون الجينز، جذبتُ الباب، ثم أدخلتُ المفتاح في القفل المعدني، إلا أن المفتاح لم يدر، وحاولتُ من جديد ففشلت أيضًا.

أصابني حنقٌ من غياب الموقف بأكمله. فكرتُ في الدخول إلى الحجرة للاتصال بخدمة العُرف لمساعدتي، لكنني سمعتُ صوتَ أقدام تخطو نحوِي. كان شابًا أسمر، طويل القامة يرتدي زيَّ موظفي الموتيل.

ابتسمتُ مُشيرًا إلى المفتاح الذي كنت ممسكًا به بين السبابة والإبهام، مُحركًا إيَّاه يمينًا ويسارًا، لكنَّهُ بدا أَنَّهُ لم يفهم إشارتي. فسألته:

- Hello, I want to lock the door, but it didn't work out ,would you please help me?

أجابني بهدوء:

- أتتحدث العربية؟

- نعم

- ناولني المفتاح

دفع الشاب الباب، وخطا خطوة واحدة داخل الغرفة، ثم أمسك بالمقبض الداخلي للباب، وأشار إلى نتوء صغير مشقوق مثل رأس حبة الفول، يبرز من المقبض، ضغط عليه وأشار بالخروج، فخرجنا، ثم جذب الباب حتى سمعتُ «تكة» العلق، ثم حاول فتح الباب كي يُطمئنني أن الباب موصل بالفعل.

نظر الشاب ذو الملامح الجامدة نحوِي، وهو يعطيني المفتاح ويقول:

- سيدي... الآن الباب موصل، يمكنك استخدام المفتاح.

أدرتُ المفتاح في القفل يسارًا، وجذبتُ المقبض، فانفتح الباب.

- أُرَيْتَ يا سيدي... بعض الأبواب لا تُغلق إلا من الداخل، والآخر لا يُغلق إلا من الخارج... لَيْسَتْ لكل الأبواب مفاتيح ومغاليق متشابهة...

- هَذِهِ أول مرة أرى فيها بابًا يُغلق من الداخل...

- هكذا هي الأبواب... وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتَنظَرَ الشخصَ المناسب كي يدلكَ.

أحنى الشابُ رأسه ثم اختفى في أقلَّ من ثانية عائدًا إلى الثقب الأسود الذي خرج منه. ظَلَّتْ كلماته تصدح في أذني وأنا واقفٌ على عتبة باب الحجرة، لا أنا بالداخل ولا أنا بالخارج. دلفتُ إلى الحجرة من جديد. بدلتُ ملابسي وقررتُ البقاء في الحجرة هذه الليلة. أثناء جلوسي على الفوتيه المقابل للسرير، لمحتُ حقيبة أوراقي مُسجاةً على الأرض، فتحتُ الحقيبة فرأيتُ الخطابات التي كان لؤي قد جلبها معه من النمسا، بارزةً تطلُّ من الحقيبة المفتوحة كأنها تريد القفز خارجها. ترددتُ بين فتحها الآن أو تركها لحين العودة إلى «جراتس». كان الوقتُ يمرُّ بطيئًا مملًا. فكرتُ في فتح الخطابات وقراءتها. كان الخطاب الأول مؤرخًا في ١٥ يونيو، أي منذ ثلاثة شهور تقريبًا، وكان مكتوبًا باللغة العربية. دُهشتُ من فكرة إرسال خطابٍ باللغة العربية داخل النمسا؛ فليس لي الكثير من الأصدقاء العرب، وحتَّى هؤلاء القليلون لا يحتاجون إلى كتابة خطابات؛ بحثتُ عن اسم المرسل، فوجدته مذيلاً باسم هبة الله ناجي عبد الوهاب.

«... الحمد لله وحده... نجحت العملية يا سيدي الفاضل، وتمكنت ابنتي الصغرى بفضل الله أولاً ثم بفضل قلبك الطيب الطاهر وكرم أخلاقك... أنت وزوجتك النبيلة من أن تعيش... نجحوا في نقل «الكلية الصالحة» إلى ابنتي الصغرى «زهرة»، وها هي الآن إلى جوارتي تتم عامها السابع. للأسف لم أتمكن من مقابلتك، بحثت عنك كثيرًا، واهتديت إلى عنوان عمك من إدارة مستشفى جامعة جراتس... سيدي الكريم... أفدّر مشاعرك وحزنك الدفين على ما فقدته، ولكن بعملك هذا أحييت نفساً أخرى... «ومن أحيائها فكأنما أحيانا الناس جميعاً». عسى الله أن يتغمدنا برحمته، وأن يجعل فعلك الكريم سبباً في دخولك الجنة، وإنا لله وإنا إليه راجعون».

أُحَتِّك... هبة الله ناجي عبد الوهاب... جراتس... ١٥ يوليو ٢٠١٠

لم أنتبه للخطاب وهو يسقط من يدي، فارتيمت على الأرض، مسندًا بظهري إلى حافة السرير، وموجهًا بصري نحو النافذة الزجاجية المفتوحة وأضواء القبة الفيروزيّة تومض في عيني، تتابعت مشاهدٌ متلاحقة بسرعة كأنني أراها من نافذة قطارٍ سريع، مشاهد من فيلم قصير سبق رؤيته وحاولتُ على مدار شهور نسيانه أو تجاهله:

«... مستشفى جراتس المركزي... «فيروز» راقدة على سريرها في المستشفى، سارة منهارة شبيهة غائبة عن الوعي في مقعد مجاور لغرفة «فيروز»... دموعٌ متحجرة في عيني... طبيب ذو ملامح شرق أوسطية يخرج من الغرفة... يطلب الحديث منفردًا مع «كريمة» زوجة لؤي... تدخل «كريمة» مع الطبيب إلى غرفته الزجاجية الجدران... أرقب كليهما من وراء الجدار الشفاف وهما

يتحدثان، وأنا أعرف تقريباً مضمونَ الحديث... تخرج «كريمة» بعد دقيقة واحدة، وهي تجهش ببكاءٍ حادٍّ، ثم تمسك بيدي ويدٍ سارة وتقول: «... قولاً الحمد لله... قولاً الحمد لله... هناك نفسٌ أخرى تحتاج إلى قطعة من جسد «فيروز»... «ومن أحيائها فكأنما أحيانا الناس جميعاً»... فلتنقذا روح الطفلة الأخرى».

فتحتُ الخطاب الثاني؛ كان آخرَ خطابٍ أرسله أبي، وكان مؤرخاً في ٥ أغسطس، أي منذ حوالي شهر ونصف. بدأتُ في قراءة الخطاب:

«... يونس... أنا مش زعلان من قلة الجوابات يا ابني... أنا عارف مشاغلك وضغط الحياة عندك، بس أنا زعلان منك قوي يا حبيبي لأنني بسأل عن «فيروز»... بقالك ست أسابيع... وأنت ولا حس ولا خبر... إيه يا ابني فيه إيه؟ والله أنا مش عايز غيرَ أني أطمئن عليك وعلى «فيروز» وعلى سارة... بقالي شهر ماسمعتش صوتها ولا كلمتها... طمني يا يونس عليكوا».

بقيتُ جالساً على الأرضِ محدّقاً في الفراغ بعد قراءة خطاب أبي الأخير، انتابني شعورٌ أنّ هذه اللحظة قد تكون الفرصة الوحيدة، ولعلها الأخيرة لأنفرد بروحي في خلوةٍ مثالية أتأمل خلالها ما جرى، ولأفصّ تلك الغلالة الغامضة التي كنت أراها دائماً تتراقص فوق بصري ولا أستطيع فهمها؛ غلالة الحلم والفيلم والعلم.

صداعٌ متوحشٌ ينهشُ رأسي مثل ضبع، مطرقةٌ حجرية تتهمر فوق جمجمتي فتسحقها، ثم تتشكل الجمجمة من جديد، لتتلقي ضرباتٍ جديدة، وهكذا إلى ما لا نهاية. نهضتُ مجرّجاً قدمي إلى السرير والنقطة حقيبتني، ثم أخرجت كيس فورار جرعته مُدوّباً في ربع كوب ماء.

تطلعتُ إلى ساعة الحائط من جديد فوجدتُ عقاربها قد استقرت عند الثانية عشر ليلاً، ولم تتحرك وكأنها ماتت عند هذا التوقيت، توجهت إلى الركن المقابل للنافذة، ثم أرحت المكتب الخشبي الصغير ناحيته.

تمنيتُ احتجابَ الشمس كي أهرق ما بداخلي فوق صفحات دفتر د. فالتر الفارغة؛ الآن بدأت أفهم لماذا ترك الرجل هذه الصفحات خاوية. دعوتُ الله ألا تطلع الشمس قبل أن أفرغ، واستجاب الله لدعائي؛ مرّت سبع ساعات انكبتُ فيها على تدوين كل ما حدث، لم ألتفت لحظة يميناً أو شمالاً، كأنني في امتحانٍ مصيري سيتوقف عليه مصيرُ حياتي. سَطَرْتُ ما جرى في سبع ساعات، أما داخل عقلي فقد مضت سبع سنوات كاملة، عايشتها لحظة بلحظة، مستحضراً كل شيء بوعي اللحظة الآنية. كانت ذاكرتي مثل ذاكرة جاسوسٍ حفظ مضمون رسالةٍ عن ظهر قلب ليُبوح بها حين يُسمح له، ولا ينقصني الآن سوى كتابة سطور نهايةٍ بدت كأنها جنينٌ مخبوءٌ في رحم الغد، وأنا في انتظاره. كم تبقى من المائتي صفحة؟ نظرت إلى الورقات الباقيات الصالحات من دفتر د. فالتر البنفسجي فوجدتها تسع عشرة؛ باقٍ على النهاية تسع عشرة ورقة.

رُفِعَ الْقَلَمُ؛ لو وصلتُ فهو القدرُ، ولو فصلتُ فهَيَّ الرحمة.

لم تُصِني الآم الرقية التي لازمتني مُنذُ بضعة شهور. كنتُ أشعرُ بنشاطٍ مُريبٍ، بالرغم من أنني واصلتُ الليلَ بنهارِ الأَمس. اعتلتُ الشَّمسُ قممَ الجبالِ المحيطة بنا وترَبَّعتُ. نظرتُ إلى ساعتي، كَانتُ تقترُبُ من السابعة والنصف. اغتسلتُ وارتديتُ ملابسَ خفيفةً ونزلتُ إلى بهو الموتيل لتناولِ الفطور. درجاتُ السلمِ كَانتُ مصنوعةً من الخشبِ الأرابيسك الموشي بنقوشٍ ملونة، كَانتُ ملمحَ الجمالِ الوحيدِ بأسره في هَذَا النُّزُلِ الصغير. لمحتُ شابِينِ يُجهزانِ المائدةَ ويحضرانِ الأطباقَ وأدواتِ المائدة، فيما وقفتُ شابةٌ يافعةٌ في حجابٍ أبيضٍ تحملُ إبريقاً ضخماً من الماء الساخن وتضعه فوق بوفيه الطعام المتواضع.

تناولتُ الفطورَ على عَجَلٍ وأفرغتُ فنجانِ الشاي في جوفي، نظرتُ إلى ساعتي فوجدتُ عقاربها تدنو من الثامنة والنصف. أخرجتُ تليفوني المحمول واصلتُ بمرشدِ الرحلة... قاسمِ العبادي. لم تكن هي إلا «رنة واحدة» إلا وأجابني على الهاتف: أنا أمام باب النُّزُلِ يا دكتور. حينَ خَرَجتُ من الموتيل، وجدتُ سيارةَ أجرةٍ بيضاء. دنوتُ من زجاجِ النافذة المفتوح، فأطلتُ رجلٌ يبتسم ونزلَ من السيارة. كان قصيرَ القامة، تبدو على ملامح وجهه الشقاء والمعافاة مع الحياة؛ شَعْرٌ مجعدٌ قصيرٌ يختلط فيه السواد ببياض الشقاء، يرتدي جاكيت ووتر بروف رمادياً مفتوحاً فوق قميص أصفر باهت.

صافحني بحرارة بعد أن عرَّفني بنفسه: أنا قاسمِ العبادي، مرشدِ الرحلة... إن شاء الله تُكون أحوالك بخير يا دكتور يونس... صديقي د. لؤي أوصاني كثيراً.

رددتُ عليه التحية. جلستُ في المقعدِ الخلفي، وبدأ هو يتحدث.

«أنت تعرف أكيد يا دكتور أن العارف «بايزيد البسطامي» مدفون في بسطام... لو تحب تزور مرقده... هو منو بعيد ممكن نزوره وبعدين بنرحل على خرقان».

- للأسف ليس لدي متسعٌ من الوقت اليوم... لعلها تُكون من نصيبِ رجلٍ آخر...

كان يقودُ السيارةَ سائقٌ إيراني الملامحِ بامتياز: متجهمٌ... صامتٌ... بريٌّ. راحَ قاسمُ يحدثني عن نفسه وقالَ إنه وُلِدَ في منطقة «الأحواز» التي تقع شمال غرب إيران، وتحديدًا من قرية «الصحين». قالَ إنها قرية تقع داخل الأحواز وتبعد عن العمران نحو ساعتين ونصف. تحدَّثَ عن نصيحة والده بضرورة إتقان اللُّغة الفارسية - بالرغم أنهم كانوا من عربِ الأحواز - كَانتُ لها أثرٌ بالغٌ في تمكّنه من الالتحاق بالجامعة بسبب طبيعة أسئلة الامتحان التي تشترط إتقان اللُّغة الفارسية والإلمام بالحضارة الفارسية، فتخرَّج في كلية الدراسات الإنسانية بجامعة طهران، والتحقَ بوظيفة مترجم في إحدى شركات البترول هناك.

لم أعلقَ عَلَى حَدِيثِ قَاسِمِ عَلَى مَدِينَةِ الْأَهْوَازِ أَوْ الْأَحْوَازِ - قَالَ لِي إِنَّ كِلَيْهِمَا صَحِيحٌ-، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَمَرَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ تَارِيخِ مَسْقِطِ رَأْسِهِ، وَقَالَ إِنَّهَا مَدِينَةٌ تَرْحَبُ بِكُلِّ الزَّائِرِينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَيْرَتِهَا التَّارِيخِيَّةِ بَيْنَ «العرب» و«الفرس» ثم ذَكَرَ بَيْتَ شِعْرِ نَسَبِهِ إِلَى الشَّاعِرِ «جَرِيرٍ» يَقُولُ فِيهِ: سَيَرُوا بَنِي الْعَمِّ فَالْأَهْوَازِ مَنْزِلَكُمْ»، فَلَمَحْتُ مِنْ كَلَامِهِ ارْتِبَاطَهُ بِجَذْوَرِهِ الْعَرَبِيَّةِ:

- أَنْتَ أَكِيدُ تَعْرِفَ الشَّاعِرَ «أَبُو نَوَاسٍ»، لَكِنْ هَلْ تَعْرِفُ أَنَّهُ مَوْلُودٌ فِي الْأَحْوَازِ، لَكِنْ أُمَّهُ كَانَتْ فَارِسِيَّةً.

- جَدِيدَةٌ هَذِهِ يَا قَاسِمُ... أَوَّلُ مَرَّةٍ أَعْرِفُ أَنَّهُ مَوْلُودٌ فِي الْأَحْوَازِ، وَأَنْ أُمَّهُ فَارِسِيَّةٌ.

- نَحْنُ الْأَصْلُ يَا دَكْتُورُ... وَهُمْ الصُّورَةُ...

- مَنْ تَقْصِدُ يَا قَاسِمُ؟

- الَّذِينَ صَارُوا يَفْرُقُونَنَا عَنِ بَعْضِنَا يَا دَكْتُورُ... اللَّهُ يَسَامِحُهُمْ، هُنَاكَ تَضْيِيقٌ عَلَيْنَا كَثِيرٌ مِنَ الدَّوْلَةِ نَحْنُ أَهْلُ الْأَهْوَازِ.

أَجِبْتَهُ ضَاحِكًا:

- وَلَمْ لَا تَأْتِي لِلْعَيْشِ فِي مِصْرَ؟ بِلَادِنَا بَرِّغَمُ كُلِّ الصَّعُوبَاتِ رَحْبَةٌ وَسَمْحَةٌ... لَمْ تَضِقْ بِأَحَدٍ يَوْمًا، هَلْ تَعْرِفُ مِثْلًا كَمْ وَلِي صَالِحٌ دُفِنَ فِي جَبَلِ الْمَقْطَمِ؟

- أَهْلُ خَيْرٍ وَسَلَامٍ يَا دَكْتُورُ... وَالْأَهْوَازُ مَشْهُورَةٌ أَيْضًا بِالْعَارِفِينَ، هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَازِ هُمْ مَنْ أَسْمَاؤُهُمْ أَسْمَاءُ مَنْصُورِ الْحَلَّاجِ الْمَقْتُولِ بِهَذَا الْإِسْمِ؟

- صَحِيحٌ؟ كَيْفَ؟

- لِأَنَّهُ كَانَ يَكْاشِفُهُمْ عَمَّا فِي ضَمَائِرِهِمْ، فَكَانَ يَحْلُجُّ الْقُلُوبَ، أَيُّ يُخَلِّصُهَا، مَا أَكْمَلْتُ مَوْضُوعَ قِرَافَةِ الْمَقْطَمِ!

- الْحِكَايَاتُ كَثِيرَةٌ، وَالرُّوَايَاتُ حَوْلَ أَسْرَارِهِ أَكْثَرُ يَا قَاسِمُ، دُفِنَ الْكَثِيرُونَ... الصَّحَابِيُّ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مَدْفُونٌ بِقِرَافَةِ الْفُسْطَاطِ عِنْدَ سَفْحِ الْمَقْطَمِ، وَالْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ، وَسُلْطَانُ الْعَاشِقِينَ عَمْرُ بْنُ الْفَارِضِ وَغَيْرُهُمْ...

- طَيِّبٌ وَأَنْتَ إِيشُ اللَّيِّ بِيصِيرِ يَخْلِيكَ تِيحِي لِهِنَا؟

- مَكْتُوبٌ يَا قَاسِمُ... مَكْتُوبٌ فِي الدَّفْتَرِ

لم يسمع منِّي قاسم رِدًا. مضى يَقْصُ سيرته بقلبٍ مفتوح ويحكي تاريخ مدينة الأحواز أو الأهواز كما نطقها، لم أسمع إلا صوته. كان صوت الصحراء مُنْغَلِبًا. لكن حرارة استقباليه وتعاطفيه

مع مظهره المكافح، جعلني أستمر في سياسة «جبر الخواطر» التي أتبعها مع كل من يرق لحالهم قلبي.

سألته عن المدة التي ستقطعها الرحلة بالسيارة للوصول إلى بلدة «خرقان»، حيث خانقاه الشيخ أبي الحسن، فقال إن المرقد يبعد حوالي ٢٤ كيلو مترًا شمال مدينة بسطام، وهي المدينة التي تضم مرقد سلطان العارفين «بايزيد بسطامي»، وأن الرحلة قد تستغرق نصف ساعة على أقصى تقدير.

أدرت بصري نحو زجاج السيارة، حيث الطريق والجبال وصحراء واسعة ممتدة بحجم السماوات والأرضين. أثناء رحلتنا بالسيارة عبر الطريق الصحراوي المعبد أخبرني قاسم أن هذه البقعة تسمى «قلعة خرقان» نسبة إلى هذه البلدة الصغيرة التي نحن سائرون إليها، أبرزها «خانقاه شيخ أبو الحسن خرقاني» المشيدة فوق هضبة ترتفع ارتفاعًا ملحوظًا عن سطح الأرض، يجاورها منطقة تاريخية تدعى قلعة بالا، ومسجد «إمام زاده». لم يسمح الطريق لنا بالشعور بالملل؛ كنا نسير في صحراء شاسعة تحيط بنا جبال بسطام من كلا الجانبين وبعض الأشجار الصحراوية التي تظهر وتختفي فجأة مثل مشاهد من فيلم. كان الجو حارًا، وتكييف السيارة التي نقلنا مُعطلاً؛ فتحت نافذة السيارة، فلفحني هواء ساخن كان أقل سخافة من السائق مقطب الجبين.

كان المكان مهيبًا مثل جزيرة بكر عُرسَتْ وسط صحراء شاسعة؛ بقعة محاطة بأشجار كثيفة من الجهات الأربعة. خمنت أن مُريدي مقام الشيخ قد غرسوا هذه الأشجار حبًا وترحمًا على روجه، أو لعل الأشجار وجدت مُستقرًا ومقامًا إلى جوار «العارف الرباني» كما يطلقون عليه هنا، فتألفت أرواح المُحبين... البشر والشجر والحجر. توقفت السيارة بمحاذاة سور باب الخانقاه، كان السور الحديدي قديمًا، مطليًا باللون الأخضر، وثمة بوابة نحاسية صغيرة تقودك إلى الخانقاه، التي كانت مبنية فوق تل كبير.

كان مظهر السور الخارجي متواضعًا، ويخلو من مظاهر الزخرفة المشهورة بها المراقد الدينية هنا، تعلوه يافطة حديدية قديمة، كتبت عليها «آرامكاه شيخ أبو الحسن خرقاني» وتاريخ هجري يؤرخ لميلاده ووفاته.

تتقلت ببصري في المكان، كانت الأشجار تحيط بنا من كل جانب، سألته:

- ما اسم هذا الشجر يا قاسم.... رأيته كثيرًا منذُ أن خرجنا من بسطام؟

- هذا شجر اسمه السرو يا دكتور... مشهور هنا في بسطام... ويقولون إن شجر السرو المغروس عند المقابر يحمي الزائرين من الأرواح التائهة والشياطين، ويفتح عليهم من أبواب السماء... الله

أعلم... ويقولون أيضًا إنَّ سفينة النبي نوح عليه السلام كانت مصنوعة من شجر السرو... هل تعرف أن الشاعر «سعدي» تكلم عنه كثيرًا؟

- أكيد كل الشعراء الفرس تكلموا عن «السرو»... لكن ماذا قال في «السرو»؟

- قال الكثير والله... لكن أنا لا أذكر إلا بيتًا واحدًا: «أيها السرو الممشوق الفارع، يا من تعلم بحالنا ويا من تفوق حسنًا كل من في العالم؛ نحن لسنا سيئين أيضًا».

- صحيح يا قاسم... نحن لسنا سيئين أيضًا

كان منظرُ الشجرِ نفسه مريبًا وأخاذًا؛ كان يتراصُّ إلى جوار بعضه كأنه في طابور عرض عسكري، ولكنَّه تراصُّ حنون؛ مفعم بالأمل، يريد أن يقول شيئًا لمن يراه من بعيد. كل شجرة كانت تحتضنُّ أختها وهي تحرسُ المقابرَ من الأرواح والأشباح كما قال قاسم. اجترنا الباب الحديدي الصغير نحو ممرٍ طويلٍ يُفضي إلى المرقد، كان عبارة عن طريق طويل من السلام الحجرية القديمة.

على جانبي الممر غرست أشجارُ سرو مشدَّبة بعناية، فتوقفتُ عند إحداها متأملًا؛ وجدتُ كلَّ شجرةٍ لا تختلف عن مثيلاتها المجاورة لها على الصف نفسه، بل والصف المجاور، فتبسمتُ لقاسم الذي فهم مقصدي وبادرني قائلاً: مُجيبو ومريدو الشيخ كثيرون يا دكتور.

- من المؤكد أن ثمة تعديلاتٍ كثيرة حدثت على المقام منذ وفاة الشيخ...

- شنو المقام؟؟ تقصد «المرقد»... نعم... نعم... أكيد، سألتُ بعض الأشخاص هنا قالوا إن هذا المبنى ما كان بهذا الشكل... المبنى الأصلي شيده في نهاية عصر السلاجقة في القرن السادس عشر عام ١٣٤٨ ميلادية في عهد الملك المعتضد، حيثُ وُضع مشهدٌ فوق قبر الشيخ... لكن الخانقاه بالكامل أعيدت تشييدها من الخارج، وأحيطت بسور... أما من الداخل فسمعتُ أنهم تركوا «المحراب» فقط على حاله القديم الذي يعود إلى أكثر من ألف عام.

أخرج قاسم دفنرًا صغيرًا من حقيبته الرياضية الحمراء التي كان يحملها فوق ظهره، وقال لي إنَّه جمع بعض المعلومات حول المكان، فقرأها مثل طالب يتلو قطعة محفوظات:

تقع مقبرة الشيخ على إحدى التلال في شمال القرية، بها قطع من الأحجار والرخام التي نُجنت قصائده عليها، بُنيت هذه المقبرة على شكل لبنة وبناء مدبب عام ١٣٥٢ هجرية؛ حيثُ إن المغول كانوا قد قاموا ببنائه في عهد الإيلخانيين لكن المحراب هو الهيكل الأساسي الوحيد الذي ظل كما هو، بُني على خلاف المعتاد باتجاه الغرب، ومع ذلك فإنه قد بُني حاليًا مسجدٌ مع العديد من القوالب الجميلة في هذا المكان. في هذا المسجد توجد العديد من نقوش أقوال الشيخ مع آيات القرآن الكريم مكتوبة بخط رائع ومزينة برسوم من الزهور تسر العين.

سألته: «تسر العين هذه من عندك يا قاسم؟».

- لا والله، أنا نقلتها هكذا من صحيفة عثرت عليها بالصدفة تناولت تاريخ المرقد.

بلل قاسم سبابته اليمنى بطرف لسانه، ثم عدل وضع نظارته الخفيفة التي كادت تسقط وهو يقرأ:

- تسلم يا قاسم على المعلومات هذه... بُني المرقد في عهد السلاجقة؟

- نعم دكتور... كانوا يحبونه لأنه كان شافعيًا...

- لكن المرقد شبه خالٍ يا قاسم... هل هذا طبيعي؟

- لا هو ليس طبيعيًا يا دكتور... كل عارف هنا له مريده... لكن أنت تعرف أن اليوم هو يوم الجمعة ولا أحد يأتي غالبًا إلى المرقد أيام الجمعة، هل تعرف أن هذا الشيخ «سيره باتع» كما تحكون في مصر، يقولون إنه هو الشيخ الذي روض الأسود وجعلها تسير منكرة رؤوسها عند أقدامه، لكن ما يحيرني كيف عرفت يا دكتور؟... كثيرون هنا لا يعرفون ذلك... هل أنت كثير الاطلاع يا دكتور على أهل العرفان والتصوف؟

- لا تشغل بالك كثيرًا... أنا شخصيًا تعرفت على الشيخ بمحض المصادفة، ثم همست لنفسي، «أو بمحض التدبير».

قبل أن ندلف إلى الممر، مررنا بساحة صغيرة أشبه بمعبر، أو منطقة فاصلة بين بوابة الخانقاه الرئيسية وبداية السلالم الحجرية القديمة التي تقود إلى المرقد الذي أقيم عليه المسجد.

حين اقتربت، لم ألمح أحدًا سوى سيدة شابة، خلتها في أواخر الثلاثينات تقريبًا، ترتدي قميصًا أسود طويلاً فوق بنطلون جينز واسع. خلتي رأيت المرأة قبل ذلك في مكان ما... لا أستطيع التذكر أين؟ كانت تقف إلى جوار طفلة صغيرة لا يزيد عمرها عن سبع سنوات، تعجبت من وجود أم وابنتها في هذا المكان في ذلك الوقت المبكر.

كانت الأم ترقب طفلتها الصغيرة التي تجري محاولة الإمساك بفراشة ملونة كانت تنتقل بين الأزهار المزروعة في الأحواض الصغيرة المنتشرة في البقعة الفاصلة بين باب الخانقاه الحديد وبداية السلم الحجري الذي يفضي إلى مرقد الشيخ.

اقتربت قليلًا؛ كان وقع خطواتي إشارة إلى وجود زائر متطفل على جنة الأم وطفلها. انتهت الأم الشابة لوقع أقدامي، فأسرعت بضبط غطاء رأسها الذي كان قد انسدل تمامًا وكشفت عن شعرها بشكل شبه كامل، بينما حدقت الطفلة إلى وجهي وافترت ثغرها عن ابتسامة جزلة طرب لها قلبي؛ طرب وصعق في الوقت ذاته حين اقترب وجهي من وجهها؛ كانت نسخة من «طفلي» فيروز...

الملاحم نفسها، الشعر الأسود القصير نفسه، والوجة البيضاوي الصغير نفسه، والعينان السوداوان النجلوان.

تذكرتُ سطرًا لـ«صديق هدايت»، قرأته زمنَ المراهقة في رواية «اليومة العمياء» وهو يصف فتاةً جميلةً بقوله: «... عينان حوراوان تركمانيتان لهما نور سماوي مُسكر».

كان لنور عينيها نورٌ مُسكرٌ مثل ضوءٍ مختلسٍ من عالم السماء، وكنتُ مشدودًا إليها بحبلٍ منصوبٍ بينَ روحينٍ إحداهما أثقل من الأخرى. أردتُ أن أضمَّ الطفلة إلى حضني لأطبع قبلةً على جبينها، فخشيتُ من ردِّ فعلٍ من أمِّها. ربتُ على رأسها... وسألتها عن اسمها؛ لم تخشني الطفلة وَلَكِنَّهَا لم تُجِبْ أيضًا. سألتها مرةً ثانية بالإنجليزية عن اسمها فقالت:

- «زارا»

- «زهرة»؟

هزَّتُ رأسها بالإيجاب. تسمتُ إليها وأنا أودَّعُها.

تركتها، ولم تتركني. تعجبتُ من ردِّ فعلِ الأم وأنا أتحدث إلى طفلتها وأحدقُ إلى عينيها وأربتُ على رأسها. أقبلتُ الأم علينا، ونظرتُ نحوي نظرة عجيبة وكأنها تعرفني.

وأمتُ الأمُّ برأسها؛ فحملتُ الطفلة وضممتُها إلى صدري وقبَّلتها. ثم تركتها تذهبُ إلى أمِّها. كانتُ عينا الأم مثل تقبينِ أسودين لا يمكن النفاذ إليهما. اعترتني رغبةٌ عارمةٌ في البكاء بعد رحيلهما، ووددتُ بقاءهما إلى جوارِي قليلاً.

نفس المشهد يتكرر... كنيسة بازيليك ماريا تروست في مدينة جراتس بالنمسا، حيثُ دَفَنْتُ شَيْخِي الخواجة فالتر فون دير هولتس، ومرقد الشَّيْخِ أَبِي الحسن الخرقاني؛ كلاهما مشيدٌ بينَ السماء والأرض... هُنَاكَ فوق هضبة عالية، درجاتُ السُّلْمِ الحجرية نفسها الصاعدة إلى عنانِ السماء، الأشجار نفسها المغروسة على جانبي الطريق والمشذبة بعنايةٍ لافتةٍ.

فرق ألف عام ماضية... وَلَا فَرْق، فرق بينَ عالمين مختلفين... وَلَا فَرْق، بل فرقٌ بينَ سمائين زرقاوين وَلَا فَرْق؛ وكأن الزمن حَيِّطٌ أمسك بطرفيه، لا فرقَ بينَ أوله وآخره، وَلَا بينَ ماضيه وآتيه مثل فيلمٍ صامتٍ يتكررُ فيه مشهدٌ ما.

بينما كنتُ أصدعُ السلامَ التي بدتُ وكأنَّها لا نهائية، مددتُ بصري إلى الأعلى، كان هُنَاكَ عدد من السلام بدا وكأنه يعرجُ إلى عنان السماء؛ كلما ارتقيتُ درجةً، ازداد عدد السلام المتبقية أمامي.

كان قاسم متأخرًا مسافةً كبيرةً فناديته مشجعًا: مَا الأمر يا حاج قاسم...؟ شد حيلك... لا زلت شابًا...

- ايش أقول ليك؟ يا دكتور الله يرضى عنك، إحنا منو في النمسا بنتسلق جبال الألب، أنا عراقى و«ديلمية» أم «فيصل» تحددُ موقفي من الرياضة، فضحكنا.

عندَ منتصفِ السُّلْمِ، رأينا تمثالًا لشيخِ جالسٍ، أخبرني قاسم «هَذَا هُوَ تَمثالُ الشَّيخِ الخرقاني»؛ فلاحت مني ابتسامةٌ خفيفةٌ ساخرة.

كان التمثال لشيخٍ مُلْتَحٍ يُمسِكُ كتابًا بيده يضعه فوق ركبتيه. عند قدميه رقدَ أسدانٍ. لم يكن التمثال يكشف ملامحَ مميزة؛ رَجُلٌ مَعَمَّمٌ لا تحمل ملامح وجهه صفاتٍ خاصة، بدا رَجُلًا بلا صفات. أمعنْتُ النظرَ إلى التمثال، فكانت عينا الشَّيخِ شاخصتينِ إلى الأمامِ وَعَلَى وجهه ابتسامةٌ خفيفة.

قبل أن أواصلَ سيرتي، تنبهتُ إلى أن قاسم قد اختفى، أدتُ ببصري في هذه البقعة الصغيرة فلم أجد، فرجعت بعض خطوات نحو بداية السلام، فرأيتَه يجلس على كرسي مصنوع من جذع شجرة عملاقة، مستظلًا بسورٍ قديمٍ متهدم الأركان، وفي يده جريدةٌ وزجاجة ماء.

ولمَ لا؟ هذه مهنته وَلَا يَبْنِيكَ مثلَ خبيرٍ، فهو يعرف أن مرتادي المكان وزائريه لَا بُدَّ وأن يُتْرَكوا على حريتهم، لَا شَكَّ أن عشرات السواح من أمثالي مروا وهاموا.

من بعيدٍ، أبصرتُ الخانقاه لائحةً سانحةً، فانتابتني رهبةٌ خفيفة.

أدنو من مسجدٍ مَنْ كان يداري الزَّمانَ والزَّمان يداريه. فكرتُ في كلامي مَعَ الخواجة لما كنتُ أوصلُ نَبَشَ أفكاره، كان يَقُولُ إنَّ المسلمين حين كانوا يريدون إضفاءَ القَداسةِ على أحد الأضرحة، كانوا يَشِيدُونَهَا فوقَ ثمانية قوائم استلهاهاً للتصوير القرآني: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية»، وَكَانَتِ القِبابُ المخروطية العريضة المهيمنة ترمزُ إلى الاستواء على محيط المسجد، فالقبة هي رمز الاستواء على عرش المكان، وليس بعد الاستواء فناء.

- غريب موضوع القِباب هذا؟

- يونس... «القبة» ظاهرة مهمة في التراث الصوفي... «محيي الدين بن عربي» تَرَدُّ في نصوصه كلمة «قبة أرين»... وكان يَقْصِدُ بها: نقطة في الأرض يستوي معها ارتفاع القطبين فلا يأخذ هُنَاكَ الليل من النهار وَلَا النهار من الليل»، الأغرب أن القبة ظاهرة ضاربةٌ بجذورها في الحضارات والأديان القديمة أيضًا، ففي الصين كان معبدُ الضياء السماوي... Ming-Tang ذا سقفٍ دائريٍ تحمله ثمانية أعمدة منصوبة على قاعة مربعة، وفي بيت الذهب التابع للإمبراطور الروماني المجنون «نيرون»، كانت قاعةُ العرشِ الدائرية مغطاة بقبة برجية تدور حول نفسها ليلاً ونهارًا، وفي قصور ملوك أوروبا في القرن السادس عشر كان الملوك ينامون على أسيرة الجزء الأعلى منها يسمَّى «سما السرير»، وَكَذَلِكَ قبور الشهداء المسيحيين... كان القبر دائمًا تحت قبة...

- وماذا عن اللون؟

- اللون هُوَ السَّرُّ كله، وَهُوَ العشق كله، فاللون الفيروزي كان مهيمناً عَلَى معظم ألوان القِيَاب والمنمنمات والنقوس والمقرنصات، أعتقد أَنَّهُ كان إشارةً إِلَى لون البحر...

- وَلِمَ البحر تحديداً؟

- نحن نرى لون البحر—أحياناً—أخضرَ فيروزياً... أليس كَذَلِكَ؟

- أحياناً... أنا شخصياً أراه كَذَلِكَ، ولو أنني لم أر ماءً سيوى صنبور مياه الحمام مُنذُ خمسة أعوام...

- هَذَا يحدث بسبب أن البحر يمتص قدرًا مُعِينًا من ضوء الشَّمْسِ، ويعكس قدرًا آخَرَ، وَهُوَ اللون الفيروزي، نحن لا نرى إِلَّا مَا أَرَادَ لَنَا الكونُ أن نراه، لو أجريتَ تحليلًا لطبيعة اللون الفيروزي لوجدته مكوّنًا من اللون الأزرق بنسبة الثلث، واللون الأخضر بنسبة الثلثين...

- وَمَا دلالة كُلِّ لون؟

- الأزرق لَهُ إشارةٌ قرآنيةٌ عن الإِجْرَامِ أَوْ إغْضَابِ الربِّ «ونحشر المجرمين يومئذٍ زُرْقًا»، بينما يقابله اللون الأخضر الذي يحمل معاني الرضا والأنس والمحبة، وَهُوَ لون الرداءِ التي يُلبسه اللهُ عباده في فردوس السماء «عليهم ثياب سندس خضر واستبرق»... وتَمَازُجُ اللَّوْنَيْنِ هُوَ كناية عن الإنسان الذي يجمع في داخله بَيْنَ الخير والشر، فحينما يغلب الأخضرُ عَلَى الأزرق يصبح اللون فيروزيًا ويقترّب الإنسان من الرضا الرباني، وحينما يغلب الأزرق عَلَى الأخضر يصبح اللون مائلًا إِلَى الفيروزي، وَلَكِنَّهُ ليس بفيروزي... فيكون بشريًا صرفًا... وبالتالي فاللون الغالب عَلَى اللون الفيروزي هُوَ اللون الأخضر الذي يشير إِلَى الرضا والمحبة الإلهية التي ينزلها القديرُ عَلَى أجساد مَنْ يحبهم ويجبونه».

نَفَضْتُ عني أطيافَ الخواجة وكلامه، وواصلتُ سيرتي بضعَ خطوات حَتَّى بلغتُ باب الخانقاه الذي كان مصنوعًا من الخشب الأرابيسك البُنِّي الغامق، وتنتهي حوافه بِقِطْعٍ من الزجاج المعشق داخل ثنايا الأرابيسك، ويعلو الباب زخْمٌ من الزخارف الفسيفسائية القيشانية ذات اللون الأزرق، تحيطه نصف قبة ذات مقرنصة ومزخرفة باللون اللبني الفاتح، وداخل إطار القبة شريطٌ من الكتابة الفارسية لم أتمكنُ إِلَّا من قراءة أول سطرين فقط: «بِسْمِ تَعَالَى، عارف رباني شيخ أبو الحسن علي بن جعفر الخرقاني.» كان الوقت قَبْلَ الظهر وأبوابُ الخانقاه مفتوحة، رأيتُ يافطةً معلقةً أعلى مدخلِ المقام مكتوبٌ عليها عبارةٌ فارسية، صَحَتْ مُناديًا عَلَى قاسم، فأسرَع. لم أسأله عن مَعْنَى العبارة، وَإِنَّمَا سألتُه عن إِنْ كَانَتْ تعني «قَدِّمُوا الطعامَ لكلِّ مَنْ يَأْتِي إِلَى المنزلِ وَلَا تسألُوا عن إيمانِهِ»؟ فوافقني مندهشًا.

- وشلون عرفت يا دكتور؟ شنو صار بسرعة اتعلمت فارسي؟

- يقولون عندنا في مصر: العِلْمُ فِي الرَّاسِ، مَشَّ فِي الْكِرَاسِ... أَشْكُرُكَ، يُمْكِنُكَ الْجُلُوسُ حَيْثُ شِئْتَ،
سَوْفَ أَتَجُولُ وَحْدِي قَلِيلًا حَوْلَ الْخَانِقَاهِ، لَنْ أَتَأَخَّرَ.

- أتمنى ذَلِكَ يَا دَكْتُور... عَلَيَّ الْعَمُومُ أَنَا بِصِيرٍ أَجْلِسُ عِنْدَ السُّورِ الْقَدِيمِ... وَلَمَّا بَتَقَرَّغَ مِنَ الزِّيَارَةِ
بِتَلَاقِيَنِي بِنَفْسِ الْمَطْرَحِ...

- وَلَكِنْ... لَا تَذْهَبِ وَتَتْرَكْنِي

- الْأَهْمُ أَلَّا تَذْهَبِ أَنْتِ وَتَتْرَكْنِي، قَالَهَا قَاسِمٌ مَبْتَسِمًا فِي خَبِثٍ لَمْ أَفْهَمِهِ.

المشهد العاشر

حين تُعطي الله شيئاً... يعطيك الله شيئاً

(أبو الحسن الخرقاني)

صوتٌ موسيقى طائرة تطوي المكان تحت جناحيها، وزقزقة عصافيرٍ بدتْ كأنها تُحلّق وهي نائمةٌ بلا أجنحةٍ. كانت الأصوات تأتي مثل صلاةٍ أو نداءٍ مفعمٍ بالسكون.

سرتُ خطواتٍ حتّى وصلتُ مدخلَ الخانقاه. بدأ لهاثُ أنفاسي يتخذُ سمتاً هادئاً. رفعتُ رجلي اليمنى لأخلعَ نعلي فإذا بي أجدني حافياً. تذكرتُ أنني قد انتعلتُ حذائي قبل النزول من الفندق. كيف لم أشعرُ بحرارة أرضِ الطريق والشوارع في هذا اليوم الحار؟ هل خلعتُ نعلي في السيارة وقد نسييتُ؟ ولكن وما الضير في كوني جئتُ إلى هنا حافياً؟ السيارة تنتظرني بالأسفل وبضع خطوات بلا نعل في الحياة لن تقتلني. دنوتُ من البوابة الخشبية للمسجد، وضعتُ قدمي اليمنى داخل المسجد، ثم أعقبته باليسرى، كنت ثابتة القلب، وكان كل شيء بالداخل يعيد إلي شيئاً من السكينة والراحة... رائحة البخور الذكية... العطور الشرقية الفريدة المنتشرة في أثير المسجد... السجاد الأحمر القديم... «أرومة» ماء الورد المنبعثة من كل الأرجاء... تالؤ المصابيح التي تزيّن أركان المسجد... على بُعد خطوة واحدة رأيت الضريح، كان عبارة عن شاهدٍ رخامي مرتفع، مستطيل الشكل، تعلوه لوحة نُقشت عليها بعض العبارات الفارسية.

على سطح اللوح الرخامي استلقت زهرةٌ سوسن صفراء يانعة وحيدة، طالنتي رائحتها الزكية القوية، وكأنها وضعت منذ دقائق، على الرغم من أنني لم أجد أحداً في صحن المسجد. تخيلتُ من وضعتها.

تقدمت خطوتين. لم تكن مساحة المسجد المقام حول الضريح كبيرة، فلم يكن هناك سوى بضعة سجادات شيرازية حمراء اللون تغطي حيزاً لا يتجاوز عرضه الخمسة أمتار، وطولاً لا يجاوز أربعة. في الواجهة المحراب الصخري للمسجد جلستُ، ثم وليتُ وجهي شطر محراب المسجد القديم المتكسر، والذي بدا لي أنّ القائمين على ترميم وإصلاح الخانقاه تركوه على حاله الأول منذ ما يقرب من ألف عام أو يزيدون، فأضفتُ على المكان بُعداً رابعاً؛ الزمن.

اختطفتني تفاصيل المحراب؛ بدتْ مثل شجرةٍ أثرية سُلّبت من ذلك الزمن، وأعيدَ غرسها في مقدمة المسجد. كانت متهدلةً لكنّها أبيّة، واقفة تتحدى الزمن. والزمن لا يرحم، يمحو المَدنَ والدول والعروشَ والسلاطين، ولا يترك سوى أثرٍ مثل الندبة في وجه الإنسان تُذكره بما حدث، وتترك لمن يراها أن يقرأها ويأولها كيفما يشاء. كانت عقارب الساعة تدنو من الثانية عشرة ظهراً، وكان المرقدُ

من الداخل يكاد يخلو من الزوار والمرّيين. لم تمض لحظات إلا ولمحتُ رجلاً يخرج من الحجرة المجاورة للمصلى. كان يرتدي عباءة بيضاء وعمامة بيضاء، الغريب أنه كان ينظر إلى الأرض متحاشياً النظر نحوي. لم أتمكن من تبيّن ملامحه، توجه به بسرعة إلى المنبر ووقف، سمعت صوتاً غريباً صدر من خارج المرقد يؤذن للصلاة، لم يكن هو الشيخ بأية حال... لم أسمع الصوت يصدر منه، كان الصوت من خارج المرقد.

لم تمرّ لحظات إلا وخرج من الغرفة المجاورة رجلان يرتديان ملابس مشابهة لما يرتديه الشيخ... عباءة بيضاء دون عمامة. أسرع الرجلان فأحاطا بي من الجانبين، وقف أحدهما عن يميني والآخر عن شمالي، وكبّرا تكبيرة الإحرام، وصلينا.

بعد أن فرغ الشيخ من أداء الصلاة وبعد أن سلّم ثلاثتنا ورائه، حاولت النظر إلى الرجل الذي عن يميني فوجدته شيخاً مسنّاً، لم أتمكن من تخمين عمره، ولم أتمكن من تفحص ملامح وجهه جيداً. غلالة رقيقة كانت تملو وجه الرجل كأنه يلبس قناعاً من الغمام يغطي وجهه مثل سحابة صيف تغطي الشمس ولا تحجب حرارتها... غلالة تظهر الروح وتخفي الملامح، ثم نظرت إلى شمالي فوجدت رجلاً مسنّاً أيضاً ذا ملامح أوروبية... طويل القامة، ذا لحية خفيفة مشدبة، ونظارة ذات إطار معدني مستدير... ملامح الوجه مألوفة لي... أحسست أن ملامح وجهيهما مدفونة في منطقة بعيدة عميقة الغور في ذاكرتي.

أدّرت بصري نحو الشيخ، فوجدته جالساً مؤلّياً وجهه شطر القبلة، نهضت من جلستي واقتربت منه خطوة واحدة، فلم يجس، ثم خطوتين، فسمعت صوتاً خفياً، كان دعاءً وغناءً... لكنّه دعاء لا يشبه الدعاء، وغناء لا يشبه الغناء...

يا إلهي غني بفضلك ما تركت شيئاً لك إلا وأعطيتني إيّاه في الوقت المناسب

يا إلهي، قضيت من العمر خمسين عاماً حتّى عرفت محبتك، إلهي أسمع ندائك لي بداخلي» إنني أمسك بيد ابن آدم دائماً فهو دائماً في معيتي».

شعرت أن الشيخ لا يضرع بالدعاء، إنّما يترنّم ويصرع بصوت أقرب إلى النحيب.

جرحت الصمت الذي كان يلف المكان بعد أن تطلعت إلى وجهه الأبيض الذي يشرق بنوره الداخلي، وبينما كانت شفتاه تتحركان بالترتيل الصامت وعيناه مطرقتين...

- السلام عليكم...

التقت الشيخ نحوي، كانت هيئته تقرض على أي شخص في مكاني أن يهابه؛ كان أبيض الوجه، طويلاً، متوسط الضخامة، عريض الصدر، عريض اللحية، طويلها، مقرون الحاجبين، فأجابني بصوت خفيض أعاد إليّ بعضاً من الطمأنينة:

- وعلیکم السلام ورحمة الله وبرکاته...

- اسمي یونس سعید أبو الخیر...

- الأسماء ظلال... فإذا أتیتَ تطلب النور فلا تقف في الظل...

لذتُ بالصمتِ، لأدخلُ في الموضوع دون مُواربةٍ، بدلاً من أن يُدخلني الشَّيخُ في الغارِ لا أصبر عليها.

- عندي أسئلةٌ عن العارفِ صاحبِ هذا المقام... جنُّتُ إلى مرقدِه زائرًا...

- حمدٌ لله على السلامة، ولماذا جنُّتَ إلى هذا العارفِ؟ مرآد العارفين كثيرة...

- شكرًا... هل لي أن أعرف من أنتَ؟

- أبحثُ عن إجابةِ سؤالِك مُنذُ الأزل... أريد أن أعرف من أنا...

- وأنتَ يا ولدي؟

- قادتني رسائلٌ قديمةٌ وأطيافٌ وأحلام... لا أعرف لماذا؟ ربما لحظة القدر...

- أنت مُريد...

- وكيف عرفتَ؟

- المُريد هُوَ مَنْ يدخل الباب، ولا يلهي الشَّيخ. المُريد هُوَ أينما جلس في صحبة الشَّيخ يَكُون فرحًا، راضيًا، حتَّى لو جلس بجوار محل نزع النعل، والمريدُ العارفُ لا يُخدع، كما تُخدع الأم طفلها كما تفعل بمسح الزيت على قطعة الخبز...

- لا أفهم؟

- ولدي... أنت جنُّتَ إلى من قادتك قلبك نحوه، جنُّتَ مطلوبًا، يئستَ من حياتك، فجنُّتَ تغيَّرها...

- حياتي؟ مُنذُ وقتٍ طويلٍ يحدثونني عنها... لا أعرف عمَّ أبحثُ!!

- إذا وجدتَ من يطلبك... تَكُون أنت هُوَ شيئًا واحدًا، فلا يبقى شيخٌ ولا مُريد، في عالم الصمت... الشَّيخ والمُريد واحد...

- أتقصد أنك أنت الشيخ الخرقاني؟

- المریدُ يتعرف إلى الشيخ بقلبه ولا يسأله...

- ولكن، كيف أتحدث إلى من مات منذ ألف عام؟

- أمرني الحق تعالى ألا أتجلى للتُعساء، بل أتجلى للصابرين... لمن أجبهم ويجبوني...

- ربما... أنا في الأساس غير متأكدٍ تمامًا أنني أراك حقًا وصدقًا، والأمر لا يشكل فرقًا لديّ، قد يكون حلمًا أو موتًا...

- ممّ قد تخاف يا ولدي؟ أن تكون قد جُنت أم أن تكون قد ميتت؟ فأما وأنت قد تركت منزلك وأهلك وحالك ومالك وجنتي فذاك ليس بجنون، الباحث عن الحقيقة دائمًا في ذهابٍ، أما وأنت قد تكون ميتًا، فالميت لا يخاف من الموت...

- خائفٌ من أن أكون قد فقدت عقلي... لست مجنونًا ولم أسر يومًا في طريق الدراويش... كيف أسمعك وأراك؟

- اعتبره حديث القلوب؛ ما تراه القلوب يُنسب إلى اليقين، هب أنك تحلم، وأنت تحدث من ماتوا، ألم يحدث لك ذلك من قبل؟ لا تسألني عن الكيف يا ولدي... لا تسأل كيف تسمعني ولا كيف تراني... لست غائبًا ولا حاضرًا... أنا باقٍ فإن، وسامعٌ فإن، ومتحدثٌ فإن... وكيف تسمع الأم وليدها وتحس به وهو جنين؟ وكيف تتلاقى أرواح المحبين بعد الوفاة؟ الموت مجازٌ، يجوز به المرء من حالٍ إلى حالٍ، وإلا فقل لي لماذا يُكتب الوليد عمره بعد أن تلفظه أمه من رحمها، لماذا نقول إن عمره يومٌ واحد وليس تسعة أشهر ويوم؟ ولدي... لسنا سوى رؤوس خرجت من الأكفان تحكي...

- أنا أحدث ميتًا إذن؟

- «ما أكثر الرجال الذي يطأون الأرض وهم موتى، وما أكثر الرجال الذين رقدوا في باطن الأرض وهم أحياء».

- أيها الشيخ... كنت أعلم أنني سوف ألقاك، سواءً أكان الأمر واقعًا أم خيالًا، لا يهم... الواقع ذقت مرارته، فلنقض على الواقع...

- لماذا تراني قد بنيت هذه الخانقاه؟

- للعبادة والخلوة والتأمل... بالتأكيد أنت أدري...

- لا... لم أقم هذه الخانقاه إلا لأفتن الناس؛ الفتنة هي أول الطريق، والمفتون وحده هو الناجي...

- الفتنة؟ ظننتك قد بنيتها كي تدلهم إلى الطريق...

ضحك الشيخ ضحكة خفيفة وقال:

- الحق ليس له باب ولا طريق، هو الذي يلهم عباده الطريق... والفتنة أول الطريق... والمفتون هو الواصل الحق...

- وماذا بعد الفتنة أيها الشيخ؟ الفتنة تليها فتنة جديدة، وقد يأنس الناس إلى الأمور المادية التي أتوا من أجلها، أقصد من جاء يقصد مالا أو شفاء من مرض، إلخ؟ ألا تخشى أن يأنس الناس بفتنة الخلوة عن الوصول إلى مقصدهم؟

- يونس... وهل الأنس بالحُب مثل الأنس بالمحسوب؟ الحُب ذاته يقبل الاشتراك، أما المحبوب فلا يقبل الشريك...

- لا أفهم؟

- في أول الطريق تكون مفتونا بشيئك، بدنياك وعالمك، وعندما تخلو بنفسك لنفسك وتقطع علائقك مع الجميع سوى ما فتنت به، وسرعان ما تترك الكون إلى المكون، وتترك العلائق إلى مسبب العلائق، ما بالك إذا انقطعت عن الجميع في هذه البقعة، ألا تدخل المعرفة قلبك فتخرج ما سواها؟

- ليس شرطاً، قد تكون الفتنة محصورة في تأمل العالم... الصحراء... الخلوة بالنفس... أشياء من هذا القبيل، قد تكون نوعاً من السلام الداخلي الذي يصل إليه أي شخص، أيًا كانت عقيدته...

- الفتنة تغري المرء بالتجربة... ويلزم للرجل أن يصل إلى كل شيء ويجرب كل شيء، حتى لا يهفو قلبه إلى شيء، لقد فتن الشيطان آدم عليه السلام وزين له أن يأكل من الشجرة الملعونة، ثم أتته كلمات الله فتاب عليه، وفتن الشيطان إخوة يوسف وزين لهم التخلص من أخيهم، ثم دخلوا مصر، وزليخة أرادت فتنة يوسف عليه السلام، فردها الله بعد حين رداً جميلاً، أكانت الفتنة منتهى الطريق أم مبتداه؟ أتدري ما الذي يحل بك إذا مستك الفتنة؟

- ماذا يحل بي؟

- إذا مستك، أوقظت تلك الفتيلة المنطفنة...

- كيف؟

- الفتنة أول عتبة من عتبات السلم... ومن هوى في الهوى، برأ من الهوى، وإذا اختلى المحبوب بالمحبوب لا يرى إلا المحبوب، ولا يرى نفسه... لقد بنيت هذه الخانقاه كي أفتن الخلق إلى طريق الحق... هذا المنزل للمفتونين وحدهم...

- وأنا الذي خلتك بنيتها كي تهدي الخلق، لا لتفتنهم!

- من كان في قبضة الشيء لا يدركه، وعليك أن تخرج من قبضة النفس إلى قبضة الأوس...
وكلاهما في قبضة الحق، ولدي... أنا أجدبهم إلى طريق الفتنة فحسب... أشدهم بخفة ومكر...

- طرقت الأبواب، وكلها مغلقة...

- الأبواب له وليست لك، هو من يملك مفتاح الباب، وليس أنت، أنت واقف على الباب تنتظر أن يؤذن لك في الدخول، ومُنذ أن دخل الحق قلبي، لفظ كل شيء... أعطيت الله تعالى شياها فأعطاني شيبني...

- وما فائدة الجلوس في هذه الخانقوات إن كان الأمر قدرًا إلهيًا؟

- المعرفة مثل الملك الحر، لا يسكن دارًا ولا بيتًا مُستأجرًا، لا يسكن إلا بيتًا فارغًا خالصًا له، وهكذا المعرفة إنما تأتي إلا أن تدخل بيتًا فارغًا خالصًا لا يكون فيه سواها... المعرفة عكسها الإنكار وليس الجهل وهذه الخانقاه بُنيت ليعرف الناس ما كانوا ينكرون من قبل...

- وكيف تراني؟

- أنت مُريد، والمُحب المُريد لا يعرف أنه ذلك؛ لأنه متى عرف أنه محبٌ مُريد، وقع في الغرور، وكلما كانت محبة المُريد للشيخ أقوى، كانت معرفته أتم، وأنت واضح عليك أنك قطعت الطرق للوصول إلى عبدٍ «فان» مثلي، وهذا دليلي على المحبة...

- تعبت أيها الشيخ... ويئست...

- ولدي... أنت تبحث عن الرضا والحق، والحق لا يوجد في العمران... أتريد الماء العذب؟ وكيف تذوق الماء العذب وأنت لم تشرب الماء الملح!

- مللت من الرموز...

- كل الرموز تبدأ وتنتهي إليه، سأروي لك حكاية؛ أتعلم كيف «هتف بي الهاتف» الذي تتحدث عنه، أترى تلك الصحراء المترامية التي تحيط بنا من كل جانب، خرجت إلى تلك الصحراء محتطبًا في يوم قانظ الحر، فسيرت قاصدًا غابة تبعد عنا مسافة نصف يوم، فأصابني العطش، ولم أكن أحمل إلا قدرًا يسيرًا من الماء نفذ مني بعد أول ساعة، فدعوت الله تعالى أن يهيني القدرة على الصبر، ثم واصلت السير حتى بلغ بي العطش مبلغه، فوجدت أمامي صخرة صماء عظيمة وكأنها وقعت أمامي لتوها من السماء، كانت صخرة كبيرة لونها مثل لون صخور الجبال، مدببة الأركان، فجلست في ظلها ألتمس الراحة، وإذا بي أسمع صوت كلب يقترب مني رويدًا وينبح نباحًا خفيصًا أقرب إلى

النحيب، ففتمت من مكاني وتوجهت ناحية الصوت في الجهة الأخرى من الصخرة، فلمحت ذلك الكلب قادمًا من أقصى الصحراء حاملاً الطعام في فيه، يسرع إلى كلب آخر لم أره بالرغم من أنه كان يجلس مُسْتَظِلًّا بظل الصخرة نفسها في الناحية الأخرى، فوضع الكلب الطعام أمام صاحبه، فرأيت للكلب الآخر الرائد عينين مطموستين، فعلمت أنه أعمى، وما أن فرغ من طعامه، حتى قرب أنفه من صاحبه المُبْصِرِ وتقدّمه، فسار الكلب الأعمى أمام المُبْصِرِ، وبصري متابع ل كليهما، فإذا هما يصلان إلى بركة ماء لا تبعد عن مطرحي كثيرًا، فوقف الكلبان وشربا، ثم عاد الكلب المُبْصِرِ فتقدّم الكلب الأعمى وسارًا حتى صعدًا جبلًا عاليًا وغابا وراءه، من «الأعمى» ومن «البصير»؟

- أعتقد أن كليهما كان فيه شيء من العمى، وشيء من البصيرة...

- العمى والبصر في العيون بمنزلة الشك واليقين في القلوب...

- ماذا تقصد؟

- كلاهما كان على الطريق...

- ولكن هل تقصد أن كلبًا كان هو المرشد إلى طريق الله؟

- العالم علامة، وكل شيء في هذا العالم يدل على شيء...

- لا أريد العودة إلى منزلي كما جئت، أرخني بمسحة نور وأصني... تعبتُ

- أتقصد أمر ابنتك؟

- ومن سواها؟

- لقد شاء الله تعالى أن يفتنك عن طريق الدنيا وما فيها، وأن يردك إليه...

- لكنني واريبت ابنتي التراب... قطعة مني واراها التراب.... هي في السماء وأنا في الأرض...

- بل أنت أقرب ما تكون إليها يا يونس...

- كيف؟

- أقرب الناس إليك من يربتك، والأرض أقرب إليك من كل شيء، ثم إن «الله يرث الأرض ومن عليها»...

- لا، بل عادت إلى مكان لا تقدر على وصفه...

- لا أنكر ذلك... لكن أيعيد ذلك إليّ ابنتي؟ قلبي مريض لم يعرف الراحة قط منذ فقدتها؟

- لجميعنا مرضٌ واحد... وبما أنّ المرضَ واحدٌ فالدواءَ واحدٌ أيضًا، قد لا يعيد هذا الحديث إليك ابنتك، لكنّه قد يعيدك أنت إليها... الأشياء الحقيقية تُعرفُ بنقيضها، ولن تذوق الوصالَ ما لم تعرف الحرمان... ما بالك إذا زارتك كل يوم... وزرتها كل يوم؟ ما بالك إذا يسّر الله إليك طريقًا ترى به وفيه من تحبهم ويحبونك، هذا هو أفسى اختبار قد يصيب ابن آدم، لقد ألهمك الله تعالى البصيرة، حينما أذنت أن تعطي «لروح أخرى» كانت تشرف على الموت، قطعة من جسد ابنتك قبل موتها، كي تحيا تلك الطفلة الأخرى، «ومن أحيها فقد أحيى الناس جميعًا»...

- أحسستُ ساعتها أنّ روحًا أخرى سكنت جوانحي وألهمتني هذا القرار، لا أعرف كيف فعلت ذلك، ولا كيف طاوعني قلبي أن أهب قطعة من جسد ابنتي فيروز إلى طفلةٍ أخرى، كنت أعلم أنّها على وشك الرحيل، لكنني لم أكن أتصور أن تحيا الطفلة الأخرى بقطعة من كلية ابنتي...

- حين تعطي الله شيئاً... يعطيك الله شيئاً...

- كم أتمنى لو ضمنتها إلى صدري ولمستها وشممتها، كم أتمنى لو رأيتها حولي تلهو وتعيش وتكبر...

- هبّ أنك أنت «الميت» وأن ابنتك من «أهل الدنيا»، ماذا إن كنت ترى الأمور معكوسة، كيف تراك إذن تراها وتضمها إلى صدرك وتلمسها، عين اليقين يا «يونس» ألا تريد...

أمسك الشَّيخُ يدي وجذبني برفق، ثم سار بي بضع خطوات إلى موضع تلك الأصوات التي كان تُهمهم، تطلع إلى وجهي، فيما كان الماء يجري من عينيه كالنهر وهو ينقل بصره بين وجهي وبين السماء، ثم سار خطواتٍ أخرى نحو الجهة الخلفية من الخانقاه، فوجدت خلقًا كثيرين لا سبيل إلى حصرهم، وجدتهم مجتمعين في بستان الخانقاه المليء بأشجار السرو السامقة والأزهار.

كان الوقت يقترب من المغرب، رأيت القوم جالسين... متقابلين... على «بساط ممدود»؛ كان البساط ذا لون فيروزي رائق، تعجبت كيف يتسع لهم البساط على كثرتهم؟ فسألته:

- أي بساط ذلك الذي يتسع لكل هؤلاء الخلق؟

أشار بإصبعه إلى الشرق، فأراني نهرًا صافيًا مأوه لامعًا كالبللور، وعلى ضفة النهر المواجهة، أراني شجرة فضية، أوراقها كأنها الياقوت والمرجان.

- وما هذه الشجرة؟

- هَذِهِ شَجَرَةُ الْعَجْزِ... وَهَذِهِ الْأُورَاقُ هِيَ ثَمَرَاتُهَا، فَهِيَ لَا تَطْرَحُ ثَمَرًا؛ لِأَنَّ الثَّمَرَ يُؤْكَلُ وَيُمَضَّغُ، بَلْ تَطْرَحُ أُرَاقًا لَا تَبْلَى تَوَازِي عِدَدَ الْبَشَرِ الَّذِينَ أَعْطَا اللَّهُ أَشْيَاءَهُمْ، فَأَعْطَاهُمْ تِلْكَ الْأُورَاقَ...

انبعثت من وراء أشجار البستان الكثيفة صوت موسيقى ملائكية حزينة: صوت ناي يعزف وقيثارة تضرب. تذكرت كلمة جدّي: «الجنة هي بيت الأغاني يا يونس». كان الجالسون يرتدون ثيابًا بيضاء متشابهة، لم أستطع التمييز بين الأصوات ولا الوجوه ولا إلى ما يقولون. همهمات خافتة تشي بحزن خفي ورضا أيضًا.

أشار الشيخ إليهم وهو يقول:

- أَيْقِظْ رَوْحَكَ، فَهُوَ لَاءَ جَمِيعًا طَلَبَهُمُ الْحَقُّ إِلَى طَرِيقِهِ، فَمَدَّ إِلَيْهِمْ بَسَاطًا مِنْ عِنْدِهِ فَأَوْصَلَهُمُ إِلَيْهِ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَقُولُ وَصَلْتُ لَمْ يَصِلْ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَقُولُ أَوْصَلُونِي قَدْ وَصَلْتُ... فَالْإِصْطِلَالُ هُوَ سَبَبُ الْوَصُولِ... وَكُلُّهُمْ رَاضُونَ مَرْضِيُونَ... أَعْرِفُهُمْ يَا يُونُسَ؟

- لَا... لَا أَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ... سَأَسْأَلُكَ مِنْ جَدِيدٍ... أَيِّ بَسَاطٍ ذَلِكَ الَّذِي يَسَعُ كُلَّ هَؤُلَاءِ الْخَلْقِ؟

- الِيسَاطُ مِنَ «الْبَسْطِ»، وَهُوَ الْحَالُ الَّذِي يَسَعُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ وَلَا يَسَعُهُ شَيْءٌ، وَهُوَ لَاءُ الْخَلْقِ عَلَى قَلْبِ امْرِئٍ وَاحِدٍ... وَالْقَلْبُ يَسَعُ كُلَّ شَيْءٍ إِذَا انْتَهَى بِسِرٍّ «وَسَعَنِي قَلْبُ عَبْدِي»، هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ... كُلُّهُمْ أَعْطَا اللَّهُ أَشْيَاءَهُمْ، فَلَزِمُوا أَبًا وَاحِدًا... وَخَدَمُوا سَيِّدًا وَاحِدًا... وَرَضُوا بِأَمْرِهِ صَفًا وَاحِدًا... فَأَجْلَسَهُمْ بَسَاطًا وَاحِدًا... وَأَفْرَعَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ رِضًا زَائِدًا... وَعَشَقًا رَابِضًا... وَلَدِي... مَاذَا إِذَا سَخِطْتَ وَلَمْ تَرْضَ...؟ يُونُسُ... آمِنَ بِالْغَيْبِ... اللَّهُ غَيْبٌ وَهُوَ مَغِيبُ الْغَيْبِ، وَالْقَلْبُ غَيْبٌ، فَإِذَا آمَنَ الْغَيْبُ بِالْغَيْبِ، رُفِعَ الْحِجَابُ عَنِ الْغَيْبِ، فَوَجَدَ غَيْبَ الْقَلْبِ صَاحِبَ الْغَيْبِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ»... وَقَوْلُهُ: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا».

- وَلَكِنِّي أَسْمَعُ أَصْوَاتَ بَكَاءٍ بَعْضُهُمْ... مِنْ أَجْلِ مَاذَا يَبْكِي الرِّجَالُ؟ آمِنَ أَجْلِ الْوَصَالِ؟

- حِينَ يَبْكِي الْقَلْبُ، تَدْمَى الْعَيْنَانُ... وَحِينَ تَرَى الْعَيْنَانِ ذَلِكَ تَدْرُ الدَّمَاءُ... وَلَمَّا تَسْمَعُ الْأَذْنَ أُغَانِي الرِّحَالَةِ الْقَادِمِينَ مِنْ أَسْفَارٍ بَعِيدَةٍ تَذُوبُ... وَحِينَ يَحُلُ الْوَقْتُ، يَظْهَرُ الْمَحْبُوبُ الْغَائِبُ...

أصابني دوارٌ من عبارة الشيخ الأخيرة. تراجعَت برأسي قليلاً محاولاً جمع شتات أفكارِي والرَّدَّ عليه، ولماذا أُرْدُّ؟

تذكرتُ أمي وعذاباتها طوال سنواتٍ عديدةٍ وجلستها أمام نافذة الحجرة فوق بساطها، وقفزتُ إلى ذهني «بياتريس» ابنة الخواجة التي ماتت طفلةً وأخذ يتخيل حضورها في صورةٍ أخرى طوال حياته.

- مَا خَبَرْتَهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ أَنْ كَثِيرِينَ حَاولُوا أَنْ يَأْتُوا إِلَيْكَ قاصدين الخلاص... السكينة... الرضا...
أستاذي أخبرني أن أسيرَ وراءَ «الهاتف» إذا هتَفَ بي، وأتبع «طالبي» إذا طلبني... لعله كان
يَقْصِدُكَ، ولعله تاه في منتصف الطريق... بل وَجَدِي أَيْضًا افْتَنَّتْ بكلامك وحاول أن يلتمس طريقًا،
وَلَكِنَّهُ وقف في منتصف الطريق... لعلهم سلكوا طريقًا معوجًا...

- وَمَنْ قَالَ لَكَ إِنَّهُمْ لم يصلوا...؟ وَمَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ الطريقَ واحدٌ؟ مَا ظَنُّكَ إِنَّ سَلَكْتَ طريقًا بعينه،
أفلا تَكُونُ وَأنت سائرٌ فِيهِ قَدْ مَلْتَ عن طريق آخر لم يُفْتَحَ لَكَ؛ لو كان الطريقَ واحدًا، لَمَا كان هُنَاكَ
في الأساس مَيْلٌ، ولو كان الطريقَ واحدًا لَمَا افترقَ موسى والخضر، ولَمَا اجتمع يوسف وإخوته...
نهاية نقطة الدائرة هي أول نقطة دارَ مِنْهَا القَلَمُ.

- وكيف الوصول إذن؟

- الوصول منعقدٌ فِيمَنْ يُوصِلُكَ، لعلهم كانوا من المتعالمين ولم يسلكوا طريق العارفين... فالعالم قَدْ
انشغل بتفسير العالم، بينما العارف انشغل بتفسير ذاته، أو لعلهم وقفوا عند الحروف وجذبتهم
الرسومُ والعلوم... لقد حُجِبُوا بالحرف، لعلهم كانوا جميعًا «جامدين» و«يابسين»، والمرءُ مثلُ جذع
الشجرة يسقط للأسفل حين يكون «ثَقِيلًا» «صَلْبًا»، وَيَصْعَدُ للأعلى حينما يكون «خَفِيفًا» «طَرِيًّا»،
مَنْ تتحدث عنهم طلبوا شَيْءَ الله قبل أن يعطوه شيئًا...

أشارَ الشَّيْخُ بيده إلى بستان الخانقاه التي كَانَتْ أماننا مباشرة...

- أترى هذه الزهور؟

- نَعَم...

- هَذِهِ زهور العارفين... والعارفُ سيجدُ طريقه مثلما يعثرُ العاشقُ عَلَى الزهرة...

- وهل ترى السبيلَ المملوءةَ بالحجارة؟

- أراها...

- هَذِهِ الطريقُ هيَ طريق العارفين، وَقَدْ اجتازها الألافُ قبلك، وفي كُلِّ خطوةٍ مِنْهَا مصباحٌ موقَدٌ
عَلَى الدوام... لا تَخَفْ... لِنِ تَضِيعُ. وكلُّ تِلْكَ السبيلِ التي تراها هيَ سُبُلُ العارفين، وَهي سُبُلُ شاقَّةٌ
ومثقلة بالحجارة؛ لكن فوق كلِّ حَجَرٍ إشارةٌ تدلُّكَ إلى مقصدك.

بَسَطَ الشَّيْخُ يده كَمَنْ يَطْلُبُ شيئًا، وَهُوَ يُشِيرُ إلى الحقيبة المعلقة في كتفي. فكَرْتُ في الشَّيْءِ الوحيدِ
الذي أحمله داخلَ حقيبتِي؛ أخرجتُ كتابَ «يونس السَّمَان»، ولم أكن أحمل سواه.

- هل تحتاجه؟

- وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّ الْكِتَابَ مُعِي؟

- لِيَتَحَدَّثَ مِنْ أَخَذَ، وَلِيَصْمُتَ مَنْ أَعْطَى...

المشهد الأخير

لله طُرُقُه الخَاصَّة في الاستِجابَة للدَّعواتِ

(طاغور)

وكأنه قد زَجَّ بي في نهر من الماء الصافي؛ نهر ذي ضفة واحدة كان منبعه مرقدَ هذا الشيخ الذي لا أعرفُ له اسمًا ولا وصفًا، وليس له مصبٌ آخرٌ سوى قلبي؛ فكان الماء يصبُّ عند منبعه. وكما أن نهرًا يرفدُ آخر لتكوين تيارٍ دافق، كذلك تجمَعُ كلُّ ما مررتُ به في الشهر الأخير بدايةً من دفتر د. فالتر، ووفاته، وكراسة جدِّي، ثم أقوال وأحوال الشيخ الخرقاني، حتَّى زيارة مقام هذا المتصوف، فتجمَعُ كلُّ ذلك ليصبَّ في روعي حكمةً تعادل كلَّ ما قرأتُ ودرستُ.

صفحة النهر الهادئة كانت تُوجي بالدعوة إلى الارتواء. كنتُ أسمعُ وسطَ هدير الماء صوتًا هادئًا يقول للمقترِب: ما ظنُّك بنهر، الأنهار كلها أسنة والارتواء الكامل محال. صدقتُ الإشارات والعبارات، ودخلتُ قبو القلب، ثم خرجتُ وقد برأ ذلك القلب من الهوي... وارتد إليَّ بصري من جديد.

خرجتُ في طلب «ماء الحياة»... في طلب الرضا والسكينة والنور الكامل... فوصلتُ إلى «العارف»، فقال لي ما قال، ودلني على منبع «ماء الحياة»، فشربتُ حتَّى ارتويت، حتَّى ما بقيتُ أنا ولا الخرقاني.

اقتربَ المغرب حين غادرتُ الخانقاه. وقفتُ أتأملها للمرة الأخيرة قبل مفارقتها، كانت الشمس قد أخذتُ في الانزواء وراء الجبال المحيطة، تاركَةً وراءها ضوءًا أحمر يصبغ المكان.

حين بلغته، كان تمثال الشيخ يُودعني؛ لم تكن هذه الابتسامة نفسها التي قابلني بها التمثال حينما أتيت ظهراً، لاحت نظرة أخرى، وابتسامة أخرى.

دُرت حوله مرتين، ثم نظرتُ إلى وجه التمثال من جديد، كانت شفنا الشيخ اللتان رأيتهما مزومتين ظهراً، قد انفجرتا عن ابتسامة هادئة، ثم تسلل إلى نفسي صوتٌ لم أر مصدره، وإن أحسستُ بنغمه القوي الصادق ينساب إلى داخلي...

«... ولو أفلتتا من فخ الذات... لأتيح لنا أن نشهد وجه المعشوق. بجماله وسحره وبهائه... فهو الملاذ وهو الغاية...»

هذا نبضُ الله...

لَا أَظُنُّ أَنِّي أَحْسَسْتُ أَنِّي ذَهَبْتُ، وَلَا أَنِّي جَلَسْتُ إِلَيْهِ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ، فَلَقَدْ ذَهَبْتُ جَسَدًا وَخَرَجْتُ شَبَحًا، ذَهَبْتُ غَائِبًا وَرَجَعْتُ أَكْثَرَ غِيَابًا. شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ تَأَكَّدُ دَاخِلِي. أَنَّ الرِّسْمَ الَّتِي طَالَمَا رَأَيْتَهَا فَوْقَ بَسَاطِ أُمِّي وَفَوْقَ لَوْحَاتِ الْخَوَاجَةِ لَمْ تَكُنْ غَامِضَةً يَوْمًا لَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَرَجِّمَهَا؛ كَأَنَّتِ تَحْتَاجُ عَيْنًا أُخْرَى تَخْتَرِقُ الرِّسْمَ وَالْأَلْوَانَ وَتَفْكَ طَلَّاسِمَ الْخَطُوطِ لِتَتَرَجِّمَ الرِّسَالَاتِ؛ رِسَالَاتِ الْخَوَاجَةِ وَرِسَالَاتِ جَدِي.

حِينَ هَبَطْتُ دَرَجَاتِ السُّلْمِ، وَجَدْتُ قَاسِمَ جَالِسًا عَلَيَّ أَحَدَ الْمَقَاعِدِ وَأَمَامَهُ طَبَقٌ مَفْرُوشٌ بِالْوَرَقِ يَتَنَاوَلُ أَرْزًا وَدَجَاجًا. قَامَ مِنْ مَقْعَدِهِ لَمَّا رَأَى وَدَعَانِي لِلْغَدَاءِ. بَعْدَهَا بِدَقَائِقَ جَمَعَ بَقَايَا طَعَامِهِ فِي كَيْسِ بِلَاسْتِيكٍ، وَأَخَذَ يَمْسَحُ يَدَهُ وَيَمْضِضُ فَمَهُ مِنْ زَجَاجَةِ مِيَاهِ كَأَنَّتِ إِلَى جَوَارِهِ.

عُدْنَا إِلَى الْمَوْتِيلِ فِي تَاكْسِي آخَرَ دُونَ أَنْ نَتَبَادَلَ كَلِمَةً وَاحِدَةً. نَظَرَاتٌ صَامِتَةٌ لَا تَقُولُ شَيْئًا مِثْلَ سَمَكَيْنِ التَّقِيَّتَا وَجَهًا لَوْجَهُ فِي حَوْضِ أَسْمَاكِ.

وَكَمَا اتَّفَقْنَا، وَجَدْتُ لُؤْيَ يَنْتَظِرُنِي فِي مَطَارِ «فِيِينَا». خَرَجْتُ مِنْ بَوَابَةِ الْمَطَارِ، فَلَمَحْتَهُ يَلُوحُ إِلَى مِزْنِ بَعِيدٍ. ذَهَبْتُ إِلَيْهِ وَتَعَانَقْنَا، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى سَاحَةِ انْتِظَارِ السِّيَارَاتِ.

سَأَلَنِي عَنْ أَحْوَالِي، وَقَالَ لِي إِنَّهُ سَعِيدٌ بِرُؤْيَا «يُونَسَ الْجَدِيدِ»، فَسَأَلْتُهُ:

- وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ يُونَسَ الْجَدِيدِ وَيُونَسَ الْقَدِيمِ؟

- عَيْبُ عَلَيْكَ يَا صَاحِبِي... الْمَفْرُوضُ أَنْتَ الَّذِي تَخْبِرُنِي مَا الَّذِي أَحْدَثَ الْفَرْقَ؟

طَوَالَ الطَّرِيقِ مِنْ «فِيِينَا» إِلَى جَرَاتَسِ، أَخَذْتُ أَحْكِي لـ «لُؤْيِ» عَمَّا مَرَّ بِي، مُحْتَفَظًا بِبَعْضِ التَّفَاصِيلِ، تَفَاصِيلَ أَظُنُّنِي الْوَحِيدَ الْقَادِرَ عَلَى تَصْدِيقِهَا بَعْدَ هَذِهِ الرَّحَلَةِ.

- وَاللَّهِ يَبْدُو أَنَّ هَذَا الشَّيْخَ مَبْرُوكٌ وَسِرَّهُ بَاتِعٌ كَمَا تَقُولُونَ، لَكِنْ دَعَانِي أَخْبِرَكَ بِشَيْءٍ... لَمَّا بَحِثْتُ عَنْ تَارِيخِ هَذَا الْعَارِفِ «الْخُرْقَانِي» وَاکْتَشَفْتُ عَجَبًا... هُنَاكَ مَوْرُخُونَ يَشْكُكُونَ فِي الْوُجُودِ التَّارِيخِيِّ لَهُ مِنْ الْأَسَاسِ، وَقَالُوا إِنَّهُ شَخْصِيَّةٌ وَهْمِيَّةٌ مِنْ اخْتِرَاعِ «النَّقْشَبَنْدِيَّةِ الْأَوَائِلِ»... كَمَا أَنَّ «أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ» لَمْ يَذْكُرْهُ فِي طَبَقَاتِهِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ عَاصِرُهُ، وَكَذَلِكَ «أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيِّ» لَمْ يَأْتِ عَلَيَّ إِشَارَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَيْهِ فِي «الرِّسَالَةِ الْقُشَيْرِيَّةِ»، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ عَاشَ فِي عَصْرِهِ أَيْضًا... وَتَوَاتَرَتْ أَخْبَارٌ عَنْ زِيَارَةِ الْقُشَيْرِيِّ إِلَى «الْخُرْقَانِي»... لِمَاذَا لَمْ يُتَرَجِّمْ لَهُ إِنْ؟

- وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ رَأْيِي كَانَ سَيَتَغَيَّرُ لَوْ أَنَّنِي وَجَدْتُ أَخْبَارَهُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا؟

حين اقتربنا من «جراتس»، طلبتُ من لؤي النزول عند محل زهور Blumenbau Friedl الذي يقع في شارع كلافيرن بيرج شتراسه، متعللاً برغبتي في شراء زهور لسارة؛ لأنني لم أتمكن من شراء شيء لها من مصر، كما أنني لم أخبرها بزيارتي إلى «بسطام». وإلا لأصرتُ على السفر معي.

لم أكن أحملُ سوى حقيبة صغيرة وحقيبة اللاب توب. أدركَ لؤي رغبتني في الخلوة بنفسني. وقفتُ أمامَ محل زهور. فتحتُ البابَ الزجاجي ودلفتُ إلى المحل، ثمَّ جلستُ إلى مقعدٍ خشبي يشبه زهرة أوركيد كبيرة. كان المحل يقدم القهوة في فناجين على شكل أنواع الزهور التي المعروضة.

فكرتُ في قهوة الشيخ نجدت، لكنني اكتشفتُ أنها نفذت في آخر ليلة لي في «بسطام». فكرتُ في زيارة أخرى للسمعخانة، لكن هذه المرة سأكون وحدي. ربما أدعو لشيخي الخواجة بالرحمة. ألح عليَّ خاطرٌ كان يحول بيني وبين النوم وبين الحلم وبين العلم؛ لم يكن بخصوص ما قاله لؤي حول تشكيك بعض المؤرخين في حقيقة الوجود الفعلي والتاريخي لشخصية العارف «أبي الحسن الخرقاني»، وأنَّ النقشبندية المتأخرين قد اخترعوا هذه الشخصية لإضافتها إلى السلسلة الذهبية للسادة النقشبندية لإسباغ نوع من الأصالة أو حتى القداسة على مذهبهم. لم أكن أهتم كثيراً لذلك، فقد أخذت ما أريد، وأدركت ما كنت أبحث عنه، وارتويت من معين لا ينضب، حتى وإن كان ذلك حُلماً في الكرى. كان الهاجس الذي يؤرقني حول تلك المرأة الشابة التي رأيتها هي وطفلتها الصغيرة «زهرة»... لماذا سمحت لي تلك الأم بالاقتراب من طفلتها؟ كيف تركتني أحمل الطفلة وأقبلها؟ بل إن الطفلة نفسها تكاد تعرفني، شعرت بسخونة دماؤها وكأنها رافدٌ من دمِّي. حين وصلت المنزل، لم أجد سارة في الصالة. ناديت عليها، فلم تجب. توجهتُ إلى غرفة نومنا، وقبل أن أصل إلى الغرفة، رأيتُ بابَ غرفة فيروز مفتوحاً. أطلتُ برأسي من الباب، فرأيت سارة واقفة في الغرفة، وتمسك ورقة وقلمًا و«متر قياس» تقيس به عرض الحائط، التفتت نحوي، ثم ابتسمت وأقبلت بخطواتٍ بطيئة، كانت ترتدي فستاناً زهرياً لم أر مثلاً جماليه في حياتي.

- حمدًا لله على السلامة يا حبيبي... ما أخبار مصر ومن فيها... ماذا فعلت؟

- كنت أمحو ذاكرتي... وحشتيني جدًّا...

لأول مرة منذُ شهر أرى شعاع ضوء يخرج من غرفة فيروز، خرج الشعاع قويًا فأضاء الطرقة كلها، قالت سارة وهي تُسند ظهرها إلى باب الغرفة:

- هذه الغرفة الباردة لن تكون هكذا ثانية، لن أدع الشمس تغيب عنها ثانية، كما أننا نحتاج إلى إعادة طلاء الغرفة، ولعلنا نحتاج سريرًا إضافيًا.

- لن تصدقيني لو أخبرتك أنني حُمتُ بهذا...

- بماذا؟

- حلمتُ بنا نقفُ أمامَ محلِّ زهورٍ في «جراتس»، ننسُقُ صحبةً من الزهور ونختارُ واحدةً، لكنَّها تطوحُ مِن أيدينا... فننفقُ أرواحنا ومنتظر، فيأتي صاحبُ المحلِّ ويعطينا زهرتين زرقاوين...

- هل ما زلتَ تذكرُ الفيلمَ؟

- لم يكن فيلماً ولا حلماً يا سارة... كان سَفراً محتوماً...

طبعْتُ قُبلةً على خدها وتركتها، قاصداً غرفتي لتبديلِ ملابسي. توقفتُ لحظةً عند خروجي، ورجعتُ إلى بابِ الشقة. حملتُ حقيقتي وسيرتُ نحو غرفة النوم. فتحتُ الحقيبة وأخرجتُ دفتر د. فالتر الذي كان قد امتلأ عن آخره.

قلبتُ الصفحاتِ بسرعة، لم أكنُ أحتاجُ النظرَ فيها من جديد. وصلتُ إلى الصفحة الأخيرة، اخترتُ قلمَ جبر أسودَ كلونٍ مغايرٍ عن خطِ القلمِ الذي سَطَرْتُ بِهِ حكايتي... وكتبتُ: «جَدِّي لقد فعلتُ ما طلبته مني... سافرتُ في رحلةٍ إلى بيتِ الأغاني، زرتُ الجنة، وشممتُ زهرتها، فلترح قلبك كما استراح قلبي؛ فقد رأيتُ روحها هناك. هل تزورني في المنام لأروي لك ما رأيته هناك؟ ولأهمسَ في أذنك ما سمعتُ هناك؟ كم أودُّ الآن تقبيلَ يدك ورأسك كما كنتُ أفعلُ وأنا صغيرٌ، كم أودُّ الأخذَ بيدك إلى غرفة أمي «فيروز»... لنبسطَ معاً بساطها، كما كانتُ تفعلُ حين يثتدُّ عليها الألم، فتجلسُ فوق بساطها وتتاجي السماء من نافذتها، فتخفُ الأمها... كلُّ ما رأيته لم يكن سوى صورةٍ واحدة احتفظتُ بها داخلَ قلبي؛ قطعتُ درباً طويلاً، لم يكن إلا خطأً مستقيم الاستدارة».

دخلتُ سارةَ الحجرة، ووقفتُ إلى جوارِ النافذة؛ سألتني باسمه وقد غمرتُ الشمسُ وجهها:

- حبيبي... أنتَ ذكرتني بحلمك... وأنا أذكركُ بكلمةِ Amor وعلاقتها بنهر المور.

- لا أذكرُ أي شيء... لقد محوتُ ذاكرتي، أهداني الخواجة ذاكرةً جديدة.

أمسكتُ سارة بيدي ومشينا نحو الشرفة وقالت ونحن نسير: أنا لا أنسى شيئاً... A شابٌ واقف قدمه في بلدٍ والأخرى في بلدٍ... والـM أرجوحة صديقي هوجو التي في الشرفة... والـO دائرة حلمٍ يحيطُ بنا... والـR فتاةٌ حاملٌ في زهرة. سألتني:

- يونس... اليوم إجازة... ماذا سنفعل؟

- لا شيء... سنستلقي الليلة فوق أرجوحة صديقك هوجو؛ لنسهرَ ومنتظر معاً بزوغ الفجر...

- تمت-

تنويه

جميع الأسماء والأماكن الواردة في هذا النص من محض خيال المؤلف، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل المصادفة.

كانت الأعمال التالية مصادر استلهام أساسية لكتابة هذا العمل:

- المنتخب من نور العلوم، لأبي الحسن الخرقاني، مقتطفات من ترجمة د. غسان حمدان.
- منطق الطير، لفريد الدين العطار النيسابوري، ترجمة: د. لطفي جمعة.
- مثنوي مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة: د. إبراهيم الدسوقي شتا.
- ديوان الشاعر التركي الأسطوري يونس إمره، ترجمة: بديعة محمد عبد العال.
- الحكايات الخرافية لهانز كريستيان أندرسن.
- كلمات متجولة لإدواردو جاليانو- ترجمة أسامة إسبر.
- العهدان القديم والجديد.



كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 / 01001872290

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا
وأنشطة كتابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات
التواصل الاجتماعي التالية:



KayanPublishing